به. قال : صدقتَ. قال عبد المطّلب لبنيه : تحفَّظوا بابن أخيكم، ألاَ تسمعون ما يُقال فيه[1]. وروى عبد الله بن كعب بن مالك[2] عن أبيه قال: حدثنا شيوخ من قومي أنّهم خرجوا تجّارًا، وعبد المطّلب يومئذٍ بمكَّة، ومعهم رجلٌ من يهود تَيْمَاء، صحبهم للتجارة؛ يريد مكّة أو اليمن، فنظر إلى عبد المطّلب، فقال : إنّا نجد في كتابنا الّذي لم يُبدَّل؛ أنّه يخرج من ضِئْضِئ[3] هذا نبيّ، يقتلنا وقومه قتْل عادٍ[4].

وخرّج التّرمذي عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَى[5] عَنْ أَبِيهِ قَالَ : خَرَجَ أَبُو طَالِب ومَعَهُ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ، هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ الرَّاهِبُ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ، فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَلْتَفِتُ، قَالَ : وَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمْ الرَّاهِبُ، حتّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ : هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخ قُرَيْشٍ : مَا عِلْمُكَ؟ قَالَ : إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنْ الْعَقَبَةِ، لَمْ تبْقَ شَجَرَةٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا

---

(1) روا أبو نعيم الأصبهاني عن الواقدي في دلائل النبوة. الأثر رقم 99.

(2) هو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْب بْنِ مَالِكٍ الأنصارى السلمى المدنى (أخو عبد الرحمن وعبيد الله ومحمد ومعبد). من كبار التابعين. توفي سنة سبعٍ أو ثمانٍ وتسعين. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 1125/2.

(3) الضئضئ : الأصل.

(4) روا أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة. الأثر رقم 100.

(5) هو أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيُّ الْكُوفِيُّ. كَانَ كُوفِيًّا عُثْمَانِيًّا وُلِّيَ قَضَاءَ الْكُوفَةِ فِي زَمَنِ الْحَجَّاجِ. توفي سنة 106هـ. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 185/3.

خرَّ سَاجِدًا، وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وَإِنِّي عرفته بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ. ثُمَّ رَجَعَ، وَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ، وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الْإِبِلِ، قَالوا : أَرْسِلُوا إِلَيْهِ. فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ الْقَوْمِ، وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ..

قَالَ : فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ، فَإِنَّ الرُّومَ إِذَا رَأَوْهُ، عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ، فَيَقْتُلُونَهُ. فَالْتَفَتَ، فَإِذَا بِسَبْعَةٍ مِنْ الرُّومِ قَدْ أَقْبَلُوا، فَاسْتَقْبَلَهُمْ الرّاهب، فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا : جِئْنَا إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ إِلَيْهِ بِأُنَاسٍ، وَإِنَّا قَدْ أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا.. قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا يريد اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَهُ، هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ رَدَّهُ؟ قَالُوا : لَا. قَالَ : فَبَايَعُوهُ، وأنا هذا مَعَهُ. قَالَ : أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ، أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟ قَالُوا : أَبُو طَالِبٍ. فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ، حتّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا، وَزَوَّدَهُ الرَّاهِب مِنْ الْكَعْكِ وَالزَّيْتِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

ومثل هذه الأخبار تضيق عن الحصر، وخرّج أكثر هذا الحديث أبو عيسى الترمذيّ عن أبي موسى الأشعريّ.

قلتُ : وتأمّل بَعْث بلال معه، فإنّه يقتضي ملك أبي بكر له في ذلك الوقت، والثّابت في السّير أنّه إنّما فداه من أميّة بن خلف حين كان يعذّبه على الإسلام، إلاّ أن يكون باعه بعد هذه القصّة.

---

(1) انظر سنن الترمذي في المناقب. بَاب مَا جَاءَ فِي بَدْءِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والحديث صحيح لكن ذكر بلال فيه منكر.

[بعض أخبار الشّهب الّتي أشار إليها النّاظم]

وأمّا بعض أخبار الشُّهب الّتي أشار إليها النّاظم، فمن ذلك : ما رواه ابْن عَبّاسٍ عَنْ نَفَرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ : أَنّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لَهُمْ : «**مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا النّجْمِ الّذِي يُرْمَى بِهِ؟**» قَالُوا : يَا نَبِيّ اللهِ، كُنّا نَقُولُ حِينَ رَأَيْنَاهَا يُرْمَى بِهَا : مَاتَ مَلِكٌ، مُلّكَ مَلِكٌ، وُلِدَ مَوْلُودٌ، مَاتَ مَوْلُودٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَلَكِنّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ إذَا قَضَى أَمْرًا فِي خَلْقِهِ، سَمِعَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، فَسَبّحُوا، فَسَبّحَ مَنْ تَحْتَهُمْ، لِتَسْبِيحِهِمْ فَسَبّحَ مَنْ تَحْتَ ذَلِكَ، فَلَا يَزَالُ التّسْبِيحُ يَهْبِطُ، حتّى يَنْتَهِيَ إلَى سَمَاءِ الدّنْيَا، فَيُسَبّحُوا، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مِمّ سَبّحْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ : سَبّحَ مَنْ فَوْقَنَا، فَسَبّحْنَا لِتَسْبِيحِهِمْ. فَيَقُولُونَ : أَلَا تَسْأَلُونَ مَنْ فَوْقَكُمْ؛ مِمّ سَبّحُوا؟ فَيَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ، حتّى يَنْتَهُوا إلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهُمْ : مِمّ سَبّحْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ : قَضَى اللهُ فِي خَلْقِهِ كَذَا وَكَذَا، لِلْأَمْرِ الّذِي كَانَ، فَيَهْبِطُ بِهِ الْخَبَرُ مِنْ سَمَاءٍ إلَى سَمَاءٍ، حتّى يَنْتَهِيَ إلَى سَمَاءِ الدّنْيَا، فَيَتَحَدّثُوا بِهِ، فَتَسْتَرِقُهُ الشّيَاطِينُ بِالسّمْعِ عَلَى تَوَهّمٍ وَاخْتِلَافٍ، ثُمّ يَأْتُون بِهِ الْكُهّانَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيُحَدّثُونَهُمْ بِهِ، فَيُخْطِئُونَ، وَيُصِيبُونَ، فَيَتَحَدّثُ بِهِ الْكُهّانُ، فَيُصِيبُونَ بَعْضًا، وَيُخْطِئُونَ بَعْضًا. ثُمّ إنّ اللهَ – تعالى - حَجَبَ الشّيَاطِينَ بِهَذِهِ النّجُومِ الّتِي يَقْذِفُونَ بِهَا، فَانْقَطَعَتْ الْكِهَانَةُ الْيَوْمَ، فَلَا كِهَانَةَ**»[1].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 299/2.

[زمن الرّمي بالنّجوم]

واختُلِف متى كان هذا الرّمي بالنّجوم، فقيل : إنّما حدث بعد مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لئلاّ تلتبس الكهانة بالوحي؛ ولأنّ ذلك أظهر للحجّة ، وأقطع للشّبهة ، ويدلّ على هذا : كون العرب استغربت ذلك، إذ لم يكن قبل مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتّى فزعوا لذلك، وصار بعضهم إلى عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الثّقفي، وكان من دهاة العرب، فقالوا : يَا عَمْرُو، أَلَا تَرَ مَا حَدَثَ فِي السّمَاءِ مِنْ الْقَذْفِ بِالنّجُومِ؟ فقَالَ : بَلَى، فَانْظُرُوا، فَإِنْ كَانَتْ مَعَالِمُ النّجُومِ الّتِي يُهْتَدَى بِهَا فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ، وَتُعْرَفُ بِهَا الْأَنْوَاءُ مِنْ الصّيْفِ وَالشّتَاءِ بِمَا يُصْلِحُ النّاسَ فِي مَعَايِشِهِمْ، هِيَ الّتِي يُرْمَى بِهَا، فَهُوَ وَاَللهِ طَيّ الدّنْيَا، وَهَلَاكُ الْخَلْقِ الّذِي فِيهَا، وَإِنْ كَانَتْ نُجُومًا غَيْرَهَا، وَهِيَ ثَابِتَةٌ عَلَى حَالِهَا، فَهَذَا لِأَمْرِ أَرَادَ اللهُ بِهِ هَذَا الْخَلْقَ. ولو كانوا يعرفونه قبل ذلك ما أنكروه[1]. وأيضاً إنكار الجنّ ممّا يدلّ على حدوثها، قال تعالى حكاية عنهم : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ..﴾ الآية[2].

وقيل : بل كان قديماً، وذكره قوم من قدماء الجاهلية في أشعارهم، فَوَصَفُوا الرّمي بالنّجوم، قال عَوف بن الخَرِع - وهو جاهليّ - يصف فرسا :

تَـرِدُّ عَلينـا العَيْـرَ مِـن دُون أَنْفـه   أو الثَّـوْر كالـدُّرّي يتْبَعُـهُ الـدَّمُ

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 298/2.

(2) سورة الجن : من الآية 9. والآية بتمامها : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

وذكره أوس بن حَجَر[1]، وبِشْر[2]، وإنّما أنكروا كثرة ذلك، والتّغليظ فيه والتّشديد، ولم يكن قَبل ذلك قِيلَ، ويدلّ قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للأنصار : «**مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا النَّجْمِ الَّذِي يُرْمَى بِهِ؟**». فدلّ أنّه كان متقدّماً.

قلتُ : ولا دليل في هذا، لأنّ أولئك الّذين سأل، أدركوا زمان ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من حينئذٍ. وقوله : "ما كنتم تَقُولُونَ"؛ يعني قبل الإسلام، والله أعلم. ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[3]. فدلّ أنّه كان قبل ذلك شيءٌ، ثمّ كثُر واشتدّ عند مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لينحسم أمر الشّياطين وتخليطهم.

---

(1) سبق توثيقه، وهو وقوله : فانقضّ كالدّريءِ يَتْبَعُهُ نَقْع يثُورُ تخـالُه طُنُبَا

(2) وهو بِشْر بن أبي خازم، وسبق توثيقه، وهو قوله :

والعير يُرْهِقُها الخبَار وجَحشُها ينقضُّ خلْفهُما انْقِضاض الكوكبِ

(3) سورة الجن : من الآية 8.

[سقوط الأصنام عند مولده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وأمّا سقوط الأصنام : فما روى المؤرّخون : أنّه لمّا ولد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أصبحت أصنام الدّنيا كلّها ذلك اليوم منكوسة، وأصبح عرش إبليس ساقطاً، فلمّا رأى ذلك صرخ، واجتمعت إليه الشّياطين، فقالوا : يا سيّدهم، ما الّذي دهاك؟ فقال لهم : «هذا محمّد بن عبد الله، مبعوث بالسّيف القاطع، يبطل عبادة الأوثان، ويدعو إلى الرّحمن، الّذي لا نأتي موضعاً من المواضع إلاّ وجدنا فيه ذكره»[1].

وممّا يناسب قوله : "حتّى غَدَا" ما حكى الثّعلبي في سورة الحجر أنّ ابن عبّاس قال : «تصعد الشّياطين أفواجاً تسترق السّمع، فينفرد مَارِدُها، فيُرمي بالشّهاب، فيصيب جبهته أو ما شاء الله منه، فيأتي أصحابه وهو يلتهب، فيقول : كان من الأمر كذا. فيذهب أُولئك إلى إخوانهم من الكهنة، فيزيدون عليها تسعاً، فيحدّث بها أهل الأرض، الكلمة حقّ، والتّسع باطل، فإذا رأوا شيئاً ممّا قالوا، صدّقوهم بما جاؤوا به من كذبهم.. فلمّا وُلد عيسى - عليه السّلام - مُنعوا من ثلاث سماوات، فلمّا وُلد محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُنعوا من السّماوات أجمع، فما منهم من أحد يريد استراق السّمع، إلاّ رُمي بشهاب، فلمّا مُنعوا من تلك المقاعد، ذكروا ذلك لإبليس، فقال : لقد حدث في الأرض حدثٌ، فبعثهم، فوجدوا النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقرأ القرآن، فقالوا : هذا والله الّذي حدثَ. وإنّهم ليُرمون، فإذا توارى النّجم عنكم، فقد أدركه، لا يُخطئ أحداً، ولكن لا يقتله، يحرق وجهه، جَنبه، يده، ومنهم من يُحِيله فيصير غُولاً، يُضلّ النّاس في البوادي»[2].

---

(1) انظر الدر المنظم. العزفي : ص 320.

(2) انظر تفسير الثّعلبي (الكشف والبيان). الثعلبي : 333/5.

[خبر أبرهة]

وأمّا أبرهة، فكان من خبره أنّه كان صاحب اليمن من قِبل النّجاشي ملِك الحبشة، فبنى كَنِيسَةً بِصَنْعَاءَ يُقال لها الْقُلَّيْس – بالتّشديد – بمنزلة القُبَّيْطِ، كذا ضبطه الجوهري، لم يُر مثلها في زمانها. قال الجوهري : «وَهَدَمَتْهَا حِمْيَر»[1]. انتهى.

وَكَانَ أَبْرَهَةُ قَدْ اسْتَذَلّ فِي بُنْيَانِهَا أَهْلَ الْيَمَنِ بأَنْوَاعِ مِنْ السّخْرِ، وَكَانَ يَنْقُلُ إلَيْهَا الرّخَام الْمُجَزّع وَالْحِجَارَةُ الْمَنْقُوشَةُ بِالذّهَب مِنْ قَصْرِ بِلْقِيس صَاحِبَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السّلَامُ، وكَانَ حُكْمُهُ في العَامِلِ؛ إنْ طَلَعَت الشّمْسُ وَلَم يَشْرعْ في العَمَلِ، قَطَعَ يَدَهَ، وَنَصَب فِيهَا صُلْبَانًا مِنَ الذّهَب وَالْفِضّةِ، وَمَنَابرَ مِنْ الْعَاجِ وَالْآبَنُسِ. وإنّما سُمّيَتْ الْقُلّيْس؛ لِارْتِفَاعِ بِنَائِهَا وعُلُوّها، وَمِنْهُ الْقَلَانِسُ؛ لجَعْلِهَا فوقَ الرّءُوسِ. فَلَمّا كَمُلَ مُرَادُهُ مِن بُنْيَانِهَا، كَتَب إلَى النّجَاشِيّ : إنّي قَدْ بَنَيْت لَك أَيّهَا الْمَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُر مِثْلُهَا لِمَلِكِ قَبْلَك، وَلَسْت بِمُنْتَهٍ حتّى أَصْرِفَ حَجّ الْعَرَب إلَيْهَا، فَلَمّا تَحَدّثَتْ الْعَرَب بِكِتَاب أَبْرَهَةَ إلَى النّجَاشِيّ، غَضِب رَجُلٌ مِنْ النّسْأَةِ، من بَنِي فُقَيْمِ بْنِ عَدِيّ بْنِ كِنَانَةَ، وَالنّسَأَةُ جمع نَاسِئ، وهم الّذِينَ يَنْسَأُونَ الشّهُورَ على الْعَرَب فِي الْجَاهِلِيّةِ، فَيُحِلّونَ شَهْرا مِنْ أَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَيُحَرّمُونَ مَكَانَهُ شَهْرًا مِنْ أَشْهُرِ الْحِلّ[2].

فَخَرَجَ الْكِنَانِيّ حتّى أَتَى الْقُلّيْسِ فَأَحْدَثَ فِيهَا. فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ أَبْرَهَةُ، فَقَالَ : مَنْ صَنَعَه؟ قِيلَ لَهُ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الّذِي تَحُجّه الْعَرَبُ،

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 965/3. مادة قلس.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 243/1.

لَمّا سَمِعَ قَوْلَك : "أَصْرِفُ إِلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ"، فغَضِب عِنْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةُ، وَحَلَفَ لَيَسِيرَن إِلَى الْبَيْتِ حتّى يَهْدِمَهُ، فَتَجَهّزَتْ الْحَبَشَةَ، وَخَرَجَوا بِالْفِيلِ، فَأَعْظَمت ذَلِكَ الْعَرَبُ، وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقّا عَلَيْهِمْ[1].

فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ أَشْرَافِ الْيَمَنِ ذُو نَفْرٍ مع قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ الْعَرَبِ، فقَاتَلَه، فانهزم ذُو نَفْرٍ، وَأُخِذَ أَسِيرًا، فَلَمّا هَمَّ بقَتْله، قَالَ لَهُ : أَيّهَا الْمَلِكُ.. عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَائِي خَيْرًا لَك مِنْ قَتْلِي، فَتَرَكَهُ، فلمّا بلغ أَبْرهةُ أَرْض خَثْعَمَ، عَرَضَ لَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيب الْخَثْعَمِيّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ الْعَرَبِ، فانهزمُوا وأُسِر نُفَيْلٌ، فَلَمّا هَمّ بِقَتْلِهِ، قَالَ : لَا تَقْتُلْنِي أَيّهَا الْمَلِكُ، فَإِنّي دَلِيلُك بِأَرْضِ الْعَرَبِ، فتَرَكَه. وكان دَلِيلَه حتّى أَتَى الطّائف، فخَرَجَ مَسْعُودُ بْنُ مُعَتّب بْنِ مَالِكِ الثّقفي مع رِجالٍ مِن قَومِه، فَقَالُوا لَهُ : أَيّهَا الْمَلِكُ، نَحْنُ عَبِيدُك، لَيْسَ عِنْدَنَا لَك خِلَافٌ، وَلَيْس بَيْتُنَا هو الّذِي تُرِيدُ - يَعْنُونَ اللّات - إنّمَا مرادك بَيْت مَكّةَ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَك مَنْ يَدُلّك عَلَيْهِ. فَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو رِغَالٍ دَليلاً، فلمّا أَنْزَلَهُ الْمُغَمّس مَاتَ أَبُو رِغَالٍ هُنَالِكَ، فَرَجَمَتْ الْعَرَبُ قَبْرَهُ، فَبَقِيَ رَجْمُهُ سُنّةً عِنْدَهُم، ثمّ بَعَثَ أَبْرَهَةُ خَيْلاً إلى مكّة، فَأَتَوا بِأَمْوَالٍ مِنْهَا مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطّلِب بْنِ هَاشِمٍ سَيّدُ قُرَيْشٍ، فَهَمّتْ العَرَبُ مِن قُرَيْش وَكِنَانَة وَهُذَيْل بِقِتَالِهِ، ثُمّ عَلِمُوا أَنّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَتَرَكُوه[2].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 245/1.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 259/1.

فَبَعَثَ أَبْرَهَةُ رَجُلاً[1] مِن حِمير إِلَى مَكّةَ، وَقَالَ لَهُ : قُلْ لَسيّدها : إنّي إنّمَا أتيتُ لِهَدْمِ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا لي دُونَهُ، فَلَا حَاجَةَ لِي بِدِمَائِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي، فَأْتِنِي بِهِ. فأتى الرّجلُ عَبْد الْمُطّلِبِ، وبلّغه الرّسَالَةَ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ : لا نُرِيدُ حَرْبَه، ولا نُطِيقُه، هَذَا بَيْتُ اللهِ الْحَرَامِ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلَامُ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ، فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخَلّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ. فَقَالَ لَهُ : فَانْطَلِقْ مَعِي إِلَيْهِ[2].

فَانطَلَقَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ، حتّى أَتَى الْعَسْكَرَ، فاستأذَنَ عليه، فأذِنَ له.. وَكَانَ عَبْدُ الْمُطّلِب أجمَلَ النّاسِ، فَلَمّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلّهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَهُ، وَكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الْحَبَشَةُ يَجْلِسُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، فَنَزَلَ، وأَجْلَسَه عَلَى بِسَاطِهِ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ : قُلْ لَهُ ما حَاجَتُكَ؟ فَسَأَلَه التّرْجُمَانُ، فَقَالَ : أَنْ يَرُدّ عَلَيّ الْمَلِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي، فَأَخْبَرَهُ التّرْجُمَانُ. فَقَالَ لَهُ : قُلْ لَهُ : قَدْ كُنْت أَعْجَبْتَنِي، ثمّ زَهِدْتُ فِيكَ، تُكَلّمُنِي فِي الأَبْعِرَةِ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هِيَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِك، لَا تُكَلّمُنِي فِيهِ؟ فَقَالَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ : أَنَا رَب الْإِبِلِ، وَإِنّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ. قَالَ أَبْرَهَةُ : مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنّي. قَالَ له : أَنْتَ وَذَاكَ، فَرُدّ عَلَيّ الْإِبِلَ. وأتى قُرَيْشًا فَأَخْبَرَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكّةَ، وَالتّحَرّزِ فِي شِعْبِ الْجِبَالِ خوفًا مِنْ مَعَرّةِ الْجَيْشِ، فَأَخَذَ عَبْدُ الْمُطّلب بِحَلْقَةِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللهَ، ويَسْتَنْصِرُونه عَلَى أَبْرَهَةَ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ :

---

(1) اسمه : حُنَاطَةَ.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 260/1.

لَا هُـمّ إنّ الْعَبْـدَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حَلالَك

لَا يَغْلِـبَنّ صَـلِيبَهُمْ وَمِحَالُهُمْ غَدْوًا مَحَالُك

ثمّ انْطَلَقَ عَبدُ المُطّلِب وقَوْمُهُ إلى شِعْب مَكّةَ، فتحَرَّزُوا فِيها، فلَمّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيّأَ للدُخُولِ، وَكَانَ اسْمُ الْفِيلِ مَحْمُودًا. فَلَمّا وَجّهُوا الْفِيلَ إلَى مَكّةَ، أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيب حتّى قَامَ إلَى جَنْب الْفِيلِ، فأَخَذَ بِأُذُنِهِ، وَقَالَ : ابْرُكْ مَحْمُودُ أَوْ ارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنّك فِي بَلَدِ اللهِ الْحَرَامِ. ثُمّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ. فبَرَكَ الْفِيلُ، فضَرَبُوه لِيَقُومَ، فَأَبَى، فضَرَبُوه بِالطّبَرْزِينِ فِي رَأْسِهِ، فَأَبَى، فوَجّهُوهُ رَاجِعًا إلَى الْيَمَنِ، فقَامَ يُهَرْوِلُ، وإلَى الشّام كذلك، وإلَى الْمَشْرِقِ كذلك، وإلَى مَكّةَ فبَرَكَ، وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنْ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ، مَعَ كُلّ طيرٍ حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ أَمْثَالُ الْحِمّصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيب أَحَدًا مِنْهُمْ، إلّا هَلَكَ، وَلَيْس كُلّهُمْ أَصَابَتْ، وَخَرَجُوا يَبْتَدِرُونَ الطّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيب لِيَدُلّهُمْ عَلَى الطّرِيقِ، فقَالَ نُفَيْلٌ حِينَ رَأَى مَا نزَلَ بِهِمْ مِنْ نِقْمَة اللهِ:

أَيْـنَ الْمَفَـرّ وَالإِلَـهُ الطّالِـب وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوب لَيْسَ الْغَالِبُ

فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ في الطّرِيقِ، وَأُصِيب أَبْرَهَةُ فِي جَسَدِهِ، وخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً، كلَّمَا سَقطَتْ أَنْمُلَةٌ أَتْبَعَتْهَا مِنْهُ مِدّة قَيْح وَدَم، حتّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطّائِرِ، فَمَا مَاتَ حتّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ. قيل : وأَوّلَ مَا رُئِيَتْ الْحَصْبَةُ وَالْجُدَرِيّ بِأَرْضِ الْعَرَب ذَلِكَ الْعَامَ، وأَوّلُ مَا رُئِيَ بِهَا مَرَائِرُ الشّجَرِ كالْحَرْمَلِ وَالْحَنْظَلِ وَالْعُشَرُ ذَلِكَ الْعَامَ[1]. وهذا اختصار قصّته.

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 262/1 وما بعدها.

[بعض آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وأمّا رَمْيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالحصى في وجه العسكر، فإنّه كان في غزوة بَدْر وفي حُنَين، لأنّه لمّا دنا بعض النّاس من بعض ببدرٍ، أمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ألاّ يحملوا حتّى يأمرهم، وقال : «**إنْ اكْتَنَفَكُمْ الْقَوْمُ فَانْضَحُوهُمْ عَنْكُمْ بِالنّبْلِ**»[1]. ثُمّ عَدّلَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صفُوفَ أصحابه، وَرَجَعَ إلَى الْعَرِيشِ، وَمَعَهُ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَرَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُنَاشِدُ رَبّهُ مَا وَعَدَهُ مِنْ النّصْرِ، وَيَقُولُ : «**اللّهُمّ إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدْ**». وَأَبُو بَكْرٍ يَقُولُ : يَا نَبِيّ اللهِ بعض مُنَاشَدَتُك، فَإِنّ اللهَ مُنَجّزٌ لَك مَا وَعَدَك[2]. ثُمّ أَخَذَ رَسُول اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَفْنَةً مِنْ حَصْبَاءِ، فَاسْتَقْبَلَ بِهَا قُرَيْشًا، ثُمّ قَالَ : «**شَاهَتْ الْوُجُوهُ**». ثُمّ نَفَحَهُمْ بِهَا، وَقَالَ لأَصْحَابه : «**شِدّوا**». فَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ[3].

وجعل الله – سبحانه - شأن تلك الحصْباء عظيماً؛ لم تترك رجلاً من المشركين إلاّ ملأت عينه، واستولى عليهم المسلمون، ومعهم نصر الله وملائكته، يقتلونهم ويأسِرونهم، ويجِدُّون النّفر، كلّ واحد منهم منكبّ على وجهه، لا يَدري أين يتوجّه، يُعالج التّراب - ينزعه مِن عينيه - فقتل الله مَن قتل مِن صناديد قريش، وأُسِر مِن أشرافهم مَن أُسِر.

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 104/5.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 105/5.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 106/5.

وفي مسلم قال العَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِب رضي الله عنه : شَهِدْتُ حُنَيناً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ، فَلَمَّا الْتَقَى الجَمْعانُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ. قَالَ العَبَّاسُ وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكُفُّهَا لئلاّ تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ». فنادى العَبَّاسُ، وكان رَجُلًا صَيِّتًا : أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ عليّ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ. فَاقْتَتَلَ القَوْمِ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ قُصِرَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ.. فَنظَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ، ثُمَّ أَخَذَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَصَيَاتٍ، فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ. ثُمَّ قَالَ : «**انْهَزَمُوا وَرَب مُحَمَّدٍ**». فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ، إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا[1].

وأمّا تسبيح الحصى : فما رُوِي عن أنس قال : أخذ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كفّا من حصى، فسبّحنَ في يده، حتّى سمعوا التّسبيح، ثمّ

(1) انظر صحيح مسلم في الجهاد والسير. بَاب فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ.

صبّهنّ في يد أبي بكر، فسبّحن، ثمّ في أيدينا، فما سبّحن. ومثله عن أبي ذرّ، وذكر أنّهنّ سبّحن في كفّ عمر وعثمان[1]. ومثل هذا المعنى قول ابن مسعود : لَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ. وفي لفظ : كنّا نأكل معه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الطّعام، ونَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ[2]. وعن جعفر بن محمد عن أبيه : مرض صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتاهُ جِبريلُ بِطبَقٍ فيه رُمّانٌ وعِنبٌ، فَأَكلَ مِنه النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسبَّحَ[3].

فإنْ قلتَ : ظاهر النّظم أنّ الحصى الّتي رَمَى بها الكفّار هي الّتي سَبَّحَت، وأنّ الرّمي بها كان بعد تسبيحها بباطن كفّيه، وما رَوَي عن أنس إنّما يدلّ على أنّ الحصى سبّح في كفّه على الجملة.

قلتُ : ولعلّ النّاظم اطّلع على أنّها سبّحت في هذا الموطن، فإنْ كان هذا فلا إشكال، وإلاّ كان قوله : "بعدُ"؛ لترتيب الأخبار، كما قال النّحاة في "ثمّ" في نحو قوله : إنَّ مَنْ سادَ ثُمّ سادَ أَبُوه..[4]. والمعنى عند النّاظم أنّه قصد الإخبار بخَرق العادة؛ في كون حصى الكفّين أصاب الجمع العظيم، حتّى لم يغادر منهم أحدًا، ثمّ كأنّه يقول : وهذا الإخبار الغريب كان بعد إخبار آخر غريب وقع له في

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 306/1.

(2) رواه الترمذي في المناقب. بَاب فِي آيَاتِ إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ. والحديث صحيح.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 307/1.

(4) البيت يورده الكتاب بلفظ : إنَّ مَنْ سادَ ثُمّ سادَ أَبُوه ثُمَّ قد ساد قَبْلَ ذلِك جَدُّه

ولم أقف عليه بهذا اللفظ منسوباً، والذي وقفت عليه منسوباً لأبي نواس هو قوله :

قل لِمن سَاد ثمَّ سَاد أبوهُ قبله ثمَّ قبل ذَلِك جدّه

انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 45/11.

الحصى خارق للعادة، وهو كونه سبّح في كفّه، أو يكون هذا من التّسبيح العام للأشياء الثّابت في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ..﴾ الآية[1]، وأتى به تنبيهاً على أنّ الحصى وغيره منقاد لله تعالى، مطيع لأمره، يسير حيث أمره، فلا يُستبعد شموله أعين الكفّار، هذا إن كان التّقدير : بعد تسبيح من الحصى، على أنّ كلامه ليس بصريح فيه؛ لاحتمال أنْ يكون التّسبيح من النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اقتداء منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيونس، وطلباً منه للفرج ببركة التّسبيح، كما كان ذلك ليونس عليه السّلام، وقد أمره الله تعالى أنْ يقتدي بهم، فقال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾[2]. أو يكون تسبيحه في هذا المقام لغير ما فائدة ممّا يطول ذكره، إلاّ أنّ هذا الوجه يُبعِدُه قوله : "بِبَطْنِهِمَا".

ورأيت في بعض الشّروح : «أنّ المعنى : نبذًا بالحَصَى مِن أكفّ الأطيار بعد تسبيحٍ بِبطن أكفهما، أو نبذًا به مِن بُطون الكفّار بعد تَسبيح ببطنهما؛ بطنِ الفارِس والفرَسِ». انتهى. ولا يخفى عليك ما في هذا الشّرح من التّخليط والكلام الخُلف.

وأمّا شرح حديث يونس عليه السّلام في الْتِقَام الحوت إيّاه، ومدّة إقامته في بطنه، وسبب انصرافه عن قومه، وركوبه السّفينة، وطَرْحه في البحر بالقُرعة، وكيف نُبِذ، وأين، وما نبت عليه من الشّجر، واسم الحوت الّذي الْتَقَمَه، وما خُصّ به، وغير ذلك من أخباره، ففي كتب التّفسير وغيرها، فلا نطيل به[3].

(1) سورة الإسراء : من الآية 44.

(2) سورة الأنعام : من الآية 90.

(3) انظر ذلك كله مثلا في زاد المسير. ابن الجوزي : 553/3 وما بعدها.

إسناد "العَمىَ" و "الصَّمَم" إليهم - وإنْ كان الله هو الّذي أعماهم وأصمّهم - من التّأدّب؛ نحو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السّلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾[1]. وفي الحديث : «**وَالْخَيْرُ دأبك اللَّهمّ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[2]. وإنْ قُرِئا بالبناء للمفعول فعلى الأصل.

وأتَى بالفاء في "فإعْلاَن"؛ إيذاناً بسببيّة ما بعدها عمّا قبلها. وإضافة "الإعْلاَن" و"البَارِقة" للاختصاص. و«أل» في "البشائر" و"الإنذار" للعهد. وتقديم المسند في "فإعْلاَن" و"بارقة" لتقوِي الحُكم؛ لأنّ الخير فعل. وبناء "تُسمَع" و"تُشَم" للمفعول تنبيهٌ على تمكّن العَمَى والصَّمَم منهم، حتّى كأن لم يكن منهم في الوجود مَن يتّصف بضدّهما، ولذا أتى في البيتَين بعده بقوله : "مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ" و "وبعدَمَا عَايَنُوا"؛ زيادة في تقبيح كفرهم، وأنّه عن بصيرة.

وتقديم المفعول وهو "الأقْوام" على "كاهِنُهمْ" وهو الفاعل واجب؛ لاتّصال الفاعل بضمير يعود على المفعول، ولأنّهم المقصودون بالإخبار عنهم، وأتى فيهم بجمع القلّة تنبيهاً على حقارتهم وجهلهم، وعدم الالتفات إليهم وإن كثُروا :

---

(1) سورة الشعراء : من الآية 80.

(2) لم أقف عليه مسندًا بهذا اللفظ، والمشهور هو : «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». رواه مسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب مرفوعا في صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا. بَاب الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ.

إنَّ الْكِـرَامَ كَثِيـرٌ فِـي الْـبِلاَدِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلّ وَإِنْ كَثُرُوا[1]

وإضافة "الكاهن" إليهم للتّحقير والتّبَرّي منه، وكذا إضافة "دِين"، ويؤكّده وَصْفه بـ "المُعوجّ"؛ لأنّها صفة ذمّ. ونفى استقامته أو ثبوته بـ "لم " تنبيهاً على أنّ ذلك ثابت له على قِدم الزّمان. و"ما" الموصولة في قوله : "مَا عَايَنُوا"؛ لاستعظام ما رأوا من أمر الكواكب؛ أيْ الّذي عاينوه من ذلك شيء عظيم، وإنْ كانت نكرة موصوفة، فالتّنكير للتّعظيم؛ أيْ بعد شيء عظيم، وكلّ ذلك زيادة تقبيح عليهم.

فإنْ قلتَ : أمر الكواكب؛ لا تقبيح عليهم فيه، فإنّهم لم يعلموا سبب ذلك؟

قلتُ : قد أخبرهم كهّانهم به. وعلى هذا فتنكير "شُهب" للتّكثير والتّعظيم والنّوعية، و"ما" في قوله : "مَا فِي الأَرْضِ" لضدّ ما ثبت لـ "ما" في "ما عَايَنُوا"، أو تكون للتّعظيم على حسب التّهكُّم بالكفّار؛ لاعتقادهم تعظيمها، وعلى هذه التّأويلات تنكير "صَنم". و«أل» في "الأفق" و"الأرض" الأظهر أنّها للحقيقة.

وقوله : "مِن شُهب" و"مِن صنم" للإطناب؛ لأنّ فيه أيضاً أيضاًحاً بعد إبهام. وفائدة التّعبير بـ "غَدَا" دون غيره من الأفعال المرادفة له قُربه من لفظ الغُدْوَة، الّذي هو أوّل النّهار، ففيه تنبيه

(1) صاحب هذا البيت هو أبو تمام. انظر الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 441/4.

على حرصهم على الفرار والمبادرة؛ لشدّة أمر ما يلقون من رجم الشُّهب، ومن هذا المعنى قوله[1] :

إذا أنكرتْنِـي بَلـدةٌ أو نَكِرتُهـا خرجتُ مع البازِي عليّ سَوادُ

أيْ من اللّيل، كنّى بذلك عن تبكيره بالخروج ؛ لأنّ البازي - على ما ذُكر - أسرع الطّيور بكورًا. فظهر أنْ ليس الحامل على "غَدَا" إقامة الوزن كما ظُنّ. وإضافته "طريق" للتّعريف والتّشريف. وقدّم "عن طريق" على "منهزم"؛ لإفادة المَغْدُو عنه أوّلاً ولشرفه. وتنكير "منهزم" للتّكثير والتّرتيب، ولتعظيم أمره في التمرّد، وللنّوعية؛ لوصفه بـ "من الشّياطين". وفيه إبهام، وفي قوله : "من الشّياطين" تفسير، فهذا من الإطناب. وفي "منهزم" الأخير اختصار؛ من الحذف لدلالة ما تقدّم؛ أيْ منهم، فاشتمل البيت على إطناب وإيجاز، ليكون فيه نوع تعادل.

وفي قوله : "كأَنَهُمْ هَرَباً" إبهام وتفسير، وكذا "عسكر" وما بعده. وإضافة "أبطال" للتّعريف. وتنكير "عسكر" للتكثير والنّوعية. ولم يضف "عسكر" إلى أحد من العظماء كما في "أبطال"؛ إمّا لتعظيم شأن العسكر، وتعظيم ما ظهر على يد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من هَزمهم، بخلاف أبطال أَبْرهة، فإنّ الله أهلكهم من غير واسطة البشر، فلا عجب

(1) هو بشار بن برد، والبيت من أبيات قالها في خالد بن برمك وكان قد وفد عليه وهو بفارس. انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 229/3.

في ذلك؛ لأنّه القادر على ما يشاء، أو لأنّ العسكر كانوا قبائل متفرّقين، لكلّ قبيلة رأس؛ لا في بدر ولا في حُنين.

و«أل» في "الحصى" للعهد على الأظهر، ولولا ذلك لنكّره، وتقدّمت فائدة بناء "رُمي" للمفعول. وتنكير "نَبْذًا" و"تسبيح" للنّوعية. وإضافة "نَبْذًا" الثّاني للبيان والتّشريف. وتنكير "ملتقم" لتعظيم أمره، وإذ لا فائدة في تعريفه. وإنّما قال : "ملتقم" ولم يقل "حوت" للقافية؛ ولأنّ العجب في إخراجه من بطن ملتقمه، الحريص على استقراره في بطنه، ليتغذّي به، وإطلاق الوصف حقيقة يقتضي اتّصافه بـ "ملتقم" حين النّبذ، وإنّما أُخرِج منه كرها، ولو قيل حوت؛ لاحتمل أنْ يكون ميتاً، فلا غرابة في خروجه من بطنه سالماً، وإنْ كان فيه غرابة من غير هذا الوجه، ويؤكّده التّعبير بـ "أحشاء"؛ فإنّها محل أَضيق من البطن، ولمّا لم يكن ذلك المقصد بـ "الحصى" قال فيه "ببطنهما"، وأيضاً فإنّها أحشاء للكفّ. وفائدة التّعبير بـ "المسبّح" دون يونس : الإشعار بسبب الإخراج تفضّلاً من الله تعالى؛ لأنّ ترتيب الحُكم على الوصف مشعرٌ بالعلّية.

وجعل بعضهم قوله : "نَبْذًا به" من الحشو للوزن، إذ يكفيه رَمْي بعد تسبيح.

قلتُ : ويمكن أنْ ينبّه به على أنّ تلك المعجزة كانت على يده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو اقتصر على رَمْي؛ لتوهّم أنّه بغير اختيار.

قوله : "عمُّوا وصمُّوا" مجاز؛ إمّا من باب التّشبيه، فيكون استعار العَمَى والصَّمَم لمَن لم ينتفع بحاسّتهما، فالجامع عدم الانتفاع، أو يكون مرسلاً؛ من باب تسمية المسبّب باسم سببه، فإنّ العَمَى سبب في عدم الانتفاع بما يدرك بحاسّته، وكذا الصّمم.

قال بعضهم : «وفيهما مجاز إفرادي» - وهو ما قرّرنا من الوجه الثّاني – «وتركيبيّ».

وهو إسنادهما إلى من ليس كذلك.

قال : «وقرّر مثله البيانيون في نحو : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[1]؛ فجعلوا إطلاق الذّبح على الأمر به إفراديًّا، وإسناده إليه لكونه الآمر به تركيبيًّا.، واعتُرض عليهم بأنّه إنْ كان "يذبّح" بمعنى يأمر، فالإسناد حقيقي، فلا مجاز تركيبيّ، وإنّما يكون الإسناد مجازيًّا إذا بقي "يذبّح" على حقيقته، وتأمّل قولهم : فيه مجازان؛ إفراديّ وتركيبيّ، بأنّ ذلك على البدل».

قلتُ : ولا أعلم مَن نصّ على هذا منهم، غير أنّهم اختلفوا في المجاز الإسناديّ، فمنهم مَن نفاه؛ كالإمام أبي عمرو بن الحاجب، وتأمّل كلام عبد القاهر[2]، فهؤلاء هو عندهم من المجاز الإفراديّ، ثمّ

---

(1) سورة القصص : من الآية 4.

(2) هو عبدالقاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر (.. - 471هـ= .. - 1078م). واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغة. من أهل جرجان (بين طبرسات وخراسان) انظر الأعلام. الزركلي : 48/4.

منهم من جعل المجاز في المسند، وهو قول ابن الحاجب، ومنهم من جعله في المسند إليه، ويجعله من الاستعارة بالكناية لِما يصحّ الإسناد إليه حقيقة، والمُسنَد هو قرينة الاستعارة، وهو قول السّكاكيّ. والّذين أثبتوه؛ منهم مَن لم يجعل فيه مجازًا بحسب الوضع، بل بحسب العقل، حيث أسند الفعل إلى ما يقتضي العقل عدم إسناده إليه، وهذا قول الشّيخ عبد القاهر والإمام الرّازي[1] وجميع علماء البيان. ومنهم مَن قال : «لا مجاز في شيء من المفردات، بل شبه التلبّس الغير الفاعلي بالتلبّس الفاعلي، فاستعمل فيه اللّفظ الموضوع لإفادة التلبّس الفاعلي، فيكون استعارة تمثيلية»[2].

هذا تحقيق القول في هذه المسألة، وقلَّ من حرّره هذا التّحرير، فلعلّ هذا القائل رأى بعض هذه الأقوال في موضع وبعضها في آخر، فاعتقد أنّ ذلك متّفق عليه عند البيانيين، فلذلك استشكل، واحتاج إلى هذا التّأويل.

وقوله : "إعْلاَنُ البَشَائِرِ"؛ يحتمل أنْ يكون من الاستعارة بالكناية؛ بأنْ تُشبّه "البشائر" بمتكلّم لم يُذكر، وأُضِيف إليها من صفاته الإعلان المنفيّ عنه السّماع، وكذا "بَارِقة الإنذار"، بأنّ يُشبّه الإنذار بشجاع ضارب لم يُذكر، وذكر من ملابساته البَارِقة؛ الّتي هي من صفات السّيف، المنفيّ عنها أنّها لم تُشَم؛ أيْ لم تُغمَد، أو يُشبّه الإنذار بصاعقة، وذُكر من لوازمها البَارِقة؛ أيْ البرق، المنفيّ عنه أنّه لم يُشَم؛ أيْ لم يُنظر

(1) أيْ فخر الدين الرازي، وسبقت ترجمته.

(2) انظر ذلك كله في الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. المؤيد بالله : 143/3.

إليه، أو يُشبَّه الإنذار بالأمر العظيم الّذي يحدث، وانقضاض الشُّهب مِن لوازمه، وكلّ ذلك تقدّمت الإشارة إليه في التّفسير. وإنْ جعلتَ "إعْلاَنُ البَشَائِرِ" و"بَارِقَةُ الإِنْذَارِ" من إضافة الصّفة إلى الموصوف، و"الإعْلان" بمعنى "المُعْلِن"، فليس من هذا، والأصل البشائر المُعلَنَات، والإنذارَات البَارِقة.

ووَصْف "الدّين" بالاستقامة أو الاعوجاج الأظهر أنّه من مجاز التّشبيه؛ بأنْ تُشبَّه الأمور الحقّة من المعنويات بالأمور المستقيمة الّتي لا اعوجاج فيها من الأجسام المحسوسة، والجامع السّداد وعدم الميل، وضدّها من الأمور الباطلة بضدّها.

وقوله : "كأنّهم هرباً.." البيت؛ هو من عكس التّشبيه؛ لأنّ إسراع الشّياطين - لا سِيَّما حال فرارهم - أقوى من فرار من شبّههم بهم، ويحتمل أنْ يكون التّشبيه باعتبار كثرة الهاربين، فلا يكون معكوساً، وهذا إنْ كان "هربًا" مصدرًا في موضع الحال من اسم "كأنّ"، أو جمع هارب، وهو الأظهر، وأمّا إن جُعل تمييزًا - لِما دلّت عليه الأداة من التّشبيه المجمل - فلا بدّ من ادّعاء العكس في التّشبيه؛ لتنصيصه بالتّمييز على وجه الشّبه؛ أيْ كأنّهم في الهرب..

وقوله : "نَبْذ المُسبّح"؛ هو على التّشبيه، وحُذفت الأداة؛ أيْ مثل نَبْذ، ووجه التّشبيه مركّب من أمور؛ كون الحصى كان مقبوضاً عليه بالكفّ كأنّها سجن، وكونه نُبِذ بعد ذلك بفضاء واسع؛ بحيث أصاب عيون العدد الكثير، وكون ذلك النّبْذ بعد تسبيح الحصى، وهو معجز، أو تسبيح النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على ما ذُكر في التّفسير، وكون

ذلك النّبْذ أيضاً كان عنه نَصْر دِين الله، وإيمان الجمع الكثير، لا سيَّما إنْ كان في هوازن، فإنّهم تابوا ورجعوا إلى الإسلام، وكذا يونس عليه السّلام؛ أُخرج مِن أحشاء مُلتقِم الّتي انضمّت عليه، فهو فيها كالمسجون، ثمّ نُبِذ بالعراء، وهو الفضاء الواسع، بعد تسبيحه، ثمّ كان إيمان الجمع العظيم؛ الّذين بُعث إليهم، فكان نَبْذه سبباً في نَصْر دِين الله، قال تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ ﴾[1]. ومثال هذا التّشبيه المركّب - وهو في الهيئات - قول بشّار[2] :

كأنَّ مُثارَ النَّقعِ فوقَ رؤوسِنَا وأسْيافَنَا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ

وتقدّم في المعاني فائدة الكناية بـ "المُسبّح" وبـ "مُلتقِم".

(1) سورة الصافات : من الآية 145 إلى الآية 148.
(2) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 62/7.

في إضافة "الإعلان" إلى "البشائر"، و"البارقة" إلى "الإنذار"، ونفي السّمع عن "إعلان البشائر"، و"الشّيم" عن "بارقة الإنذار" نوع من التّقسيم، وهو : «قَرْنُ الشّيْءِ بِمَا يُلاَئِمُهُ». ثمّ هذه الألفاظ ولفظَا "عمّوا" و"صمّوا" من مراعاة النّظير. ورجوع نفي "الشّيم" إلى "العَمَى"، ونفي "السّماع" إلى "الصّمم" من اللّفّ والنّشر المعكوس. ويقرب البيت من المذهب الكلامي.

قال بعضهم : «وقوله : "مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ.." البيت؛ من الاستطراد؛ لأنّ قصد البيت الإخبار عن الكاهن بما أخبرهم». لكن توصّل به إلى زيادة التّقبيح عليهم.

قال : «وكذا قوله : "وبعدَمَا عَايَنُوا.." البيت».

قلتُ : ما جعله مستطردًا هو المقصود بالذّات، نعم الاستطراد في قوله : "المعوجّ" إن لم يكن من كلام الكاهن.

ويبعد أنْ يُقال : إنّ في ثلاثة الأبيات بعد الأوّل تلميحاً لقصّة الكُهّان والنّجوم الرّاجمة والشّياطين المنهزمين بها؛ لأنّ هذا إخبارٌ صريحٌ، نعم التّلميح في البيتَين الأخيرَين إلى قصّة أبرهة، وكفّار بَدْر أو حُنَين، وقصّة الحَصى، وقصّة يونس.

وجمع "الخبر" و"الكاهن" بل و"الدِّين" من مراعاة النّظير. وفي "المعوجّ" و"لم يَقُم" طباق، وكذا في "الأفق" و"الأرض".

وقوله : "أفق" و"وِفق" من التّجنيس النّاقص المضارع، ويُسمِّيه بعضهم اللاّحق[1]، وقد مرّ[2].

وقوله : "مِنْ بَعْدِ.." البيت؛ راجع لـ "إعلان البشائر" الّتي لم تُسمع. وقوله : "وَبَعْدَ.." البيت؛ راجع لـ "بارقة الإنذار" الّتي لم تُشم، وذلك من اللّفّ والنّشر المعكوس.

وقوله : "في الأفق مِن شُهُب" موازن لقوله : "في الأرضِ مِن صَنَمِ".

وقوله : "مُنهَزِم.. إِثْرَ مُنْهَزِم"؛ من التّكرير، وجعله بعضهم من التّجنيس.

ولفظ "غَدَا" و"طريق" و"مُنهزمٌ" و"يقفو إثرَ" من مراعاة النّظير، وكذا لفظ "الأبطال" و"العسكر" و"الحصى" و"الرّمي" و"الرّاحتَين".

وفي قوله : "أو عَسْكَر بِالحَصَى" وقوله : "نَبْذاً بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحِ بِبَطْنِهِما" الاستتباع - وستأتي حقيقته – والإدماج، وهو قريب منه.

(1) انظر البلاغة العربية. عبد الرحمن حبنكة الميداني : 495/2.

(2) وذلك في شرح أول بيت من القصيد.

[حقيقة الإدماج]

وحقيقته : «أَنْ يُضَمَّنَ الكَلاَمُ سِيقَ لِمَعنًى مَعنًى آخَرَ»[1].

كقول المتنبّي[2] يصف ليلاً بالطّول، ثمّ أدمج فيه الشّكاية من الدّهر :

أَقَلِّــب فيــهِ أجْفــاني كَــأنّي أعُدُّ بِها على الدَّهْرِ الذُّنوبا

ومن أحسنه قول ابن نباتة[3] :

وَلاَ بُدَّ لِي من جَهْلَةٍ فِي وِصَالِهِ فَمَنْ لِي بِخِلٍّ أُودِعُ الْحِلْمَ عِنْدَهُ

فإنّه ضمّن الغزل الفخر؛ بكونه حليماً، وضمّن الفخر – بذلك – تغيّر الإخوان؛ إذ ليس فيهم مَن يصلح لإيداع الحِلْم، وفيه أنّه لم يعزم على ترك الحِلْم جملة، إلاّ إذا وجد مَن يردّه إليه إنْ أودعه إيّاه. وهو في كلام النّاظم – إنْ قصده – : تشبيه الشّياطين – عند هربهم من الشُّهب – بأبطال أبرهة أو الكفّار المنهزمين بقتال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمّ ضمّن ذلك معجزةً من معجزاته – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في رَمْيه بالحصى، ثمّ استتبع هذه المعجزة بأُخْرى؛ وهي تسبيح الحصى بكفّه، ومن هنا كان في قوله : "نَبْذًا" استتباع.

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 348.

(2) انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ابن رشيق القيرواني : 53/2.

(3) هو محمد بن محمد، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباتة (686 – 768هـ= 1287 – 1366م). شاعر عصره، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب. أصله من ميافارقين، ومولده ووفاته في القاهرة. وهو من ذرية الخطيب (عبد الرحيم بن محمد) ابن نباتة. سكن الشام. انظر الأعلام. الزركلي : 38/7.

وانظر البيت في خزانة الأدب وغاية الأرب. ابن حجة الحموي : 484/2.

[حقيقة الاستتباع]

وهو : «المَدْحُ بِشَيْءٍ عَلَى وَجْهٍ يَسْتَتْبِعُ المَدْحَ بِآخرَ»[1].

كقول المتنبّي[2] :

نَهَبْتَ مِنَ الأعمارِ مَا لَوْ حويتَهُ   لهُنيــتِ الــدُّنيا بأنَّــكَ خالــدُ

ضمّن وصْف الممدوح بالشّجاعة وصفَه بالعدل، إذ لا تهنأ الدّنيا بخلوده إلاّ معه؛ إذ بالعدل صلاحها، وبالجور فسادها.

ولفظ "الأحشاء" و"مُلتقِم" من مراعاة النّظير.

وقوله : "مِن صَنَم" من قلبِ الكلّ؛ إذ يُقرأ من آخر كما يُقرأ من أوّل؛ نحو : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾[3].

وإنْ فُسِّر "وِفْق" بموافقة انتكاس الأصنام لانقضاض الكواكب، كان في البيت التّفريع.

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 348.

(2) انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 181/7.

(3) سورة الأنبياء : من الآية 33.

[حقيقة التّفريع]

الّذي هو : «إثْبَاتُ حُكْمٍ لِأَمْرٍ بَعْدَ إثْبَاتِه لآخرَ»[1]. وقد تقدّم[2]. فإنّه أثبت للأصنام السّقوط بعد ثبوته للكواكب.

وقوله : "نَبْذًا به" .. "نَبْذَ" من التّكرير. وقوله : "تسبيح" و"المسبّح" من تجنيس الاشتقاق. وألفاظ : "البطن" و"الأحشاء" و"المُلتقِم" من مراعاة النّظير.

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 346.

(2) وذلك في شرح قول الناظم : "ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ..".

الإعراب

كلّ من "عَمُّوا" و"صَمُّوا" فعل وفاعل، أو فعل ومفعول إن بُنِيا للمفعول.

والفاء : تقدّم معناها.

إعلان البشائر : مبتدأ ومضاف إليه. وبارقة الإنذار : مثله. ولم تسمع : خبر "إعلان". ولم تُشَم : خبر "بارقة".

وأنّث "تُسمع" - وإنْ كان ضميره يعود على "إعلان" - ليحصل الرّبط؛ لإضافته إلى مؤنّث، وتقدّم في التّفسير كلام بعضهم فيه.

ومن بعد : يحتمل أنْ يتعلّق إمّا بواحد من "عمُّوا وصمُّوا" أو بواحد من "لم تسمع.. ولم تُشم"، ويحتمل أنْ يكون خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ وذلك مِن بَعد. والإشارة إلى كلّ ما تضمّنه البيت قبله.

وما : مخفوضة بإضافة "بعد" إليها موصولة، أو نكرة موصوفة.

وأخبر : صلة أو صفة، وعليهما فحذف العائد قليل؛ إذ تقديره : به، فلم يكمل شرط الحذف على تقدير الموصولية، وقلّته مع الصّفة بالأصالة، ولك أنْ تجعلها نعتاً لمصدر محذوف، والعائد منصوب، فيكون من الكثير، والتّقدير : مِن بعد الخبر الّذي أخبره، وأظهر من هذا كلّه أنْ تكون مصدريَّة؛ إذ لا تحتاج إلى ضمير على الصّحيح.

والأقوام : مفعول. كاهنهم : فاعل ومضاف إليه.

وبأنّ دينهم : إنْ جعلتَ "ما" مصدريَّة يتعلّق بـ "أخبر"، وإنْ جعلتها اسميّة على الوجهين، فهو بَدَل من الضّمير العائد المجرور المقدّر حذفه. وهذا الضمير تجوز مراعاته بعد الحذف، فيُبدل منه، ويُعطف عليه.

والمعوجّ : نعت لـ "دِين".

ولم يقم : خبر "أنّ"، وهي ومعمولاها في موضع خفض بالباء مفعولاً ثانيا لـ "أَخْبَرَ"؛ لأنّه إذا لم يضمّن معنى "أَعْلَمَ" تعدّى إلى مفعولين؛ الثّاني بحرف الجرّ، فإنْ ضُمّن معنى "أَعْلَمَ" تعدّى إلى ثلاثة.

ويجوز أنْ يكون "يَقُمْ" مبنيًّا للفاعل مِن "قَامَ" الثّلاثي، وأصله يَقُوْمْ؛ حذفت الواو لالتقاء السّاكنين؛ لسكون الميم جزماً، وحركته عارضة، أو للمفعول من "أَقَامَ" الرّباعي، وأصله "يُقَامُ"، فحُذفت الألف لذلك. وبَعْد : يجوز خفضه عطفاً على لفظ "بَعْد" الأوّل، ونصبه عطفاً على محلّه، وأنشد سيبويه[1] :

فإن لم تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنانَ والِداً ودُونَ مَعَدٍّ فلْتَزَعْكَ العَوَاذِلُ[2]

بنصب "دُون" وخفضه.

وما : مثل المتقدّمة، إلاّ أنّ عائدها هنا على تقدير الاسمية منصوب؛ أيْ عاينوه، والواو ضمير "الأقوام".

وفي الأفق، ومن شهب : يتعلّقان بـ "عاينوا". و"مِن" للبيان، والمبيّن : العائد على "ما"، أو للتّبعيض، أو زائدة على مذهب الأخفش[3].

---

(1) انظر الكتاب. سيبويه : 68/1.

(2) البيت للبيد بن ربيعة من قصيدة في رثاء النعمان بن المنذر.

(3) مع أنه بصري، إلاّ أنه خالف البصريين في هذه المسألة، وقال بزيادة "من" بدون شرط، وهم يشترطون أن تدخل "من" على نكرة، وأنْ يتقدمها في التركيب نفي أو نهي أو استفهام. انظر قول الأخفش في كتابه معاني القرآن في باب زيادة "من" : 105/1.

ومنقضّة : نعت لـ "شُهب".

ووِفق : اسم مصدر؛ أيْ موافقة، والعامل فِعلٌ من معناه؛ أيْ تُوافق وِفق - أو منقضة.. - لأنّه في معناه، وفيه تكلّف، ويحتمل أنْ يكون من نيابة المصدر عن ظرف المكان، وعامله "منقضّة". وأجاز بعضهم أنْ يكون نعتاً لـ "شُهب"، أو حالاً منه، وتكون الإضافة غير محضة في نية الانفصال؛ أيْ موافقة لها، أو ظرفاً من موضع الحال مجازًا؛ لأنّ الأسماء لا تكون ظروفاً إلاّ مجازًا؛ تقديره : في وِفْق؛ أيْ في مثلها وصفتها في الانقضاض، شبّهها بالظّرف؛ لاشتمال الصّفة على الموصوف، كاشتمال الظّرف على المظروف. حكى أبو الحسن الأخفش عن العرب : هُمْ هَيْئَةُ بَنِي فُلاَنٍ؛ أيْ فِي هَيئَتِهم؛ جعلَ الهيئةَ ظرفًا؛ لاشتمالها على ذي الهيئة، وهذا النّوع قليل. وفي كلام بعضهم ما يقتضي أنّه نعت لـ "منقضّة"، وهو قلق. وما : خفض بـ "وفق"، وهي موصولة، صلتها "في الأرض"

ومن صنم : متعلّق بـ "ثبت" الصّلة. ومن : للبيان، والمبيّن فاعل "ثبت". قيل : أو للتّبعيض. وجزم بعضهم بأنّ "ما" في قوله : "مِن بعد ما" مصدريَّة، لا تصحّ لغيره، والّتي في قوله : "بعد ما عَايَنوا" بمعنى الذّي ليس إلاّ. قال : «لأنّ "مِن" في "مِن شُهب" لبيان الجنس، وليس المبيّن إلاّ "ما"، ولو جُعلت مصدريَّة لَما كانت "مِن" إلاّ زائدة، وهو خلاف قول الجمهور».

قلتُ : ويصحّ جَعلها للتّبعيض مع المصدريَّة، والأَوْجه المذكورة في الأولى متمكّنة هنا.

وقال بعضهم : «إن جُعل "منقضّة" نعتاً لـ "شُهب"، لم يكن فيه دليل على أنّهم رأوا انقضاضها، بل على أنّها موصوفة بالانقضاض، فيحتمل أنّها اتّصفت به قبل معاينتهم، فيكون بمعنى الماضي، أو ستتّصف، فيكون للاستقبال، أو في الحال».

قال : «وإن جُعل حالاً، كان نصًّا في أنّهم عاينوها وهي تنقضّ، إلاّ أنّه حال من النّكرة، وهذا قصد النّاظم».

قلتُ : والنّعت أيضاً ظاهرٌ في الاتّصاف بالانقضاض حال الرّؤية، إن لم يكن نصًّا، لأنّ اسم الفاعل إذا أُطلق، فهو حقيقة في الحال اتّفاقاً.

حتّى : حرف غاية بمعنى "إلى"، متعلّق بـ "منقضّة"، وهو الأظهر، أو بـ "عاينوا"، وفيه نظر.

عن طريق : متعلّق بـ "غَدَا"، و"عن" للمجاورة، وأجاز بعضهم في "حتّى" أنْ تكون بمعنى الفاء؛ عاطفة فعلاً على اسم في معنى الفعل، وهو "منقضّة".

منهزم : فاعل "غَدَا". ومن الشّياطين : صفة له. ويقفو : صفة أخرى أو حال.

وإثر منهزم : ظرف وخُفض به، وعامله "يقفو".

وكأنّهم : في موضع الحال من "الشّياطين" أو من "منهزم". وجُمع ضميره؛ لأنّ المراد به الجنس.

وهرباً : إنْ كان جمع هارب فحال من اسم "كأنّ"، والعامل التّشبيه، وإنْ كان مصدرًا فهو في موضع الحال، أيْ هاربين، أو ذوي هرب، أو هم نفس الهرب على التّأويلات في مثله، وعامله - إنْ قلنا

المصدر هو الحال بنفسه - التّشبيهُ، وإنْ قلنا الحال عامل المصدر المحذوف؛ أيْ يهربون هربا، فبيّن، وتقدّم في البيان احتمال كونه تمييزًا، وقُدّم على خبر "كأنّ"، والأصل تأخيره؛ نحو : كأنّ أَبَا يُوسُف أَبُو حَنِيفَة فِقْهًا.

أبطال : خبر "كأنّ". وأبرهة : مضاف إليه، وصرّفه ضرورة، والأصل عدم صرفه للعُجمة والعَلَمية.

أو عسكر : عطف على "أبطال"، وقيل على "أبرهة".

ورُمي : فعل ماضٍ مبني للمفعول، وهو ضمير "العسكر"، وسُكّن ياءه ضرورة.

وبالحصى، ومن راحتَيه : متعلّقان بـ "رُمي"، وهو ما تعلّق به في موضع الصّفة لـ "عسكر". وباء "بالحصى" للتّعدية، و"من" لابتداء الغاية.

ونَبْذًا : مصدر منصوب بـ "رُمي"؛ نحو : جلست قعودًا، أو بمحذوف؛ أيْ نُبِذَ نَبْذًا، وهو بَدَل من اللّفظ بفعله، لكنّه في غير الخبر.

وبه : يتعلّق بـ "نَبْذًا"؛ لأنّه في معنى رَميًا، وإنْ كان "نَبْذًا" بدلاً من اللّفظ بفعله، فيُختلف في عامل "به"؛ فعلى قول هو المصدر الّذي هو بَدَل، وعلى قول هو المُبدل منه الّذي هو الفعل، ولا يعمل فيه "رُمِي"؛ لأنّه عمل في "بالحَصَى"، ولا يتعلّق حرفًا جرّ بمعنى واحد بعامل واحد، إلاّ أنْ تجعله بدلاً منه، فيجوز، لكن فيه تعسّف.

ومنع بعضهم أنْ يعمل "رُمي" في "نبذًا"، وعيّن لذلك الفعلَ المحذوف؛ قال : «لأنّ المصدر عامل، والمصدر المُؤكّد لا يعمل؛

لكون فعله حاضرًا، وفي مثله يقول الزّمخشري: "إِذَا جَاءَ نَهْرُ اللهِ بَطَلَ نَهْرُ مَعْقِلٍ"».

قلتُ : قَرَّرَ[1] ذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾[2]. فعلّق "مِن الأرض" بـ "دَعَا" لا بـ "دَعْوَة"[3].

وبعد تسبيح : ظرف زمان، وخُفض به عامله "نَبْذًا"، ويجوز أنْ يكون صفة له، وقيل : إنّه على حذف مضاف؛ أيْ بعد زمن تسبيح.

وببطنهما : يتعلّق بـ "تسبيح"، وباءه للظّرفية.

ونَبْذَ المُسبّح : مصدر مُشبَّه به؛ أيْ مثل نَبْذ، فحُذف المضاف، وأُقِيم المضاف إليه مقامه، وعامله "نَبْذًا" الأوّل، وهذا المصدر مضاف للمفعول، لأنّ المسبّح منبوذ.

ومن أحشاء : متعلّق بـ "نبذ المسبّح"، و"من" لابتداء الغاية.

وقوله ببطنهما، الأفصح بُطُونهما؛ لأنّه من باب : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾[4]. وحُذف الموصوف، وأقام صفته – وهو المسبّح – مقامه، وإنْ لم تكن الصّفة خاصّة لقرينة قوله : "مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِم".

---

(1) أيْ الزمخشري.

(2) سورة الروم : من الآية 25.

(3) انظر تفسير الكشاف. الزمخشري : 476/3. حيث قال : فإنْ قلتَ: بم تعلق "مِنَ الْأَرْضِ" أبالفعل أم بالمصدر؟ قلتُ: هيهات، إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

(4) سورة التحريم : من الآية 4.

الإشارات

[الطّاعة أثر لصدق المحبّة]

ما حال مَن جحد النّبوّة، وعاند الحقّ وكفر، فما استمع إلى إعلان البشائر، ولا إلى بارقة الإنذار الواضحة قد نظر، بأَعْجبَ من حال مَن زعم أنّه بهما مصدّق، وبما أخبر الله به على لسان رسوله من النّعيم والجحيم مُوثق، ثمّ مع ذلك لا يعمل على شاكلة المطيعين من أهل الإيمان، بل يدأب ليله ونهاره على المخالفة والعصيان، وهو - مع ذلك كلّه - يدّعي لله ورسوله الحبَّ، ويطمع أنْ ينال في الآخرة عظيم المنزلة والقرب، هذا هو التّناقض الظّاهر، والمجون الباهر :

تَعْصِي الْإِلَـهَ وَأَنْـتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ   هَـذَا لَعَمْـرِي فِي الْقِيَـاسِ بَـدِيعُ

لَـوْ كَـانَ حُبُّـكَ صَـادِقًا لَأَطَعْتَـهُ   إِنَّ الْمُحِـبَّ لِمَنْ يُحِب مُطِيعُ[1]

فحال هؤلاء - والعياذ بالله - شبيهٌ بحال المنافقين من الكفّار الّذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2]. فلا أشدّ عَمىً وأكثر صَمماً ممّن تيقّن ما أعدّ الله للمطيعين من الثّواب، وما جهّز للعصاة من العقاب، ثمّ لا يسعى في تحصيل مقتضى ما يقرع سمعه من إعلان البشائر والتّرغيبات، ولا يفرّ من مقتضى ما رأت عينه من بارقة الإنذار بالمعاطب والهلكات، فالمواعظ كلّ يوم تقرع أسماعنا،

---

(1) هذان البيتين ينسبان لمحمود بن حسن الورّاق، وقيل للشافعي، وللنابغة الذبياني، ولعبد الله بن المبارك، ولذي الرمة، ولإسماعيل بن القاسم. انظر زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 139/1. ديوان ذي الرمة: 3/ 1887.

(2) سورة النساء : من الآية 145.

ثمّ لا نشتاق ولا نعتبر، وبوارق الإنذار من الشّيب وموت الأقران كلّ حين تحلّ بنا، ثمّ لا ننظر إليها، ولا في عاقبتها نتفكّر، فما منّا إلاّ مَن يناله مرض في كثير من الأوقات، وكثير ممّن مات آباؤه وأبناؤه، فهو متوسّط بين الأموات، فأنّى يُخطئه ما أحاط به من فوق ومن تحت، فما عذرك يا مَن أحاطت به الآفات، وقرّبه وضوحُ الشّيب ومرورُ اللّيالي والأيّام من الممات، فبادرْ قبل أنْ تسمع : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

وقوله : "مِنْ بَعْدِ مَا.." البيت؛ إذا كان الكفّار يستوجبون التّقبيح والمذمّة بمخالفتهم قولَ من اعتقدوا صدقَه، وإنْ كان في نفس الأمر كاذباً؛ وهو الكاهن، فكيف لا يستوجب ذلك المؤمن؛ بمخالفته قول من دلّ العقل والنّقل على صدقه؛ وهو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّه قد أخبرنا أنّ طريق المعاصي معوجّ غير قويم، وقد أمره ربّه جلّ وعلا أنْ ينذر أخصّ النّاس به وأقربهم إليه، فقال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2]. فامتثل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنذر غاية الإنذار، فنادى في بطون قريش؛ بطناً، بطناً، قائلاً لجميعها: «**يَا بَنِي فُلاَن، لاَ أُغْنِي عَنْكُم مِنَ اللهِ شَيْئًا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ**». حتّى قال : «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[1].

---

(1) سورة فاطر : من الآية 37.

(2) سورة الشعراء : الآية 214.

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في المناقب. بَاب مَنِ انْتَسَبَ إِلَى آبَائِهِ فِي الإِسْلاَمِ وَالجَاهِلِيَّةِ.

وقال للجميع : «إِنِّي أَنَا الْعُرْيَانُ النَّذِيرُ»[1]. «وَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»[2]. وقال : «أَلاَ لاَ يَجِيئَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ يَحْمِلُهُ، يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ : لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُكَ..» الحديث[3]. وقال في حجّة الوداع : «أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ». يقولها ثلاثاً، ثمّ قال : «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[4]. وقال : «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الجَنَّةِ، إِلاَّ وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ، وَلاَ شَيْئًا يُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلاَّ وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ»[5]. وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[6]. وقال تعالى في مثل هذا : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ.. ﴾ الآية[7].

وروى ابن المبارك بإسناده عن محمّد بن كعب القرظي[1] : أنّه بلغه أنّ أهل النّار استغاثوا بالخزنة؛ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ

---

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى مرفوعا في الرقاق. بَاب الِانْتِهَاءِ عَنْ الْمَعَاصِي.

(2) رواه البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مرفوعا في تفسير القرآن. بَاب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾.

(3) رواه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في الزكاة. بَاب إِثْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ.

(4) رواه البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ مرفوعا في المغازي. بَاب حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

(5) سبق تخريجه.

(6) سورة النساء : الآية 41.

(7) سورة الملك : من الآية 8. ويقصد الآيتين وليس الآية، وهما بتمامهما : ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

(1) هو مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرَظِيُّ أَبُو حَمْزَةَ، وَيُقَالُ : أَبُو عَبْدِ اللهِ. كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَنَزَلَ الكوفة، وولد له بِهَا مُحَمَّدٌ. وتوفي سنة 117هـ. تاريخ الإسلام. الذهبي : 160/3.

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ..﴾ الآية[1]. فسألوا التّخفيف عنهم يوماً واحدًا، فردّ عليهم : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[2]. فقالت الخزنة : ﴿فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[3]. فلمّا يئسوا من الخزنة، نادوا مالكاً، وله مجلس وسطها، وجسور تمرّ عليها ملائكة العذاب، يرى أقصاها كأدناها، فقالوا : ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[4]؛ سألوا الموت، فسكت لا يجيبهم ثمانين سنة، اليوم من السّنة الواحدة منها كألف سنة ممّا تعدّون، ثمّ قال بعد الثّمانين : ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[5]. فأيِسوا منه، فقالوا : نصبر لعلّه ينفعنا، كما نفع أهل الدّنيا الصّبر على طاعة الله، فطال صبرهم، وجزعوا، فنادوا : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[6]؛ أيْ من مَنْجى، فقال إبليس عند ذلك : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾[1]... إلى آخر ما حكا الله - سبحانه وتعالى - عنه، فلمّا سمعوا مقالته، مقتوا أنفسهم، فنُودُوا : ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾[2] إلى : ﴿خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[3]. فردّ عليهم : ﴿ذَٰلِكُم

---

(1) سورة غافر : من الآية 49. والآية بتمامها : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾.
(2) سورة غافر : من الآية 50.
(3) سورة غافر : من الآية 50.
(4) سورة الزخرف : من الآية 77.
(5) سورة الزخرف : من الآية 77.
(6) سورة إبراهيم : من الآية 21.
(1) سورة إبراهيم : من الآية 22.
(2) سورة غافر : من الآية 10.

بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾[2]. فنادوا الثّانية : ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[3]. فردّ عليهم : ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا ﴾[4] إلى قوله : ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[5]. فنادوا الثّالثة : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ.. ﴾ الآية[6]. فردّ عليهم : ﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم ﴾[7] إلى قوله: ﴿ ٱلۡجِبَالُ ﴾[8]. فنادوا الرّابعة : ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِن نَّصِيرٍ ﴾[1]. ثمّ سكت عنهم ما شاء الله، ثمّ ناداهم : ﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[2]. فلمّا سمعوه، قالوا : الآن يرحمنا، فقالوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا ﴾[3] إلى

---

(1) سورة غافر : من الآية 11.

(2) سورة غافر : الآية 12.

(3) سورة السجدة : من الآية 12.

(4) سورة السجدة : من الآية 13.

(5) سورة السجدة : من الآية 14.

(6) سورة إبراهيم : من الآية 44. والآية بتمامها : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾.

(7) سورة إبراهيم : من الآية 44.

(8) سورة إبراهيم : من الآية 46.

(1) سورة فاطر : من الآية 37.

(2) سورة المؤمنون : الآية 105.

(3) سورة المؤمنون : من الآية 106.

قوله : ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[1]. فقال عند ذلك : ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[2]. فانقطع رجاءهم، وأقبل بعضهم ينفخ في وجه بعض، وأُطبقت عليهم. قال : فحدّثني الأزهر بن أبي الأزهر أنّه ذكر له أنّ ذلك قوله : ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾[3].[4]

ورُوى أيضاً : أنّ فتى من الأنصار حبسه بكاءه من خشية الله في بيته، فذُكر ذلك لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتاه، فلمّا دخل عليه اعتنقه، فخرّ ميتاً. فقال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**جَهِّزُوا صَاحِبَكُمْ، فَإِنَّ الفَرَقَ مِنَ النَّارِ فَلَذَ كَبِدَهُ**»[5]. ورُوى أيضاً عن هرم بن حيان[6] قال : «مَا رَأَيْتُ كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلاَ كالجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا»[1]. اللّهمّ يا ذا الرّحمة الواسعة أجرنا من النّار، وأدخلنا الجنّة بمنّك وفضلك.

---

(1) سورة المؤمنون : من الآية 107.

(2) سورة المؤمنون : من الآية 108.

(3) سورة المرسلات : الآيتان 35 و36.

(4) انظر كتاب الزهد. لابن المبارك : 91/1. رقم الأثر 319. ورواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وهو فيه مختصر. وقد عزاه له مطولا عن محمّد بن كعب القرظي – كما ذكره ابن مرزوق – الإمام القرطبي في كتابه التذكرة.

(5) انظر كتاب الزهد. ابن المبارك : 92/1. رقم الأثر 320.

(6) هو هرم بن حيان العبدي الأزدي (..– بعد 26هـ=..– بعد 647م). قائد فاتح، من كبار النساك. من التابعين. كان أمير بني عبد القيس في الفتوح. وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان، بأرض فارس. وكان من سكان البصرة. ومات في إحدى غزواته. انظر الأعلام. الزركلي : 82/8.

(1) انظر كتاب الزهد. ابن المبارك : 9/1. رقم الأثر 28.

[سبب انهزام شياطين الجن والإنس]

وقوله : "وبَعْدَ مَا عَايَنُوا.." البيت؛ يحتمل أنْ يكون إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. وإليك تأمّل ما تضمّنته الآية الكريمة من النّظر في آفاق الأرض والسّماء، ولعلّ الأجل قريب، فلا يبعد أنْ يشير بالشُّهب إلى الأدلّة الدّالة على تحقيق ما بشّر به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأنذر، أو إلى أنّه كما أنّ الشُّهب - على ما هي عليه من السّرعة؛ الّتي هيّ أشدّ من سرعة الشّياطين - حالت بينها وبين ما أرادته من استراق السّمع، فكذلك هي حوادث الدّهر والأحكام الإلهية السّماوية؛ أسرع نفوذًا في الحَيْلولة بين الإنسان وبين ما يأمل إدراكه من الشّهوات الدّنيوية، الّتي هي كالأصنام، فإنّ ملاحظة الإنسان شهوته وعبادته إيّاها، قد تَرْبُو على عبادة الصّنم.

وقوله : "حتّى غَدَا.." البيت؛ أيْ لم تزل شُهب الحوادث تنقضّ نحو أصنام الشّهوات، حتّى انصرف عن طريق الحقّ - وهو الوحي لمَن تبصّره، وقصَدَ سلوكه، وآثر الباقي؛ وهو طريق الآخرة، على الفاني؛ وهو طريق الدّنيا - منهزمٌ من الشّياطين المترصّدين له على ذلك الطّريق، قصدًا لصّرفه عنه.

فلمّا رأى العاقل صرف الحوادث عمّا تدعو إليه الشّياطين، وسرعة زواله، لم يلتفت إلى إغوائهم، فانهزموا عنه؛ يقفو منهزم منهم

---

(1) سورة الأعراف : الآية 185.

إِثْر منهزم. ثمّ شبّه شياطين الجنّ - في انهزامهم عن طريق الحقّ - بشياطين الإنس؛ وهم أبطال أبرهة وكفّار العرب؛ في انهزامهم عنه، وإنّما عكس التّشبيه؛ لأنّ غائلة شياطين الإنس أعظم؛ لأنّهم يداخلون بالموافقة النّوعية ما لا يداخل شياطين الجنّ، وجميعهم فتنة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ.. ﴾ الآية[1]. وقال: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ.. ﴾ الآية[2]. والفريقان من عذاب الله؛ لأنّهم يسعون في إيقاع العبد فيه، فلِذا كان ذِكر الله من أقوى العُدَد في ردّ كيدهم، ودفع عداوتهم: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[3]، «مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلاً أَنْجَى لَه مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»[4]. وجاء: «**إنّ الشّيطانُ جَاثِمٌ على قَلْب ابنِ آدَمَ كالضّفدع، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ**»[5].

---

(1) سورة الأنعام: من الآية 112. وهي بتمامها: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾.

(2) سورة الفرقان: من الآية 27. والآية بتمامها: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا**﴾.

(3) سورة الرعد: من الآية 28.

(4) سبق تخريجه.

(5) لم أقف على لفظ "كالضفدع" في حديث مسند، وإنما ورد بلفظ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَوَاضِعٌ خَطْمَهُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ». رواه أبو نعيم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا. انظر حلية الأولياء: 268/6. وإسناده ضعيف.

وكان التّسبيح سبباً في هزيمتهم؛ لأنّ عذاب الله يُدرِك العبد بسبب ذنوبه : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1]. لا سِيَّما في قراءة : ﴿فَبِمَا﴾[2]، وهي قراءة ما عدا نافعاً[3] وابن عامر[4].

---

(1) سورة الشورى : من الآية 30.

(2) انظر المبسوط في القراءات العشر. النيسابوري : ص 395.

(3) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (..- 169هـ=..- 785م). أحد القراء السبعة المشهورين. أصله من أصبهان. اشتهر في المدينة وانتهت إليه رياسة القراءة فيها، وأقرأ الناس نيفاً وسبعين سنة، وتوفي بها. انظر الأعلام. الزركلي : 5/8.

(4) هو عبد الله بن عامر بن زيد، أبوعمران اليحصي الشامي (8 - 118هـ= 630 - 736م). أحد القراء السبعة. ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك. ولد في البلقاء، في قرية "رحاب" وانتقل إلى دمشق، بعد فتحها، وتوفي فيها. انظر الأعلام. الزركلي : 95/4.

[فضائل التّسبيح]

والتّسبيح له خاصيّة في محق الذّنوب؛ رُوينا في الصّحيحين أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «**مَنْ قَالَ كلّ يَوْمٍ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[1]. فإذا غُفرت ذنوب العبد رضي الله عنه، وكشف عنه العذاب، ونجّاه من الغمّ، فلِذا اقترن التّسبيح بنَبْذ الحصى في هذا المقام؛ لكشف عذاب الله عن المؤمنين؛ حين ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، وثبّت الله نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما كشف عن يونس عليه السّلام ما هو فيه من ضيق أحشاء الحوت، ونُجّي من غمّه بسبب التّسبيح؛ قال تعالى : ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾[2]. وهذا ليس خاصًّا به؛ لقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

نجّانا الله من عذابه، وأجارنا من أليم عقابه، وأتى لنا كريم ثوابه، وجعلنا من الذّاكرين الله كثيرًا، ومن الّذين اتّخذوا تلاوة كتابه وتفهّم آياته محادثاً وسميرًا بمنّه وكرمه.

❁ ❁ ❁

---

(1) الحديث رواه أبو هريرة مرفوعا. انظر صحيح البخاري في الدعوات. بَاب فَضْلِ التَّسْبِيحِ. صحيح مسلم في الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. بَاب فَضْلِ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ.

(2) سورة الأنبياء : الآيتان 87 و88.

(3) سورة الأنبياء : من الآية 88.

جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الأَشْجَارُ سَاجِدَةً ... تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلاَ قَدَمِ
كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ ... فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الخَطِّ فِي اللَّقَمِ
مِثْلَ الغَمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرَةً ... تَقِيهِ حَرَّ وَطِيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِي[1]

شَرْحُ الْغَرِيبِ

المجيء : الإتيان. يُقال : جَاء يَجِيءُ جَيْئَةً، والاسم الجِيئَةُ - بكسر الجيم - ومَجِيئاً حسناً؛ وهو شاذ، والقياس في مصدر مثله بفتح العين، ومثله في الشّذوذ مَحِيض ومَكِيل ومَصِير. وأَجَأْتُه؛ أيْ جِئْتُ به، وجَايَأَني، جِئْتُه أَجِيئُه؛ أيْ غالبني في المَجِيء فغلبتُه. والحمد لله الّذي جَاءَ بك؛ أيْ إذ جِئْتَ، ولا تقل : الحمد لله الّذي جِئْتَ. وأَجَأْتُه إلى كذا: أَلْجَأْتُه، أصله من جِئْتُ؛ قاله الفَرَّاء. وفى المثل : "شَرٌّ مَا يَجِيئُكَ إِلَى مُخَّةِ عُرْقُوب"؛ أيْ العرقوب لا مخّ فيه، فإنّما يَحُوجُ إليه مَن لا يقدرُ على شيء. وأصل جَاءَ جَيَأَ؛ أُبدلت الياء ألفاً؛ لتحرّكها وانفتاح ما قبلها[2].

الأشْجَارُ : كأنّه - والله أعلم - جمع شَجَر، والشَّجَرُ والشَّجَرَةُ : ما له ساقٍ من النّبات. وأرضٌ شَجيرَةٌ وشَجْراءُ : كثيرة الأَشْجارِ. ووادٍ شَجيرٌ، ولا يُقال أَشْجَرُ، وواحد الشَجْراءِ شَجَرَةٌ. ولم يُجمع على مثله

(1) هذا البيت؛ شكّك الإمام ابن مرزوق في ثبوته على حسب ما سيأتي.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 42/1. مادة جيأ.

إلاّ قَصَبة وطَرَفة وحَلفة، وكان الأصمعيّ يكسر لامها مخالفة لأخواتها، وقال سيبويه في هذا الوزن : «إنّه واحدٌ وجَمعٌ». والمَشْجَرَةُ : الموضعُ. وأرضٌ مَشْجَرَةٌ، وهي أَشْجَرُ من هذه؛ أيْ أكثر شَجراً[1].

قيل : «والشَّجَر جمع شَجَرَة. وجَمع الشَّجَرِ أَشْجَار. وسُمِّي شَجَرًا؛ إمّا لارتفاعه، أو لتداخل أغصانه؛ ومنه التَّشَاجُر للاختلاف»[2].

وسَاجِدَةً؛ أيْ خاضعة؛ ومنه سُجودُ الصّلاة. والاسْمُ السِجْدَةُ بالكسر. وسورة السَجْدَةِ بالفتح. وأَسْجَدَ : طَأْطَأَ رَأْسَهُ وانْحَنى. والسَجَّادَةُ : الخُمْرَةُ، وأَثَر السُّجُود في الجبهة. وقوله: وَافَى بِهَا كَدَرَاهِمِ الأَسْجَادِ[3]؛ هي دراهم كانت عليها صوَر يَسْجُدون لها. والمَسْجِدُ بفتح الجيم وكسرها : واحد المَسَاجِد. وقال الفَرَّاء : «المَفْعَل من نحو دَخَل يَدْخُل : مفتوح المصدر والمكان إلاّ ألفاظاً شذّت بالكسر والفتح؛ منها : المَسْجِد». والمَسْجِدان في قول مادح بني أميّة[4] :

لكم مَسْجِدَا اللهِ المَزُورانِ والحَصى   لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرى وأَقْترا

مسجدُ مكةَ والمدينةِ. والقِبض بكسر القاف : العدد الكثير. ومن بين أَثْرى؛ أيْ رجل أثرى؛ أيْ كثير المال. ورجل أَقْترا؛ أيْ مُعدم.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 693/2. مادة شجر.

(2) انظر المعنى في جمهرة اللغة. ابن دريد : 458/1.

(3) صدره : من خَمْرِ ذِي نُطَفٍ أَغَنَّ مُنَطَّقٍ. وهو من قولِ الأَسْوَدِ بنِ يَعْفُرَ. انظر القاموس المحيط. الفيروزأبادي: ص 287.

(4) هو الكميت. انظر البيت في ضرائر الشعر. ابن عصفور الإشبيلي : ص 172.

والمَسْجَدُ بالفتح : الجبهةُ يصيبها نَدَب السُّجُودِ. والآراب السّبعةُ: مَسَاجِدُ[1].

ومَشَى يَمْشي مَشْياً، وتَمْشِيَةً. ومَشَّاهُ وأمْشاهُ بمعنًى[2].

السَّاقُ : ساقُ القدم، وهو لكلّ دابة، والجمعُ سوقٌ وسِيقَانٌ وأسْؤُقٌ[3]. وامرأةٌ سَوْقاءُ: حسنةُ السَاقِ. ورجلٌ أَسْوَقُ : بيّنُ السَوَقِ. والأَسْوَقُ أيضاً : الطويلُ السّاقَيْن. وساقُ الشّجرة: جِذْعها[4].

القَدَم : طرف الرِّجْل، وتقدّم.

السّطر : الصَفُّ من الشّيء. يُقال : بَنى سَطْراً، وغَرَس سَطْراً. والسَطْرُ : الخَطُّ. والسَطَرُ بالتّحريك مثله. والجمع أَسْطارٌ. ثمّ يُجمع على أساطيرَ. والكتابة؛ هو في الأصل مصدرٌ، سُمّي به المسطور. وجمع السَطْرِ أَسْطُرٌ وسُطورٌ. وسَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً : كتب. واسْتَطَرَ مثلُه. والمُسَيْطِرُ والمُصَيْطِرُ : المسلَّط على الشّيء ليشرفَ عليه ويتعهَّدَ أحواله ويكتب عمله. وأصله من السَطْرِ، لأنّ الكتاب مُسَطَّرٌ، وفاعله مُسَطِّرٌ ومُسَيْطِرٌ. يُقال : سَيْطَرْتَ علينا؛ ومنه : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[5].[6]

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 483/2. مادة سجد.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2493/6. مادة مشا.

(3) هُمِزَتِ الواوُ لتَحْمِلَ الضَّمَّةَ.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1498/4. مادة سوق.

(5) سورة الغاشية : الآية 22.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 684/2. مادة سطر.

وكَتَب كَتْباً وكِتاباً وكِتابَةً. والكِتَاب معروف، وجمعه كُتُب وكُتْبٌ، وهو من الجمع، والكُتَّابُ : الكَتَبَةُ. والكُتَّاب أيضاً والمَكْتَب واحد، والجمع الكَتَاتِيب. وأكْتِبْني هذه القصيدة: أملِها عليّ. واكْتَتَبْتُ الكِتابَ : كَتَبْتُه؛ ومنه : ﴿ ٱكۡتَتَبَهَا ﴾(1). واكْتَتَب أيضاً : كَتَب نفسه في الدّيوان. والمُكْتِبُ : معلّم الكِتَابة. واسْتَكْتَبَه الشّيءَ : سأله أنْ يَكْتُبَه له. والمُكَاتَبَةُ والتَّكَاتُب بمعنًى(2).

فَرْعُ الشّيء : أعلاه. وجمعه فُرُوع. وفرْعُ القوم : شريفهم. وانزل فَرْعَةً من فِرَاعِ الجبل، وهي أماكن مرتفعة. وفَرَعْتُ رأسَه بالعصاً : عَلَوْتُهُ، وبالقَاف أيضاً. وفَرَعْتُ قومي : علوتهم بشرف أو جمال. وجبلٌ فارِعٌ : أطول ممّا يليه. وفارِعَته : أعلاه، ويُقال : انْزل بفارِعَةِ الوادي واحْذَر أسفله. وتِلاعٌ فَوارِعُ : مُشرفاتُ المَسَايل. وفَرَعْتُ الجبلَ : صعدته. وأفْرَعْتُ فيه : انحدرت. قال بعض العرب: لقيتُه فَارِعًا مُفْرِعًا؛ أيْ أحدُنا مُصعِدٌ والآخر مُنْحَدِرٌ. وفَرَّعْتُ في الجبل تَفْريعاً : انحدرتُ. وفَرَّعْتُ الجبلَ : صَعَّدْتُ؛ من الأضداد. وَتَفَرَّعَتْ أغصانُ الشّجر؛ أيْ كثُرت(3).

وأَبْدَعْتُ الشّيء : اخترعتُه لا عَلى مثالٍ. وبَدِيعٌ بمعنى مُبْدِع – الفاعل – ومنه : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾(4)؛ وقال الجوهري : «أيْ

(1) سورة الفرقان : من الآية 5.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 208/1. مادة كتب.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1256/3. مادة فرع.

(4) سورة البقرة : من الآية 117.

مُبْتَدِعًا. والبَديعُ : أيضاً مبتدَعُ؛ اسم مفعول، وهو المقصود هنا. وأَبْدَعَ الشّاعرُ : جاء بالبَديع. وشيءٌ بِدْعٌ بالكسر : مُبْتَدَعٌ. وفلانٌ بِدْعٌ في هذا الأمر؛ أيْ بَديعٌ؛ وقومٌ أَبْداعٌ؛ ومنه : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1]. والبِدْعَةُ : الحَدَثُ في الدِّين بعد الإكْمال. واسْتَبْدَعَهُ : عَدَّهُ بَديعاً»[2].

الخَطُّ : واحدُ الخُطوطِ. والخَطُّ : خَطُّ الزّاجرِ؛ يَخُطُّ بإصبعه في الرّمل ويَزْجُر. وخَطَّ بالقلم : كتَب. وكساءٌ مُخَطَّطٌ : فيه خُطوطٌ. واخْتَطَّ الغلامُ : نبتَ عِذارُهُ. والمِخَطُّ بالكسر : عودٌ يُخَطُّ به. والمِخْطاطُ : عودٌ تُسَوَّى به الخُطوطُ[3].

اللَّقَم بفتح اللاّم والقاف : مَحَجّة الطّريق ووسطه. وبالتّسكين : مصدر لَقَمْتُ الطّريقَ وغيره. أَلْقُمُهُ بالضمّ؛ إذا سددتَ فمه[4].

الغَمَامَة : واحد الغَمَام، وهو السّحاب، وقد أَغمّتِ السّماء؛ أيْ تَغَيَّرَتْ[5].

وأَنَّى : بمعنى كيف، أو متى، أو أين وهي أقرب معانيها هنا.

وسَار يَسيرُ سَيْراً ومَسيراً وتَسْياراً. فهو سَائِر وسَائِرَة؛ أيْ مَشَى. وبارك الله لك في مَسيرِكَ؛ أيْ سَيْرِكَ. وهو شاذٌّ؛ لأنَّ قياسه مَفْعَلٌ بالفتح.

---

(1) سورة الأحقاف : من الآية 9.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1183/3. مادة بدع.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1123/3. مادة خطط.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2031/5. مادة لقم.

(5) في المطبوع من الصحاح للجوهري : وقد أَغْمَّتِ السماء؛ أيْ تَغَيَّمَتْ. انظر : 1998/5. مادة غمم. ولكن الزبيدي قال : وقد أَغَمَّتِ السَّماءُ؛ أَيْ تَغَيَّرَتْ، كَذَا وُجِدَ بخَطِّ الجَوْهَرِيّ . وقَالَ بَعضُهم : صَوابُه : تَغَيَّمَتْ. انظر تاج العروس : 181/33.

وسارَتِ الدابّة، وسارَها صاحبُها، يتعدّى ولا يتعدّى. وقولهم : سِرْ عنك؛ أيْ تَغافَلْ واحتملْ، وأصله : سِرْ ودَعْ عنك المِراءَ والشكَّ. والسّيرَةُ : الطّريقةُ. وسَايَرَهُ : جارَاه، فتَسَايَرا. وبينهما مَسِيرَةُ يوم. وسَيَّرَهُ من بلده : أجلاه[1].

وَقاهُ الله كلّ سوء، يَقِيه وِقايَةً بالكسر؛ أيْ حَفِظه عنه. والوِقايَةُ أيضاً: الّتي للنّساء - وفتح واوها لغةٌ -. والوِقَاءُ والوَقَاءُ : ما وَقَيْتَ به شيئاً. ومن المادّة في المعنى التَقْوى والتُقى؛ الواو بدلٌ من ياء، والتُقاةُ : التَقِيَّةُ. واتَّقى تَقِيَّةً وتُقاةً. والتَقيُّ : المُتَّقِي. والأصل إوْتَقى؛ فأُبدلت الواو تاءً وأُدغِم، ولكثرة استعمال "الافْتِعَال" منه توهّموا أصالة التّاء، فقالوا: اتّقَى يَتَّقِي؛ كقَضَى يَقْضِي. وما أَتْقاهُ للهِ. وسرجٌ واقٍ؛ أيْ لا يُعقر. وفرَسٌ واقٍ: يُهاب المشي على حافره. وقد وَقَى يَقِي. والشّجاع : مُوَقًّى؛ أيْ مَوْقيٌّ جدًّا. وتَوَقَّى واتَّقى بمعنًى[2].

الحرّ : ضدّ البرد. والحَرارةُ : ضدّ البُرودة. والحَرَّةُ : أرضٌ ذاتُ حجارة سودٍ نخرةٍ كأنّها أحرِقَتْ بالنّار. والحِرَّةُ بالكسر : العطَش. وأشدُّ العطش حِرَّةٌ على قِرَّةٍ؛ إذا عطِش في يوم بارد، وكسروا حِرَّةَ اتّباعًا. والحَرَّانُ : العطشانُ، والأنثى حَرَّى. والحِرارُ : العِطاش[3].

الوَطيسُ : حفرة يُختبز فيها ويُشتوى، وهو التَنُّورُ. وقد يتجوّز به فيُقال : حَمِيَ الوَطيسُ؛ لشدّة الحرّ أو لشدّة الحربُ. ومنه قوله

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 691/2. مادة سير.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2526/6. مادة وقى.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 626/2. مادة حرر.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هوازن : «**الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ**»[1]. وقال الأصمعي : «الوَطْسُ : الضّرب الشّديد بالخُفِّ». وقال أبو الغوث[2]: «بالخُفّ وغيره»[3].

الهَجِير والهاجِرَةُ والهَجْرُ : نصف النّهار عند اشتداد الحَرّ؛ ومنه : هَجَّرَ النّهارُ، وأتيناهم مُهْجِرينَ، كمؤْصِلينَ؛ أيْ في وقت الهاجِرَةِ والأصيلِ. والتّهْجِيرُ والتَهَجُّرُ : السّير بالهَاجِرةِ[4].

وحَمِيْ : أصله حَمِيَ، سُكّنت ياءه، يُقال : حَمِيَ النّهارُ والتَنُّورُ - بالكسر - حَمْياً؛ إذا اشتدّ حَرُّهُما. وحَكى الكسائي : «اشتدّ حَمْيُ الشّمس وحَمْوها بمعنىً»[5].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) كثيرا ما ينقل عنه الحوهري سماعا، ويكنيه بالأعرابي، ولم أقف على ترجمته.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 989/3. مادة وطس.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 851/2. مادة هجر.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 2319/6. مادة حمى.

التَّفْسِيْرُ

[بعض آيات النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

كان النّاظم - رحمه الله - يتكلّم في واضحات أدلّة نبوّته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين ولادته المُنْبِئَة بما يأتي بعدها، ثمّ قبّح على الكفّار كفرَهم بها، مع مشاهدة ما شاهدوا منها، وذكر منها الشُّهب الّتي رمت الشّياطين، ثمّ شبّههم بما خرج مِن سَببه - ممّا هو فيه إلى مدحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما ظهر على يديه من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة - أحسن خروج وألطفه، فذكر أصحاب الفيل، وهو من إرهاصات نبوّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتمهيدُ الأمر له بإعزاز قومه بما ظهر عليهم من الاعتناء؛ حتّى دانت لهم العرب، واعتقدت شرفهم وفضلهم على سائر النّاس بحماية الله عنهم، ودفعه عنهم مكر أبرهة؛ الّذي لم يكن لسائر العرب بقتاله يدان، وكان ذلك سبباً لتآلف قومه؛ حسبما تضمّن ذلك كلّه سورتا : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[1] و : ﴿لِإِيلافِ﴾[2]. ثمّ عقّب هذه الكرامة بمثلها، وهي رَميه بالحصى، وكأنّه أتى بالأولى دليلاً على الثّانية، حتّى كأنّه يقول: قد دفع الله - سبحانه وتعالى - عن قومه كيد جيش الحبشة برمي الطّير إيّاهم بالحجارة إكراماً له قبل وجوده، فكيف لا يدفع عنه جيش الكفّار المقاتلين له برَميه بيده المباركة. ثمّ عقّب هذه بأخرى تؤكّدها؛ أيْ لا تَستبعِد تسخير الجمادات له من الحصى وغيره، فقد جاءت الأشجار لدعوته؛ أيْ بدعوته؛ أيْ ندائه إيّاها؛ أنْ تأتيه لحاجته بها، أو

---

(1) أيْ سورة الفيل.

(2) أيْ سورة قريش.

دعائه إيّاها إلى الإيمان به، والأوّل أظهر، ساجدة؛ أيْ خاضعة مذلّلة حين دعاها، أو أمر مَن يدعوها، ولم تقتصر على السّجود في مكانها، بل حتّى تقلّعت، وقصدت بمشيها إلى مكانه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على ساقها؛ أيْ قائمة معتدلة لم تمِلْ، كما هو شأن الشّجر إذا قُلع، وتلك السّاق لا قَدَم لها يُعينها على المشي، ويوجب اعتدالها كقدم الإنسان مثلاً، بل ذلك كلّه خرق للعادة، ودليل على التّأييد الإلهي، وأنّ ذلك لا يكون إلاّ لمثله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمّ أكّد اعتدالها في مشيها القويم وسلوكها سنَنها المستقيم؛ لم تنحرف يمينًا ولا شِمالاً، حتّى اعتدلت آثار فروعها الحادثة بمَشيها في الأرض، أو بسجودها عليها أحسن اعتدالاً؛ بأنْ شبّه تلك الآثار بكتابة كاتب أوقعها على نسبة معلومة في أسطر منظومة، فقال : كأنّما سُطّرت فروع تلك الأشجار - حين جاءت خاضعة مذلّلة - سطرًا للّذي كتبته؛ أيْ لآثارها في الأرض، الّتي هي شبيهة بالكتابة من بديع؛ أيْ لما كتبته، الّذي هو بديع الخطّ؛ أيْ الخطّ المُبتدَع؛ إمّا لحسنه تتميماً للاستعارة، وإمّا لأنّه خطّ لم يُعهد مثله من مثلها، وكتبته في اللّقم؛ أيْ في وسط الطّريق، لم تنحرف به أصلاً.

[ابن مرزوق يشكك في ثبوت بيت "مِثْلَ الغَمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرَةً.."]

وقوله : "مِثْلَ الغَمَامَة.." البيت؛ تشفيع للآية الّتي قبلها بما يناسبها خصوصا، وبما يناسب الّتي قبلها عموماً، أعني في تسخير الجمادات، أو في وقاية المكروه، فإنّ الغمامة تقي حرّ الشّمس، ورَمي الحصى يقي حرّ الحرب، فما أرقّه من ناظم رحمه الله؛ والمعنى : أنّ الأشجار في سلوكها قصد النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإتيانها إيّاه حيث كان إنْ أمرها بذلك؛ مثل الغمامة في سيرها أين سار النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مضلّلة له، واقية له من حرّ الهجير؛ وهو نصف النّهار؛ الّذي يشبه في حَمْيِهِ وحرارته حرّ الوطيس؛ الّذي هو التنّور، أو التّقدير حرّ تنور ثابت للهجير حالة كونه حَمِيَ، أو تكون اللاّم للوقت؛ أيْ حرّ وطيس حَمِيَ عند الهجير؛ أيْ في وقته. ثمّ لا تخلو ألفاظ البيت من تعقيد، ولستُ على يقين من ثبوت هذا البيت في الرّواية[1].

وقال بعضهم : «"مِثْلَ" في البيت زائدة؛ كالّتي في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[2]. بدليل الإخبار عنها بـ "سائرة"، ولو كانت معتمدة لقال : سائر. لا يُقال: أُنِث لتأنيث المضاف إليه؛ نحو : ..كَما

---

(1) ولعله لأجل هذا سقط هذا البيت من رواية أبى الوليد بن الأحمر الخزرجى (807هـ) فى شرحه للقصيد، واختصر الشرح عبد الرحمان بن محمد بن عطية المديونى الجادري (818هـ). انظر بردة البوصيرى وأثرها فى الأدب العربى القديم. محمد فتح الله مصباح : ص 264.

(2) سورة الشورى : من الآية 11.

شَرِقتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ[1]، وذَهَبَتْ بَعْضُ أَصَابِعِهِ. لأنّا نقول : قال في "الكتاب"[2] : "إنّما جاز هذان المثالان؛ لأنّ المضاف فيهما جزء من المضاف إليه")). انتهى.

قلتُ : إنّما هذا من تأنيث المضاف لتأنيث المضاف إليه، ولخّص النّحاة شرط جواز ذلك بأنْ يصحّ الاستغناء بالمضاف إليه عن المضاف، بأنْ يكون المضاف جزءه أو كجزئه، وهو هنا كجزئه، وليس في نصّ "الكتاب" حصر؛ أنّه لا يجوز إلاّ فيما كان بعضاً، بل إنّما ذكر أحد المحلّين الجائز ذلك فيهما، ولفظة "مثل" هنا كالبعض ممّا أُضِيفت إليه.

---

(1) صدر البيت : وتَشرقُ بالقولِ الذي قَدْ أَذَعْتَهُ. وهو من نظم الأعشى. انظر لسان العرب. ابن منظور : 446/4.

(2) أيْ سيبويه. وانظر قوله في الكتاب : ص11.

تَنْبِيْهٌ

إنّما فسّرنا السّجود بالخضوع لا بالانحناء؛ ليجوز لنا استقامة الأشجار كما قرّرناه، وقد يُقال : الاستقامة إنّما تُطلب في السّاق خاصّة، ولا يُقال : كَتْب الفروع على مثل الأسطر لا يكون مع الانحناء، لأنّه إنْ كان على نسبة واحدة يتأتّى التّشبيه أيضاً. نعم، يكون المراد بالسّجود الرّكوع، فإنّه الّذي يتأتّى مع المشي، وأمّا الّذي بمعنى وضع الجبهة على الأرض فلا يتأتّى معه المشي إلاّ بتكلّف، فالأظهر أنّ المراد الخضوع كما قلنا.

وقال بعضهم : «المثلية في قوله : "مثل" في مطلق الإعجاز، وإنْ اختلف وجه الإعجاز، فسَيْر الأشجار معجز وحده، وسَيْر الغمام إنّما كان معجزًا بسَيْره حيث سَار».

قلتُ : وعلى الوجه الّذي قرّرته أوّلاً في شرح كلامه هما سواء.

[أخبار تسخير الجمادات له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

أمّا أخبار إجابة دعائه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الأشجار، فما رُوينا بأسانيدنا عن القاضي أبي الفضل عياض - رحمه الله - في كتاب "**الشّفا**" بسنده عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : كنّا مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في سفر، فدنا منه أعرابيّ، فقال : «**يَا أَعْرَابِيّ أَيْنَ تُرِيدُ؟**». فقال : إلى أهلي. قال : «**هَلْ لَكَ إِلَى خَيْرٍ؟**». قال : وما هو؟ قال: «**تَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**». قال : مَن يشهد لك على ما تقول؟ قال : «**هَذِهِ الشَّجَرَةُ السَّمُرَةُ، وَهِيَ بِشَاطِئِ الوَادِي، فَادْعُهَا، فَإِنَّهَا تُجِيبُكَ**». قال : فدعوتُها، فأقبلت تخدُّ الأرض[1]، حتّى قامت بين يدَيه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدتْ أنّه كما قال. ثمّ رجعت إلى مكانها[2].

وعن بريدة[3] : سأل أعرابيّ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آيةً، فقال له : «**قُلْ لِتِلْكَ الشَّجَرَةِ : رَسُولُ اللهِ يَدْعُوكِ**». قال : فمالت الشّجرة عن يمينها وشمالها وبين يدَيها وخلفها، فتقطّعت عروقها، ثمّ جاءت تخدّ الأرض تجرّ عروقها مغبرّة، حتّى وقفت بين يدي رسول الله صَلَّى

---

(1) تخد الأرض : تشقها كناية عن سرعة المجي.

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 298/1. والحديث صحيح.

(3) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي (.. - 63هـ= .. - 683م). من أكابر الصحابة. أسلم قبل بدر، ولم يشهدها. وشهد خيبر وفتح مكة، واستعمله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صدقات قومه. وسكن المدينة. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مرو فمات بها. انظر الأعلام. الزركلي : 50/2.

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت : السّلام عليك يا رسول الله. قال الأعرابيّ : مُرها فلترجع إلى مَنبتها. فرجعت، فدلّت عروقها في ذلك، فاستوت. فقال الأعرابيّ : ائذَنْ لي أسجد لك. قال : «**لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ، لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**». قال : فاذَنْ لي أقبّل يَدَيك ورجليك. فأذِن له(1).

وفي الصّحيح من حديث جابر الطّويل : ذهب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقضي حاجته، فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى إحداهما، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فقال : «**انْقَادي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ**». فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ. وذكر أنّه فعلَ بالأخرى مثلَ ذلكَ، حتّى إذا كان بالمنصف بينهما، قال : «**الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ**». فَالْتَأَمَتَا(2). وفي رواية : فقال : «**يَا جَابِر، قُلْ لِهَذِهِ الشَّجَرَة : يَقُولُ لَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْحَقِي بِصَاحِبَتِكِ حتّى أَجْلِسَ خَلْفَكُمَا**». فلحقت. فجلستُ أحدّثُ نفسي، فإذا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مقبل، والشّجرتان قد افترقتا. فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - برأسه هكذا يميناً وشمالاً(3).

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 299/1. والحديث رواه الحاكم في المستدرك : 190/4. رقم الحديث : 7326. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وَتَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ، فَقَالَ : بل واه.

(2) رواه مسلم في الزهد والرقاق. بَاب حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ وَقِصَّةِ أَبِي الْيَسَرِ.

(3) هذه الرواية وردت عند البيهقي وغيره. انظر السنن الكبرى. للبيهقي : 93/1. رقم الحديث : 453.

و روى أسامة بن زيد[1] أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سأله مكاناً للحاجة، فقال : ما بالوادي موضع بالنّاس. فقال : «**هَلْ مِنْ نَخْلٍ أَوْ حِجَارَةٍ؟**». قال : أرى جميع ذلك. قال : «**قُلْ لَهُنَّ : رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَأْتِينَ لِمَخْرَجِهِ**». فاجتمعت النّخلات، وتراكمت الحجارة خلفهن. فلمّا قضى حاجته، قال لي : «**قُلْ لَهُنَّ يَفْتَرِقْنَ**». فعاد كلٌّ إلى مكانه[2]. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه : آذنت النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنّ لَيْلَة اسْتَمَعُوا له شَجَرَة[3]. وعنه : إنّ الجنّ قالوا : مَن يشهد لك؟ قال : «**هَذِهِ الشَّجَرَةُ، تَعَالِي يَا شَجَرَة**». فجاءت تجرّ عروقها؛ لها قعاقع[4].

وعن أنس : أنّ جبريل قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعَلَيه، ورآه حزينًا : أتحبُّ أن أُريك آية؟ قال : «**نَعَمْ**». فنظر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى شجرة من وراء الوادي، فقال : ادْعُ تلكَ الشّجرة. فجاءت تمشي حتّى قامت بين يديه. قال : مُرها فَلْتَرْجِعْ. فعادت إلى مكانها[5].

---

(1) هو أسامة بن زيد بن حارثة، من كنانة عوف، أبو محمد (7 ق هـ- 54هـ= 615 - 674م). صحابي جليل. ولد بمكة، ونشأ على الاسلام (لأن أباه كان من أول الناس إسلاما) وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبه حبّاً جماً، وأمّره رسول الله، قبل أن يبلغ العشرين من عمره. مات بالمدينة. انظر الأعلام. الزركلي : 291/1.

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 300/1.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 301/1.

(4) انظر الشفا. القاضي عياض : 301/1.

(5) انظر الشفا. القاضي عياض : 302/1.

ومن هذا المعنى : حَنين الجذع الّذي كان يخطب عليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين فارقه، فقام على المنبر الّذي صُنع له. أخرجه أهل الصّحيح[1]. ومن هذا المعنى ما في مسلم عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جندب[2] قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ؛ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ؛ يَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»[3]. وهذا المعنى يكاد يبلغ التّواتر أو بلغه.

وأمّا خبر إظلال الغمامة فتقدّم بعض ذلك ممّا أخرجه التّرمذي وغيره عند قوله : "مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ.." البيت. وذكر ابن إسحق قال : خرج أبو طالب برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في رَكْب تجّار إلى الشّام، فَلَمّا نَزَلَ الرّكْب بُصْرَى مِنْ الشّامِ، وبِهَا رَاهِب يُقَالُ لَهُ بَحِيرَى، وَكَانُوا كَثِيرًا مَا يَمُرّونَ بِهِ، فلَا يَعْرِضُ لَهُمْ، ولا يكلّمهم. فَلَمّا نَزَلُوا بِهِ قَرِيبًا مِنْه، صَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، وَذَلِكَ أَنّه رَآى وَهُوَ فِي صَوْمَعَتِهِ غَمَامَة تُظِلّهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ حين أَقْبَلُوا، ثُمّ نَزَلُوا فِي ظِلّ شَجَرَةٍ قَرِيبًا مِنْهُ. فَنَظَرَ إلَى الْغَمَامَةِ حَيْنَ أَظَلّتْ الشّجَرَةُ، وَتَهَصّرَتْ أَغْصَانُ الشّجَرَةِ على رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ[4].

---

(1) رواه البخاري عن ابن عمر في المناقب. بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ.

(2) هو سمرة بن جندب بن هلال الفزاري(..- 60هـ=..- 679م). صحابي، من الشجعان القادة. نشأ في المدينة. ونزل البصرة، مات بالكوفة. وقيل بالبصرة. انظر الأعلام. الزركلي : 139/3.

(3) انظر صحيح مسلم في الفضائل. بَاب فَضْلِ نَسَب النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ.

(4) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 180/1.

إنّما فَصَل جملة "جاءت.."؛ لأنّها مستأنفة في المعنى؛ إذْ هي تعليل للّتي قبلها كما قلنا. وإنّما قال : "دعوة"، ولم يقل دعاءً؛ تنبيهاً على أنّها بأوّل دَعوة واحدة تُبَادِر إلى الامتثال، ورواية "لِدعوته" باللاّم أظهر من رواية الباء، لأنّ الباء أظهر معانيها التّعليل، فهي تجيء لأجل دعوته سواء دعاها بنفسه أو أمر مَن يدعوها، والباء وإنْ كان من معانيها السّببيّة، فتفيد هذا المعنى، إلاّ أنّ أظهر معانيها الإلصاق، فيوهم قصر الإجابة على دعائه بنفسه، والأوّل أبلغ في الإعجاز. و«أل» في "الأشجار" للجنس؛ لمجيء ذلك في الأشجار مختلفة النّوع. وإنّما عبّر في "السّجود" بالاسم، وفي "المشي" بالفعل؛ لأنّ الخضوع وصف لازم لها، والمشي حادث، وهو أيضاً يتجدّد شيئاً فشيئاً. وقطع جملة "تَمشي.."؛ لأنّها بَدَل مِن "جاءت..". وقوله : "على سَاقٍ بِلاَ قَدَم" من الاحتراس؛ إذ لو لم يذكره لتُوهِم أنْ تكون انخرقت فيها العادة، فخُلقت لها قدمان، فذكر ذلك؛ لأنّه أقوى إعجازًا، فقوله : "على سَاق"؛ أيْ واحدة تقوية لذلك المعنى. وقوله : "بِلاَ قَدَمٍ" تقوية على تقوية. والأظهر أنّ تنكير "ساجدة" و"ساق" و"قدم" للنّوعية، أو للوحدة في الأخيرَين، أو للتّقليل في الأخير. وإضافة "دعوة" للاختصاص أو للتّشريف. وتقديم "إليه" على ما بعده؛ لأنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هو مقصود مشبّهها. والتّعبير بالفعل في "سَطَرت"؛ لإفادة حدوث ذلك منها، وقصدها إيّاه. والموصول في "مَا كَتَبَت" لتّعظيم تلك الآثار المشبّهة بالكتابة؛ يدلّ عليه تمييزه بقوله : "مِن بديع"، ومن هنا كان من الإطناب؛ لأنّه من الأيضاَح بعد الإجمال. وقوله : "في اللّقم" تتميم، وتقدّم وجهه. وقطع جملة "كأنّما.."؛ إمّا لأنّها - وما دخلت عليه -

حال أو صفة، وإمّا لأنّها كالتّفسير لـ "تَمشي..". "مثل" إنْ كان منصوباً، فلا إشكال، وإنِ كان مرفوعاً فوجه قطع جملته كقطع جملة "جاءت..".

و «أل» في "الغمامة"؛ الأظهر أنّها للعهد، إلاّ أنْ يثبت أنّ ذلك في مواطن، فتكون جنسيَّة، وليس ببعيد. وأتى "بَأَنَّى" المُرادفة للكلمات الثّلاث؛ لتقييد معانيها؛ إمّا على مذهب من يعمّم اللّفظ المُشترك عند إطلاقه خالياً من القرائن كالشّافعي[1]، وإمّا حِذَارًا من التّرجيح بلا مرجّح، وهذه اللّفظة تقوّي جنسية «أل» في "الغمامة".

وأتى بـ "سائرة" تنبيهاً على أنها أُعِدّت لذلك، فهي ثابتة على ذلك، مرتقِبة لِسَيره. وقَطَع جملة "تَقِيه.." لاستئنافها؛ لأنّها في الأظهر جواب سؤال مُقدَّر؛ كأنّه قيل : لِم تَسِير بِسَيره؟ ومثل هذا عند الأصوليين من مسالك العلل[2]؛ نحو قوله تعالى : ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[3]. ثمّ قال تعالى جلّ ثناؤه : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[4]. ويحتمل أنْ يكون؛ لكونها بدلاً من جملة "سَارَ..". وتمام الأبحاث في البيت لا يخفى عليك.

---

(1) قال الشوكاني : ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ، وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَبُو عَلِيٍّ الْجُبَّائِيُّ، وَالْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ أَحْمَدَ.. وَبِهِ قال الجمهور، وكثير من أئمة أهل الْبَيْتِ إِلَى جَوَازِ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ أَوْ مَعَانِيهِ. وَذَهَبَ أَبُو هَاشِمٍ، وَأَبُو الحسن الْبَصْرِيُّ، وَالْكَرْخِيُّ، إِلَى امْتِنَاعِهِ. انظر إرشاد الفحول : 59/1.

(2) ويسميه الأصوليون : التَّنْبِيهُ وَالْإِيمَاءُ عَلَى الْعِلَّةِ، وهو أحد أضراب إِثْبَاتُ الْعِلَّةِ بِأَدِلَّةٍ نَقْلِيَّةٍ. انظر المستصفى. الغزالي : ص 308.

(3) سورة المائدة : من الآية 90.

(4) سورة المائدة : من الآية 91.

اَلْبَيَانُ

الإسناد في "جاءت" و"تمشي" حقيقيّ، وإطلاق "السّجود" على "الخضوع" فيه خلاف، قيل حقيقة؛ لأنّه مشترك، وقيل مجاز، فيكون من الاستعارة؛ لأنّ العلاقة تشبيهيّة، والتّشبيه في قوله : "كأنّما" يحتمل أنْ يكون من الهيئات التّركيبيّة، ويحتمل أنْ يكون مفردًا؛ إنْ كان القصد أنّ الآثار على نسبة معلومة.

وقال بعضهم : «إنّه لمّا شبّه الآثار بالكتابة أضاف إلى ذلك استعارتَين بديعتَين؛ تسمية تلك الآثار خطًّا، وتسمية الفروع أقلاماً؛ لأنّ عنده أنّ النّظم الخطّ بالقلم. قال : فتضمّن البيت أربع تشبيهات». انتهى.

وتأمّل هذه التّشبيهات الّتي ذكر، وتأمّل ما المضاف إليه الاستعارتان، وعلى أيْ اصطلاح هذه الاستعارة، ثمّ إنّ الرّواية إنّما هي "في اللَّقَم"، وبـ "القَلَم" تصحيف.

وقوله : "حَرُّ وَطِيس"؛ الأظهر أنّه من مجاز الحذف؛ أيْ مثل حرّ وطيس، ويحتمل غير هذا.

اَلْبَدِيْعُ

قوله : "ساجدة" و"تمشي" من الطّباق. وألفاظ : "المجيء" و"المشي" و"السّاق" و"القدم" من التّناسب، وكذا "المجيء" و"الدّعوة"، وألفاظ "السّطر" و"الكتابة" و"الخطّ" كذلك، ويُضاف إليها "القلم" على ما عند بعضهم. ولفظ "السّاق" و"الفروع" من الطّباق. و"سَطَرت سَطرًا" من تجنيس الاشتقاق ومن التّكرير، ومثله في اللّقبين "سَار سَائرة". و"الغمامة" و"الحرّ" من الطّباق الخفيّ. وألفاظ : "حرّ" و"الوَطِيس" و"الهجير" و"حمي" من التّناسب، وكذا "الغمامة" و"السّير".

الْإِعْرَابُ

ساجدة : حال من "الأشجار".

وتمشي : كذلك. ولم تُقرن بواو لتصديرها بالمضارع المثبَت. ومَن يمنع تعدّد الحال[1] يجعله صفة لـ "ساجدة"، أو حالاً من ضميره.

وعلى ساق، وبلا قدم : يتعلّقان بـ "تمشي"، أو يكون "بلا قدم" صفة لـ "ساق"، وباؤه للمصاحبة. وكأنّما : حال أخرى، أو صفة، أو جملة تفسيرية لا محلّ لها كما تقدّم.

وما : كافة.

وسطرًا : مفعول به لـ "سَطَرت" إنْ كان بمعنى المسطور، وإلاّ فمصدر مؤكّد له، وهو المفعول المطلق.

ولما : يتعلّق بـ "سطرت"؛ إذ الفعل أولى بالعمل، ويجوز أن يكون صفة لـ "سطر" إن كان مفعولا به.

وما : موصول إسمي، صلتها "كَتَبت"، وعائدها محذوف؛ أيْ كتبته.

---

(1) قال ابن مالك : «زعم ابن عصفور أنّ فعلاً واحدًا لا ينصب أكثر من حال واحد لصاحب واحد قياساً على الظرف، وقال: "كما لا يُقال : قمتُ يومِ الخميس يوم الجمعة، لا يُقال : جاء زيد ضاحكاً مسرعاً. واستثنى الحال المنصوبة بأَفْعَل التفضيل؛ نحو زيد راكباً أحسن منه ماشياً. قال : فجاز هذا كما جاز في الظرف؛ زيد اليوم أفضل منه غدا، وزيد خلفك أسرع منه أمامك". ثمّ قال : "وصح ذلك في أَفْعَل التفضيل، لأنّه قام مقام فعلين. ألا ترى أنّ معنى قولك زيد اليوم أفضل منه غدا: زيد يزيد فضله اليوم على فضله غدًا"». وضعّف ابن مالك زعمَ ابن عصفور. انظر شرح التسهيل : 349/2.

وبـ "كتبت" تتعلّق "من" و"في". ويحتمل كون "ما" مصدريّة كما أجاز بعضهم، و"من" - على الأوّل - للبيان، وعلى الثّاني للتّبعيض.

وفروعها : فاعل "كَتَبَت"، ومضاف إليه.

ومثل : إمّا منصوب حال من فاعل "تمشي"، وكأنّما البيت اعتراض في بعض الوجوه، أو مرفوع خبر مبتدأ مُضمر؛ أيْ أمرها مثل، أو الأشجار مثل.

وأنّى : ظرف زمان إنْ فُسّرت بـ "مَتَى"، أو مكان إنْ فُسّرت بـ "أين"، أو حال أو ظرف على الرّأيين إنْ فُسّرت بـ "كيف"، وعلى كلّ حال فهي اسم شرط، والعامل فيها جوابها على المختار، وهو محذوف لدلالة المعنى عليه؛ أيْ سارت.

وسائرة : على هذا خبر مبتدأ مُضمر؛ أيْ وهي سَائِرة تَقِيه، أو منصوب على الحال من ضمير "سَارَت" المُقدَّر، أو من "الغمامة"، والعامل في "مثل" من التّشبيه، وعلى هذا فالشّرط وجوابه المُقدَّر اعتراض بين الحال وصاحبها، و"سار" في موضع جزم بالشّرط، ويحتمل أنْ يكون حذف فاء جواب الشّرط مع مبتدأ، و"سَائرة" خبره؛ أيْ فهي سائرة معه؛ نحو قوله[1] :

بنِى ثُعلٍ لا تَنكَعوا العنزَ شُرْبَها بنِى ثُعَلٍ من ينكَع العنزَ ظالمُ

أيْ فهو ظالم.

(1) هو الأسدي. انظر البيت في الكتاب. سيبويه : 65/3.

وتقيه : فعل مضارع، فاعله ضميرٌ يعود على "الغمامة". والهاء مفعوله، وهي عائدة عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجملة صفة لـ "سائرة" أو حال من الضّمير المستكنّ فيه، أو من "الغمامة". حرّ وطيس : مفعول ثانٍ لـ "تقي"، ومضاف إليه.

وحمي : فعل ماضٍ، وفاعله ضمير "الوطيس"، والجملة صفة له.

وللهجير : يتعلّق بـ "حَمِي"، ولامه للتّعليل، أو للظّرفيّة، وهو صفة لـ "وطيس"، ويحتمل أنْ يكون "حَمِي" في موضع الحال من "الهجير"؛ أيْ وقد حَمي، ويحتمل أنْ يكون "حَمِيْ" اسم فاعل، فيكون نعتاً لـ "الهجير".

الْإِشَارَاتُ

[تحمّل الأمانة]

إذا كانت الأشجار - الّتي هي من جملة الجمادات، ولم تتحمّل من الأمانة شيئاً، كما فعلت الأرض والسّموات - تبادرُ لامتثال أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنْ دعاها بدعوة واحدة، فلا تألو في الامتثال، حتّى تخرّ ساجدةً، فما أشدّ غفلة المكلّف العاقل، مع تحمّله الأمانة؛ الّذي دلّ على أنّه ظلوم جاهل[1]، يتهالك على عدم الامتثال، ولا يلازم السّجود لربّه، ولو في ليلة من اللّيالي، مع أنّه يُدعى إليه في اليوم خمس مرّات، ويسمع قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾[2].

وتأمّل قول الأعرابي : ائذن لي أنْ أسجد لك، لِما رأى من سجود الشّجرة، فرأى أنّه أحرى بذلك، حتّى أعلمه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنّ ذلك لا يكون إلاّ لله، ولو كان يثبت لمَن له على الآخر حقّ الإنعام، وهو واسطة، لكان للرّجل على امرأته؛ لكثرة ما له عليها من الحقوق. ومكان السّجود من الدّين عظيم، فإنّه تعفير أعزّ أعضاء الإنسان وأشرفها، وهو جبهته وأنفه، في أذلّ الأشياء وأحقرها، وهو التّراب، ولشرف منزلته قال

(1) يشير إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. سورة الأحزاب : الآية 72.

(2) سورة المرسلات : الآية 48.

رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للّذي[1] سأله أنْ يكون رفيقه في الجنّة : «أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[2].

وقد سبق ما كان من تورّم قدميه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من كثرة القيام، فينبغي للخائف من عذاب ربّه أنْ يبادر لامتثال ما دعا إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيلازم السّجود، ويقوم على ساق العبودية، وإنْ لم يكن له قدم، كما قامت الشّجرة على ذلك. بل يُقال : إنّ تلك الشّجرة جاءت ساجدة تمشي على فروعها، فكذا الإنسان يجيب دعوة ربّه ماشياً ولو على رأسه ووجهه، ويسعى في زيارة قبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولو على وجهه. مَنّ الله علينا بالوصول إلى ذلك المقام بمنّه وفضله.

ولقد رُئي تميم الدّاري[3] - رضي الله عنه - قائماً ليلة بآية؛ يردّدها حتّى أصبح أو كاد، ويركع ويسجد ويبكي، وهي : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ.. ﴾ الآية[4].[5]

---

(1) هو رَبِيعَة بْنِ كَعْب الأَسْلَمِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(2) رواه الطبراني في الكبير عن مصعب الاسلمي : 365/20. رقم الحديث : 851.

(3) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري، أبو رقية (.. - 40هـ= .. - 660م). صحابي، نسبته إلى الدار بن هانئ، من لخم. أسلم سنة 9هـ، وكان يسكن المدينة. ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان. فنزل بيت المقدس. وكان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين. ومات بها. انظر الأعلام. الزركلي : 87/2.

(4) سورة الجاثية : من الآية 21. والآية بتمامها : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

(5) رواه ابن المبارك عن مسروق. انظر كتابه الزهد : 31/1. رقم الأثر 94.

وقالت امرأة مسروق[1] عنه : «كان لا يُوجد إلاّ وساقاه قد انتفختا مِن طُول الصَّلاَة، وإنْ كُنتُ لأَبْكِي رَحْمةً لَه»[2].

وقال يحيى بن أَبِي كثير[3] : «وَاهًا لِلنَوَّاحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ»[4].

وقال أبو الأحْوَص[5] : «مَا بَالُ هَؤُلاَءِ يَأْمَنُونَ مَا كَانَ أُولَئِكَ يَخَافُونَ؟»[6].

---

(1) هو مسروق بن الاجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة (..- 63هـ=..- 683م). تابعي ثقة، من أهل اليمن. قدم المدينة في أيام أبى بكر. وسكن الكوفة. وشهد حروب علي. انظر الأعلام. الزركلي : 215/7.

(2) رواه ابن المبارك. انظر كتابه الزهد : 32/1. رقم الأثر 95.

(3) هو يحيى بن صالح الطائي بالولاء، اليمامي، أبو نصر ابن أبي كثير (..- 129هـ=..- 747م). عالم أهل اليمامة في عصره. كان من موالي بني طئ. من أهل البصرة. وسكن اليمامة، فاشتهر. وعاب على بني أمية بعض أفاعيلهم، فضرب وحبس. انظر الأعلام. الزركلي : 150/8.

(4) رواه ابن المبارك. انظر كتابه الزهد : 32/1. رقم الأثر 96.

(5) هو أَبُو الأَحْوَصِ عَوْفُ بْنُ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ الْجُشَمِيُّ الْكُوفِيُّ. رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ. قَتَلَهُ الْخَوَارِجُ في ولاية الحجاج. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 2/ 1019.

(6) رواه ابن المبارك. انظر كتابه الزهد : 32/1. رقم الأثر 98.

[الاستقامة]

وقوله : "كأنَّمَا سَطَرَتْ.." البيت؛ إشارة إلى أنّ المطلوب من المكلّف الاستقامة، وأنْ لا يميل عن الحقّ يميناً وشِمالاً، بل يسير معه كَمَن يكتب على السّطر، ولصعوبة هذا الأمر، لم تتحمّل الجمادات الأمانة، ولمّا لم يَسَع الشّجرةُ المخالفةَ - حين دُعيت على سبيل التّكليف، ولم يكن عَرْضًا، كما عُرضت الأمانة على السّموات والأرض - استعملت الاستقامة فيما أُمِرت به، حتّى كأنّما كانت تسير على طريق مسطور، فإذا كان هذا حال الشّجرة فيما كلّفت به من الإتيان قصد النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بمن دخل تحت عهدة الأمانة والاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[1]؛ قال الصدّيق رضي الله عنه : أيْ لم يُشركوا[2]. وقال الفاروق رضي الله عنه : أيْ لم يروغوا رَوَغَان الثّعالب[3]. وفي الصّحيح : أنّ رجلا[4] قال : يا رسول الله دُلّني على عمل يُدخلني الجنّة. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمّ اسْتَقِمْ**»[5].

---

(1) سورة فصلت : من الآية 30.

(2) رواه ابن المبارك. انظر كتابه الزهد : 110/1. رقم الأثر 326.

(3) رواه ابن المبارك. انظر كتابه الزهد : 110/1. رقم الأثر 325.

(4) هو سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ.

(5) رواه مسلم عن سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ مرفوعا في الإيمان. بَاب جَامِعِ أَوْصَافِ الْإِسْلَامِ.

وعَنْ ثَوْبَانَ[1] مولى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْمَلُوا وخَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَةَ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ**»[2].

---

(1) هو ثوبان بن يجدد، أبو عبد الله (.. - 54هـ= .. - 674م). مولى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أصله من أهل السراة (بين مكة واليمن) اشتراه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أعتقه، فلم يزل يخدمه إلى أنْ مات، فخرج ثوبان إلى الشام فنزل الرملة (في فلسطين) ثم انتقل إلى حمص فابتنى فيها دارا، وتوفي بها. انظر الأعلام. الزركلي : 102/2.

(2) روا ابن ماجة في الطهارة وسننها. بَاب الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْوُضُوءِ. ورواه غيره. والحديث صحيح.

[من أمارات الاستقامة]

ومِن أمارة استقامة أهل البداية؛ أنْ لا تشوب معاملتهم فَتْرَة[1]، والمتوسّطين؛ أنْ لا تصحب منازلهم وَقْفَة، والمُنتهين؛ أنْ لا تدخلَ مواصلتَهم حَجْبَةٌ.

وقال الدقّاق : «الاسْتِقَامَةُ مَدَارِجٌ : التَّقْوِيمُ؛ وَهُوَ مِنْ حَيْثُ تَأْدِيب النُّفُوسِ، ثُمَّ الإِقَامَةُ؛ مِنْ حَيْثُ تَهْذِيب القُلُوبِ، ثُمَّ الاسْتِقَامَةُ؛ مِنْ حَيْثُ تَصَرُّفِ[2] الأَسْرَارِ»[3].

وقال أبو علي الْجُوزَجَانِيُّ[4] : «كُنْ صَاحِبَ الاسْتِقَامَةِ، لاَ طَالِبَ الكَرَامَةِ، فَإِنَّ نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الكَرَامَةِ، وَرَبُّكَ يُطَالِبُكَ بِالاسْتِقَامَةِ»[5].

وقال أبو عليّ الشَّبوي[6] : رأيتُ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النّوم، فقلتُ : يا رسول الله، رُوِيَ عنك أنّك قلتَ : "**شَيَّبَتْنِي هُودٌ**"، فما

---

(1) الفترة هي الضعف.

(2) في المطبوع من الرسالة القشيرية : "تقريب" بدل "تصرّف".

(3) انظر الرسالة القشيرية : القشيري : 356/2.

(4) هو أبو علي الجوزجاني واسمه الحسن بن علي، من كبار مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة تكلم في علوم الآفات والرياضات والمجاهدات وربما تكلم أيضاً في شيء من علوم المعارف والحكم. انظر طبقات الصوفية. محمد الأزدي : ص 196.

(5) انظر الرسالة القشيرية : القشيري : 357/2.

(6) هو أَبُو عَلِيّ مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ بنِ شَبُّويه الشَّبَوِيُّ، المَرْوَزِيُّ، مِنْ كِبَارِ مَشَايِخِ الصُّوْفِيَّةِ، وكَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي العَبَّاسِ السَّيَّارِيِّ، سَمِعَ (الصَّحِيْحَ) فِي سَنَةِ سِتٍّ عَشْرَةَ وَثَلاَثِ مائَةٍ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الفِرَبْرِي. انظر سير أعلام النبلاء. الذهبي : 423/16.

الّذي شيّبك منها؟ أقصصُ الأنبياء وهلاكُ الأمم؟ فقال : «لاَ، وَلَكِن قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[1]».[2]

وقال الواسطيّ[3] : «الخِصْلَةُ الّتِي بِهَا كَمُلَتْ المَحَاسِنُ، وَبِفَقْدِهَا قَبُحَتْ هِيَ : الاسْتِقَامَةُ»[4].

وقيل : «لَا يَطْلُبُهَا[5] إِلّا الْأَكَابِرُ؛ لِأَنَّهَا الْخُرُوجُ عَنْ الْمَعْهُودَاتِ.. وَالقِيَامُ بَيْنَ يَدَيّ اللهِ تَعَالَى عَلَى حَقِيقَةِ الصِّدْقِ؛ ولذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "وَلَنْ تُحْصُوا"[6]».[7]

والاستقامة تُوجب دَوَامَ الكَرَامَة، لقوله تعالى : ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[8]. ولم يقل : "سَقَيْنَاهُمْ" لأنّ أسقاه جَعْلٌ له سقيٌ؛ فهو إشارة إلى الدّوام.

وقوله : "مِثْلَ الغَمَامَةِ.." البيت؛ إشارة إلى أنّ الاستقامة إنّما تكون باتّباع آثار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتزام سُنّته؛ كاتّباع الغمامة إيّاه في سَيرها حيث سَار، فمَن فعل ذلك، فقد وَقَى رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن حرارة ما يجده من الحزن على أمّته إنْ عَصَوا، كما تقي

---

(1) سورة هود : من الآية 112.

(2) انظر الرسالة القشيرية : القشيري : 357/2.

(3) هو محمد بن موسى الواسطي أبو بكر، وسبقت ترجمته.

(4) انظر الرسالة القشيرية : القشيري : 357/2.

(5) في المطبوع من الرسالة القشيرية : لا يطيقها.

(6) سبق تخريجه قبل قليل.

(7) انظر الرسالة القشيرية : القشيري : 357/2.

(8) سورة الجن : الآية 16.

الغمامة حرّ الهجير، فإنّ أعمالهم تُعرض عليه بعد موته، فإنْ رأى حسناً حمد الله، وإنْ رأى قبيحاً استغفر لهم؛ ورد معناه في الحديث[1]، ولا يبعد أنْ يكون هذا ممّا يحتمله معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ، وَمَمَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ**»[2].

اللّهمّ أنِلنا الكرامة بتوفيقنا إلى الاستقامة، واهدنا الصّراط المستقيم؛ صراط الّذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضّالين. آمين.

---

(1) ونصه : «**تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ فَمَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ حَمِدْتُ اللهَ، وَمَا كَانَ مِنْ سَيِّءٍ اسْتَغْفَرْتُ اللهَ لَكُمْ**». وسبق تخريجه. والحديث ضعيف.

(2) سبق تخريجه. والحديث ضعيف.

أَقْسَمْتُ بِالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ ... مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ
وَمَا حَوَى الغَارُ مِنْ خَيرٍ وَمِنْ كَرَمٍ ... وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
فَالصِّدْقُ فِي الغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا ... وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالغَارِ مِنْ أَرِمِ
ظَنُّوا الحَمَامَ وَظَنُّوا العَنْكَبوتَ عَلَى ... خَيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ
وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ... مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ
مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْماً وَاسْتَجَرْتُ بِهِ ... إِلاَّ وَنِلْتُ جِوَاراً مِنْهُ لَمْ يُضَمِ
وَلاَ الْتَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ ... إِلاَّ اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

شَرْحُ الغَرِيْبِ

أَقْسَمْتُ : حَلَفْتُ، من القَسامَةِ، وهي الأيمانُ تُقْسَمُ على الأولياء في الدّم. والقَسَمُ بالتّحريك : اليمين، وكذا المُقْسَمُ. وهو المصدر كالمُخرَج، وهو أيضاً : موضعُ القَسَمِ[1].

والقَمَر : يُسمَّى بذلك بعد ثلاث ليالٍ إلى آخر الشّهر؛ لبياضه، أو لاستنارته؛ ولأنّه يُقْمِر الأعين؛ أيْ يغلبها بنُوره، ونقل الجوهري[2] تصغيره، ولا ينبغي.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2010/5. مادة قسم.

(2) قال الجوهري : ومن كلام بعضهم : قُمَيْرٌ، وهو تصغيره. انظر الصحاح: 798/2. مادة قمر.

وتَقَمَّرْتُهُ : أتيته في القَمْراءِ. وتَقَمَّرَ الأسد : طلب الصّيد في القَمْراءِ. والأقْمَر : الأبيضُ؛ يقال : حمارٌ أو سحابٌ أقْمُر. وليلةٌ قَمْراءُ : مضيئةٌ. وأقْمَرَتْ ليلتنا : أضاءت. وأقْمَرْنا : طلعَ علينا القَمَرُ[1].

والمُنْشَق : اسم مفعول من شَقَقْتُه، فانْشَقَّ؛ إذا قسمته. وهذا شَقيقُ هذا؛ إذا انْشَقَّ الشّيء بنصفين، فكلٌّ منهما شَقيقُ الآخر، ومنه الأخ الشّقِيق. والشَقِيقَةُ : الفُرْجَةُ بين الجَبْلين من جبال الرّمل تُنبت العشب، والجمع شَقائِقُ. وشَقائِقُ النّعمانِ معروفٌ، واحده وجمعه سواءٌ، وأُضِيف إلى النُّعمان؛ لأنَّه حَمى أرضاً كثُر فيها ذلك. وشَقَّ العصا : فارقَ الجماعة. وانْشَقَّت العصا : تَفَرَّقَ الأمر. وشَقَّ بصرُ الميت : نظرَ إلى شيء لا يرتدُّ إليه طرفه. قال ابن السكيت : «ولا يُقال : شَقَّ الميّتُ بصرَه، وهو الّذي حضرته الوفاة». والاشْتِقاقُ : أخذ شَقّ الشّيء، وهو نصفه. وشَقَقْتُ الحطبَ وغيره فَتَشَقَّقَ[2].

النّسبة : القُرْب والمُشاكلة، وقد تُضمّ نونه. وتقدّم.

بَرَّ في يمينه : أمضاها على الصّدق، ويمين مَبْرُورٌ فيها. وتقدّم.

والمعنى مصدوقاً في القسم بها. أو بارّة اليمين؛ أيْ صادقته؛ كحجاب مستور؛ أيْ ساتر.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 798/2. مادة قمر.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1502/4. مادة شقق.

حَوَى : جَمَع؛ يُقال : حَواه يَحْويهِ حَيّاً؛ أيْ جمعه. واحْتَواهُ مثله. واحْتَوى على الشّيء؛ أيْ أَنْمَا عليه. وتَحَوَّى : تَجَمَّعَ واستدار؛ ومنه : تَحَوَّتِ الحيَّةُ[1].

والغَار : كالكهف في الجبل، والجمع الغِيرانُ. والمَغارُ والمَغارَةُ مثله. وربَّما سمُّوا مَكانسَ الظباءِ مَغَاراً. وتصغير الغَارِ غُوَيْرٌ. وفي المثل : "عَسَى الغُوَيْرُ أبْؤُساً". قال الأصمعيّ: «أصله غَارٌ انهار على ناسٍ، أو قُتلوا فيه، فصار مثلاً لكلِّ شيء يُخاف أنْ يأتيَ منه شرٌّ». وقال ابن الكلبيّ[2] : «الغُوَيْر : ماء لكلب معروف». وهذا المثل تكلّمت به الزَّبَّاء[3] لما تنكّب قَصِير اللَّخْمِيّ بالأَجْمال الطَّريقَ المَنْهَج، وأَخذ على الغُوَيْر. والغَارَانِ: البطن والفرج[4].

والغار هنا هو الّذي اختفى فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المشركين حين هاجر من مكّة إلى المدينة، وهو في جبل يُسمَّى ثورًا بالثّاء المثلّثة، وهو بأسفل مكّة.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2321/6. مادة حوا.

(2) هو هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي، أبو المنذر (..- 204هـ =..- 819م). مؤرخ عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها كأبيه. كثير التصانيف. من أهل الكوفة، ووفاته فيها. له نيف ومئة وخمسون كتابا، منها (جمهرة الأنساب). انظر الأعلام. الزركلي : 88/8.

(3) وَذَلِكَ أَنَّ الزَّبَّاء لَمَّا خَافَتْ مِنْ قَصِيرٍ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الغارَ الَّذِي تَحْتَ قَصْرِكِ، فَقَالَتْ: عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُساً أَيْ إِن فَرَرْتُ مِنْ بأْس وَاحِدٍ، فَعَسَى أَن أَقع فِي أَبْؤُسٍ. انظر لسان العرب. ابن منظور: 23/6.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 773/2. مادة غور.

والخِير : بكسر الخاء، قال الجوهري : «الكَرَم»[1].

قلتُ : وسمعتُ مَن يفسّره بكرم النّفس، وعلى كلّ تقدير ففيه تكرار مع قوله : "ومِنْ كَرَم"، إلاّ أنْ يُفسّر "كَرَم النّفس" بالأخلاق الحميدة، و"الكَرَم" بالجود، فيتغايران على التّفسير الثّاني تغاير الأعمّ والأخصّ، وهو عند شيخنا أبي العبّاس القصّار الخَيْر بفتح الخاء؛ الّذي هو ضدّ الشرّ. **والكَرَم** : تقدّم.

الطّرف : العَين. وتفسيره بالبصر قلقٌ؛ لأنّ البصر المَعنَى، ولا يُوصف بالعَمَى. لا يُجمع الطّرف؛ لأنّه في الأصل مصدر، فيكون واحدًا وجماعة، قال تعالى : ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[2].[3]

والكُفّار : جمع كافر : اسم فاعل من الكُفر؛ ضدُّ الإيمان. ويُجمع أيضاً كَفَرَةٌ وكِفارٌ؛ كنائم ونِيام، وجمع الكافِرَةِ كَوافِرُ. والكُفْرُ أيضاً : جُحودُ النّعمةِ؛ ضدُّ الشّكر. وقد كَفَرَهُ كُفُوراً وكُفْرَاناً. وقوله تعالى : ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[4]؛ قال الأخفش : «جمع كُفْرٍ؛ كبُرْد وبُرُود». والكَفْرُ بالفتح : التغطيةُ، وقد كَفَرْتُه أكْفِرُهُ بالكسر؛ أيْ سَتَرْتُهُ. ورمادٌ مَكْفُورٌ : غطّته الرّيحُ بالتّراب[5]. والمادّة طويلة متناسبة، فلنقتصر على هذا.

---

(1) سورة إبراهيم : من الآية 43.

(2) سورة إبراهيم : من الآية 43.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 652/2. مادة خير.

(4) سورة الإسراء : من الآية 99.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 807/2. مادة كفر.

عَمِيَ يَعْمَى فهو أَعْمَى؛ إذا لم يبصر. وتقدّم.

فالصّدق : هو النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أيْ ذو الصّدق، فحُذف المضاف. والصِّدْقُ: ضدّ الكذب. وصَدَقَ في الحديث، وصَدَقَهُ الحديثَ. وصَدَقوهُمْ القتالَ. وتَصادَقوا في الحديث وفي المودّة. والمُصَدِّقُ : الّذي يُصَدِّقُكَ في حديثك[1]. **والصِدّيق** : مثل الفِسِّيقِ؛ الدّائم التّصديق، ويكون الّذي يُصدِّق قولَه بالعمل[2]. والمراد به هنا أبو بكر رضي الله عنه، وقد جمع معنى التّفسيرين.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1505/4. مادة صدق.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1505/4. مادة صدق.

[ترجمة أبي بكر الصدّيق]

واسمه : عبد الله بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عبد الله، واسم أَبِي قُحَافَةَ عُثْمَانُ بْنُ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ بْنِ غَالِبِ القرشي التَيمِيّ[1]. أمّه : أُمّ الْخَيْرِ بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عامر بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرّةَ، واسمها سَلْمَى[2]. وقال ابن دأب[3] : هي أمّ الخير؛ على اسمها[4].

ولم يُختلف في شهوده بدرًا، ولم يرافق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدٌ من أصحابه في هجرته غيره، وكان مؤنسه في الغار إلى أنْ خرجا مهاجرَين، وهو أوّل مَن أسلم من الرّجال، وأوّل مَن صلّى مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قول طائفة[5]. ولُقّب عتيقاً؛ قيل :

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 10/3.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 20/3.

(3) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الليثي البكري الكناني، أبو الوليد (.. - 171هـ = .. - 787م). خطيب، شاعر، عالم بالأنساب، راوية. من أهل المدينة. اشتهر بأخبار مع المهدي العباسي. وحظي عند الهادي حظوة لم تكن لأحد. واتهم بوضع الشعر وأحاديث السمر، ونسبتها إلى العرب. انظر الأعلام. الزركلي : 111/5.

(4) انظر تاريخ دمشق. علي ابن هبة الله الشافعي : 24/30.

(5) روى الإمام أحمد عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ : أَوَّلُ مَنْ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ. قَالَ عَمْرٌو – أحد رجال السند – فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ. انظر المسند : 368/4. رقم الأثر : 19303. قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد : 128/9. رقم الأثر : 14608. وضعّفه بعض نقاد الحديث.

«لجماله وعَتَاقَة وجهه؛ أيْ لحسن وجهه، والعتيق الحسن». وقيل: «لأنّ نسبه لا شيء فيه يُعاب به». وقيل : «لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**"»[1]. وسُئل ابن عبّاس : أيُّ النّاس كان أسبق إسلاماً؟ فقال : أمَا سمعت قول حسّان :

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ ... فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلاَ

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَعْدَلَهَا ... بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلاَ

وَالتَّالِيَ الثَّانِيَ الْمَحْمُودَ مَشْهَدُهُ ... وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَّقَ الرُّسُلاَ[2]

ويُروى أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لحسّان : «**هَلْ قُلْتَ فِي أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا؟**». قال نعم، وأنشده الأبيات، ورابعا :

وثَانِيَ اثْنَيْنِ فِي الغَارِ المَنِيفِ وَقَدْ ... طَافَ العَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَّدَ الجَبَلا

فسُرّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال : «**أَحْسَنْتَ**».

ويُروى فيها[3] :

وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ اللهِ قَدْ عَلِمُوا ... مِنَ البَرِيّة لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلاَ

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك عن عائشة مرفوعا : 64/3. رقم الحديث : 4404. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال : صالح – أحد رجال السند – ضعفوه، والسند مظلم.

(2) رواها البيهقي في السنن الكبرى : 369/6. رقم الأثر : 13476. وضعفه البعض. وثمة بيت رابع، ونصه : عَاشَ حَمِيْدًا لأَمْرِ اللهِ مُتَّبِعًا ... بِهَدْيِ صَاحِبِهِ الْمَاضِي وَمَا انْتَقَلاَ

(3) رواها الحاكم في المستدرك عن حبيب بن أبي حبيب : 67/3. رقم الحديث : 4413. وقال الذهبي : عمرو بن زياد – أحد رجال السند – يضع الحديث.

ولقّبه صدّيقاً – وهو مِن أبنية المبالغة - رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك لمّا كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبره عن الإسراء، ويصف له بيت المقدس، وأبو بكر يقول : صدقت، وأشهد إنّك رسول الله حتّى انتهى. فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِدِّيقُ**». وقيل : لبداره إلى تصديق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلّ ما جاء به[1]. وكان في الجاهلية من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشْناق – وهي الدّيات - وإنْ حمل شيئًا، قالت قريش : صدّقوه، وامضوا حَمَالته وحَمَالة مَن قام معه، وإنْ احتملها غيره خذلوه، ولم يصدّقوه. وأسلم على يدَيه الزُّبير[2]، وعثمان، وطلحة[3]، وابن عوف[4] رضي الله عن جميعهم[1].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 398/3.

(2) الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أبو عبد الله (28 ق هـ - 36هـ = 594 - 656م). الصحابي الشجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفه في الإسلام. وهو ابن عمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسلم وله 12 سنة. وشهد بدرًا وأحدًا وغير هما. قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل، انظر الأعلام. الزركلي : 43/3.

(3) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني، أبو محمد (28 ق هـ - 36هـ = 596 - 656م). صحابي، شجاع، من الأجواد. وهو أحد العشرة المبشرين، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام. قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة. ودفن بالبصرة. انظر الأعلام. الزركلي : 229/3.

(4) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث، أبو محمد (44 ق هـ - 32هـ = 580 - 652م). صحابي، من أكابرهم. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام، قيل : هو الثامن. وكان من الأجواد الشجعان العقلاء. ووفاته في المدينة. انظر الأعلام. الزركلي : 321/3.

(1) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 50/1.

وأنفق في سبيل الله وعلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين ألفاً، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِى بَكْرٍ**»[1]. وأعتق سبعة[2] عُذّبوا في الله، منهم: بِلال، وعَامِر بْن فُهَيْرَة[3].

وفي حديث التّخيير، قال عليّ[4] : «**فَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ**»[5]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه : «**دَعُوا لِي صَاحِبِي، فَإِنَّكُمْ كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي**»[6].

وقال في كلام الذئب والبقرة : «آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وما هما، ثمّ علما بما كانا عليه من اليقين»[7].

---

(1) رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في المناقب. بَاب مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ. وهو صحيح.

(2) وهم بالإضافة إلى ما ذكر : أم عُبيس، وزِنِّيرة ، والنّهدية وبنتها ، وجارية بني مؤمل.

(3) هو عامر بن فهيره مولى أبي بكر رضي الله عنهما. يكنى أبا عمر واشتراه أبو بكر وأعتقه قبل أنْ يدخل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار الأرقم، فكان من المستضعفين، وشهد بدرا وأحدا، وقتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة وهو ابن أربعين سنة. انظر صفة الصفوة. ابن الجوزي : 432/1.

(4) القول مروي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وليس عن عليّ بن أبي طالب.

(5) رواه البخاري في المناقب. بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُدُّوا الْأَبْوَابَ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ.

(6) رواه ابن بَطَّة العكبري في كتابه الإبانة الكبرى : 591/9. رقم الحديث : 152.

(7) نص الحديث بتمامه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ : لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ. قَالَ : آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. وَأَخَذَ الذِّئْبُ شَاةً فَتَبِعَهَا الرَّاعِي فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ : مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي. قَالَ : آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ». رواه البخاري في المزارعة. بَاب اسْتِعْمَالِ الْبَقَرِ لِلْحِرَاثَةِ.

وقال لعمرو بن العاص[1] حين سأله : «مَن أحبّ النّاس إليك؟» قال : «**عَائِشَةُ**». قال : «مِن الرّجال». قال : «**أَبُوهَا**»[2]. وقال : «**إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً، لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، ولَكِن أُخوَّةُ الإِسْلاَمِ، لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِد خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**»[3]. وقال للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهما بالغار : لو أنّ أحدهم نظر إلى قدمَيه لأبصرنا. فقال : «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[4].

وقال بعضهم في مجلس القاسم بن محمّد بن أبي بكر[5] رضي الله عنهم : «والله ما كان لرسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من موطن، إلاّ وعليّ معه فيه». فقال القاسم : «يا أخي لا تَحْلِف». قال : «هلُمّ». قال : «بلى، ما لا تردّه؛ قال تعالى : ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾[1]»[2].

---

(1) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله (50 ق هـ – 43هـ = 574 – 664م). فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم، وأسلم في هدنة الحديبية. وهو الذي افتتح قنسرين. وتوفي بالقاهرة. انظر الأعلام. الزركلي : 79/5.

(2) رواه البخاري في المناقب. بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا.

(3) رواه مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مرفوعا في فضائل الصحابة. بَاب مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه غيره.

(4) رواه البخاري عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ مرفوعا في المناقب. بَاب مَنَاقِبِ الْمُهَاجِرِينَ وَفَضْلِهِمْ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ التَّيْمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه غيره.

(5) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو محمد (37 – 107هـ = 657 – 725م). أحد الفقهاء السبعة في المدينة. ولد فيها، وتوفي بقديد (بين مكة والمدينة) حاجًا أو معتمرًا. وكان صالحًا ثقة من سادات التابعين، عمي في أواخر أيامه. انظر الأعلام. الزركلي : 181/5.

(1) سورة التوبة : من الآية 40.

(2) انظر الاستيعاب. ابن عبد البر : 968/3.

واستخلفه رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على أمّته بعده بما أظهر من الدّلائل على محبّته وبالتّعريض القائم مقام التّصريح، وإنّما لم يصرّح لأنّه لم يؤمر فيه بشيء. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنَ مِنْ بَعْدِي؛ أَبِو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ[1] وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابنِ أُمِّ عَبْدٍ[2]**»[3]. وقال عليّ : «**خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»[4]. رضي الله عنهم أجمعين. وعنه : «**يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ؛ كَانَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ اللَّوْحَتَيْنِ**»[5]. وقال مسروق : «**حُبُّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَمَعْرِفَةُ فَضْلَهُمَا مِنَ السُّنَّةِ**»[6]. وكان أبو بكر رضي الله عنه **نَحِيفًا أَبْيَضَ، خَفِيفَ الْعَارِضَيْنِ، أَجْنَأَ[1]، لَا يَسْتَمْسِكُ إِزَارَهُ، تَسْتَرْخِي عَنْ حِقْوَيْهِ[2]، مَعْرُوقَ الْوَجْهِ، غَائِرَ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئَ الْجَبْهَةِ، عَارِيَ الْأَشَاجِعِ[3]**. بهذا وصفته ابنته عائشة رضي الله عنها[4].

---

(1) هو عمار بن ياسر بن عامر الكناني (57 ق هـ – 37هـ = 567 – 657م). صحابي، من الولاة الشجعان ذوي الرأي. وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به. هاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق وبيعة الرضوان. وشهد الجمل وصفّين مع عليّ بن أبي طالب. وقتل في الثانية، وعمره ثلاث وتسعون سنة. انظر الأعلام. الزركلي : 36/5.

(2) هو عبد الله بن مسعود.

(3) رواه الترمذي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مرفوعا في المناقب. باب مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث صحيح.

(4) رواه أحمد. انظر المسند : 224/2. رقم الحديث : 880. والحديث صحيح.

(5) رواه ابن أبي شيبة. انظر المصنف : 148/6. رقم الحديث : 30229.

(6) رواه ابن أبي شيبة. انظر المصنف : 10/12. رقم الحديث : 32600.

(1) الأَجْنأ : الذي في كاهله انحناء على صدْره وليس بالأَحْدَب.

(2) الحِقْو : الخصر ومشد الإزار.

(3) الأشاجِع : هي مفاصِلُ الأصابع واحدُها أشجع؛ أي كانَ اللحمُ عليها قليلا.

(4) رواه الطبراني في الكبير : 56/1. رقم الحديث : 21.

بُويع له يوم مات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، ثمّ بيعة العامة يوم الثّلاثاء غد ذلك اليوم، وتخلّف عن بيعته جماعة، ثمّ بايعوه إلاّ سَعد بن عبادة[1].

وقال عليّ: «لاَ يُفَضِّلُنِي أَحَدٌ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلاَّ جَلَدْتُهُ حَدَّ المُفْتَرِي»[2]. وسمع أبو قحافة ضجّة بمكّة، فسأل، فقِيل: «قُبض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» فقال: «أمرٌ جليل، فمَن وُلِّي بعده؟ قالوا: ابنك». قال: «فَرَضِيَتْ بنو عبد مناف وبنو المُغيرة؟» قالوا: «نعم». قال: «لا مانع لِما أعطى الله، ولا معطي لِما منع الله»[3].

ومكث في خلافته سنتين وثلاثة أشهر إلاّ خمس ليالٍ، وقيل: وثلاثة أشهر واثنتي عشرة ليلة من مُتوفَّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: وعشرة أيّام، وقيل: وعشرين يوما. فأظهر الله به دينه، وقُتل على يدَيه وبركته كلّ من ارتدّ عن دين الله، حتّى ظهر أمر الله وهم كارهون. وسبب موته قيل: اغتسل في يوم بارد، فحُمّ، ومرض خمسة عشر يوماً، وقيل: كان به طرف من السلّ. وقيل: سُمَّ، وسمعتُ من يقول: مات من لدغ الحيّة الّتي لدغته في الغار[1].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي: 551/7.

(2) قال المتقي الهندي: رواه ابن أبي عاصم وخيثمة في فضائل الصحابة. انظر كنز العمال: 27/13. رقم الأثر: 36157.

(3) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه: 274/3. رقم الأثر: 5071. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: لم يخرجا لعمارة بن عبدالله بن صياد – أحد رجال السند – شيئا.

(1) انظر الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. الكلاعي: 158/3.

وقال ابن إسحاق : «تُوفّي يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة. وقال غيره : عَشِيّ يوم الاثنين، وقيل : ليلة الثّلاثاء، وقيل : عَشِيّ يوم الثّلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة، وهو قول أكثرهم. وغسّلته زوجته أسماء بنت عُمَيس[1] بوصيّته، وصلّى عليه عمر، ونزل في قبره هو وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبي بكر[2] رضي الله عنهم أجمعين، ودُفن ليلاً في بيت عائشة مع النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسنّه ثلاث وستّون»[1]. وغير هذا لا يصحّ. ونَقْش خاتمه : «نِعْمَ القَادِرُ اللهُ». قاله الزّبير بن بكّار[2].

---

(1) هي أسماء بنت عميس بن معد (.. - نحو 40هـ = .. - نحو 661م). صحابية، كان لها شأن. أسلمت قبل دخول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار الارقم بمكة، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، ثم قتل عنها جعفر شهيدا في وقعة مؤتة. فتزوجها أبو بكر الصديق، وتوفي عنها أبو بكر فتزوجها علي بن أبي طالب. وماتت بعد علي. انظر الأعلام. الزركلي : 306/1.

(2) هو عبد الرحمن بن عبد الله أبي بكر الصديق ابن أبي قحافة القرشي التيمي (...- 53 هـ=...- 673م). صحابي، ابن صحابي. وكان من أشجع قريش وأرماهم بسهم، حضر اليمامة وشهد غزو إفريقية. وحضر وقعة الجمل مع شقيقته عائشة، ودخل مصر. وكان شاعرا. انظر الأعلام. الزركلي : 311/3.

(1) انظر الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. الكلاعي : 158/3. وانظر الاستيعاب. ابن عبد البر : 977/3.

(2) عزى ابن عبد البر القول للزبير بن بكار. انظر الاستيعاب : 977/3. والثابت أنّ الذي قاله هو حبّان الصَّائغ. قال المتقي الهندي : رواه ابن سعد والحبلى في الديباج وأبو نعيم في المعرفة. انظر كنز العمال : 613/5. رقم الأثر : 14078.

وقال غيره[1] : «عَبْدٌ ذَلِيلٌ لِرَبٍّ جَلِيلٍ»[2].

قلتُ : كذا ذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ[3]. والّذي في صحيح صحيح البخاري أنّ خاتم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّذي كان نَقْشه : "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ" في ثلاثة أسطار، هو كان خاتم أبي بكر ثمّ لعمر ثمّ لعثمان، حتّى سقط منه فِي بِئْرِ أَرِيسَ[4]. إلاّ أنْ يكون اتّخذ معه معه غيره.

وقال عبد الملك بن مروان[1] للزّهري[2] : «أرأيت هذه الأبيات الأبيات الّتي تُروى عن أبي بكر؟» فقال : «لم يقلها، لأنّ عروة حدّثني

---

(1) هو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(2) قال المتقي الهندي : رواه الختلي في الديباج. قال ابن كثير : إسناده مظلم. انظر كنز العمال : 637/5. رقم الأثر : 14122.

(3) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمريّ القرطبيّ، أبو عمر (368 - 463هـ = 978 - 1071م). من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب. يُقال له حافظ المغرب. ولد بقرطبة. وولي قضاء لشبونة. وتوفي بشاطبة. انظر الأعلام. الزركلي : 240/8. وانظر نقله في الاستيعاب : 977/3.

(4) انظر صحيح البخاري في اللباس. بَاب نَقْشِ الْخَاتَمِ. والحديث رواه ابن عمر.

(1) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد (26 - 86هـ = 646 - 705م). من أعاظم الخلفاء ودهاتهم. نشأ في المدينة، فقيها واسع العلم، متعبدا، ناسكاً. وشهد يوم الدار مع أبيه. انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه (سنة 65ه) فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة، فكان جبارًا على معانديه، قويّ الهيبة. توفي في دمشق. انظر الأعلام. الزركلي : 165/4.

(2) هو محمد بن مسلم بن عبد الله ابن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر (58 - 124هـ = 678 - 742م). أول من دون الحديث، وأحد أكابر

عن عائشة: أنّ أبا بكر لم يقل بيت شِعر في الإسلام حتّى مات، وأنّه كان قد حرّم الخمر في الجاهلية هو وعثمان رضي الله عنهما»[1].

وممّا قيل في أبي بكر رضي الله عنه قول أبي الهيثم بن التّيهان[2] :

وَإِنِّــي لأَرْجُــو أَنْ يَقُــومَ بِأَمْرِنَــا ... وَيَحْفَظَهُ الصِدِّيقُ وَالمَرْءُ مِن عُدَيّ

أُولَئِكَ خِيَارُ الحَيّ فِهْرُ بْنُ مَالِكِ ... وَأَنْصَارُ هَذَا الدِّينِ مِنْ كُلِّ مُعْتَدِي

وقال فيه أبو مِحْجَن الثّقفي[1] :

وَسُــمِّيتَ صِــدِّيقا وَكُــلُّ مُهَــاجِرٍ ... سِــوَاكَ تَسَـمَّى بِاسْـمِهِ غَيْـرَ مُنَكَّـرِ

سَبَقْتَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللهُ شَاهِدٌ ... وَكُنْتَ جَلِيسًـا بِـالعَرِيشِ المُشَـهَّرِ

وَبِالغَـارِ إِذْ سُـمِّيتَ بِالغَـارِ صَاحِبًا ... وَكُنْــتَ رَفِيقًــا لِلنَّبِــيّ المُطَهَّــرِ

الحفاظ والفقهاء. تابعي، من أهل المدينة. نزل الشام واستقر بها. انظر الأعلام. الزركلي: 97/7.

(1) رواه عبد الرزاق. انظر المصنف : 266/11. الحديث رقم : 20507.

(2) هو مالك بن التيهان الأنصاري، أبو الهيثم (.. – 20هـ = .. – 641م). صحابي. أول من أسلم من الأنصار بمكة. وهو أحد النقباء الاثني عشر. شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها. وتوفي في خلافة عمر، وقيل : شهد صفين مع علي، وقتل بها. انظر الأعلام. الزركلي : 258/5. وانظر أبياته في الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. الكلاعي : 368/2.

(1) هو عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير ابن عوف (.. – 30هـ = .. – 650م). أحد الأبطال الشعراء الكرماء في الجاهلية والاسلام. أسلم سنة 9 هـ. وتوفي بأذربيجان أو بجرجان. انظر الأعلام. الزركلي : 76/5.
وانظر أبياته في نهاية الأرب في فنون الأدب. شهاب الدين النويري : 4/19.

لم يرِمَا : أيْ لم يبرحا، يُقال : لا أُرِيمُ من مكاني؛ أيْ لا أبرح. وأَرِم بفتح الهمزة وكسر الرّاء ولا ياء بين الرّاء والميم بمعنىً واحد، وبالياء أيضاً. أبو زيد[1] : «ما بالدّار أَريمٌ، وما بها أَرِمٌ؛ أيْ ما بها أحدٌ». قال[2] :

دَارٌ لأَسْـماءَ بـالغَمْرَيْن ماثِلَـةٌ   كالوَحْيِ ليْسَ بِها مِنْ أَهْلِها أَرِمُ[3]

وهو من الألفاظ الّتي لا تُستعمل إلاّ في النّفي؛ كأحد، وديار، وغريب، في ألفاظ كثيرة.

ظَنُّوا : من الظنّ؛ وهو : «الذّكرُ النّفسي الّذي يَحتمل مُتَعَلّقُه النّقيضَ احتمالاً مَرجُوحا»[1].

فالطّرف الرّاجح هو الظنّ، والمرجوح الوَهم، وقد يَرِد بمعنى العِلم. والتَظَنِّي : إعمال الظَنّ، وأصله التَظَنُّنُ أُبدل من إحدى النونات ياء. ومَظِنَّةُ الشّيء بالكسر : موضعه الّذي يُظَنُّ كونُه فيه؛ والجمع المَظَانُّ. والدَيْنُ الظَّنونُ : لا يُدْرى أَقُضي أم لا؟ والظَنُونُ : الرّجل السيّء الظَنّ[2].

الحَمام بفتح الحاء عند العرَب : ذوات الأطواق؛ من نحو الفَواخِتِ والقَمارِيّ وساقِ حُرٍ والقَطاَ والوراشين وأشباه ذلك، يقع على

---

(1) هو محمد بن أبي الخطاب القرشي، أبو زيد: راوية عالم بالشعر. صنف (جمهرة أشعار العرب). قال الزركلي : ولم أظفر بترجمته في كتب المتقدمين. انظر الأعلام. الزركلي : 114/6.

(2) هو زهير بن أبي سلمى.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1859/5. مادة أرم.

(1) انظر النفحات الشاذلية في شرح البردة البوصرية. حسن العدوي الحمزاوي: ص 469.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2160/6. مادة ظن.

الذّكر والأنثى؛ لأنّ الهاء إنّما دخلته على أنّه واحد من جنس، لا للتّأنيث. وعند العامة أيضاً الدّواجن فقط، الواحدة حمامة.

ومن أبيات "**الكتاب**" : قَواطِنَاً مَكَّةَ مِنْ وُرْقِ الحَمِي..[1]، ويُروى "زرق"، وأصله الحمام، فحُذف الميم، وأُبدل الألف ياءً. وقيل : حُذف الألف كما يُحذف الممدود، فاجتمع الميمان، فلزمه التّضعيف، فقُلب أحدهما ياءً، كما قالوا : تضنَّيت.

وجمعُ الحَمامَةِ حَمَامٌ، وحَمَاماتٌ، وحمائِمٌ، وربَّما قالوا حَمامٌ للواحد. وأمّا اليَمام فهو الحَمام الوحشيّ، وهو ضرب من طير الصّحراء؛ قاله الأصمعي. وقال الكسائي : «الحمام هو البرّي، واليمام هو الّذي يألف البيوت»[1]. والعرف عندنا اليوم بالمغرب على ما قال الأصمعي[2].

والعَنْكَبُوتُ : النّاسجة، وأصله عَكْب، تُذكّر وتُؤنّث، والغالب عليها التّأنيث، والجمع العَنَاكِب. والعَكَنْباة أيضاً : العَنْكَبُوت[3].

والبَرِيَّةُ : الخَلْق. وتقدّم. وهو إمّا من برأ الله الخَلق، فتكون لامها همزة، فقَلبها ياءً وأُدغم، وإمّا من البَرَى؛ وهو التّراب، فتكون لامها ياءً. وتقدّم.

---

(1) هذا شطر من بيت من قول العجاج، والبيت بتمامه :

وَرَبِّ هَذَا البَلَدِ المُحَرَّمِ قَوَاطِناً مكّةَ من وُرْق الحَمِي

انظر الكتاب. سيبويه : 26/1.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1904/5. مادة حمم.

(2) وهذا العرف ما زال مستمرًا في بلادنا الجزائر إلى اليوم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 188/1. مادة عكب.

ويُقال : نَسَجَت العنكبوت نَسْجَهَا وأَنْسَجَتْه، ونَسَجَ الثّوبَ يَنْسِجُهُ ويَنْسُجُهُ نَسْجاً. والصّنعةُ نِساجةٌ. والموضع مَنْسَجٌ بكسر السّين وفتحها. والمِنْسَجُ بكسر الميم : الأداة الّتي يُمَدُّ عليها الثّوبُ ليُنسج. ونَسَجَتِ الريحُ الرَبْعَ : تَعاوَرَته ريحانِ طولاً وعرضاً، كالنّاسِجَ يَعترض النَسيجةَ فيُلْحِم ما أطال من السَدى. وضَرَبَتِ الرّيحُ الماءَ فانْتَسَجَتْ له تلك الطّرائقُ. ونسيجُ وحدِهِ : لا نظيرَ له، وأصله الثّوب الرّفيع؛ لا يُنْسَج على منوالِه غيرُه[1].

وأصل تَحُم تَحُوم، فحُذفت الواو لالتقائها ساكنة مع الميم السّاكنة للجزم، وهو مضارع حَامَ الطّائرُ وغيره حولَ الشّيء، يَحُوم حَوْماً وحَوَمَاناً؛ أيْ دار[2].

والوِقاية : الحِفظ. وتقدّم.

أَغْنَت، قيل من أغْنيتُك عن هذا الأمر؛ أيْ أجزأتك عنه.

وقال الجوهري : «أغْنيتُ عنك مَغْنَى فلانٍ ومَغْناه بفتح الميم فيهما وضمّها : أيْ أجزأتُ عنك مُجْزَأَهُ. وما يُغنِي عنك؛ أيْ ما يُجزئ عنك وما ينفعك. وغَنِيَ به عنه غُنْيَةٌ. وغَنِيَتِ المرأة بزوجها غُنْياناً : استَغْنَتْ به. فهي غَانِية، وهُنّ غَوَانٍ. والغِنَى مقصورٌ : اليسار. غَنِيَ فهو غَنِيٌّ. وتَغَنَّى : اسْتَغْنَى، وأغْناهُ الله. وتَغانَوْا : اسْتَغْنَى بعضُهم عن بعض. والغَنَاء، بالفتح والمدّ : النّفع»[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 344/1. مادة نسج.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1908/5. مادة حوم.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2449/6. مادة غنى.

والمضَاعَفَة : الدّرع الّتي نُسِجت حلقتَين حلقَتين[1].

والدُّروع : جمع كثرة، واحدها دِرْعُ الحديدِ، وتُجمع في القلّة أَدْرُعٌ وأَدْراعٌ. وهي مؤنّثةٌ. وتصغيرها دُرَيْعٌ، وهو شاذ، وقياسه بالهاء. وحكى فيها أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّذكير والتّأنيث. ودِرْعُ المرأةِ : قميصُها، مُذكَّر. والجمع أَدْراعٌ. وادَّرَعَتِ : افتعلتْ منه. ودَرَّعْتُها تَدْريعاً: ألبستَها إيَّاه. وقولهم : شَمَّرَ ذيلاً، وادَّرَعَ ليلاً : استعمل الحزمَ، واتَّخذ الليلَ جَمَلاً. والمِدْرَعُ والمِدْرَعَةُ واحدٌ. والدُرَّاعَةُ : واحدةُ الدَرَارِيع. وادَّرَعَ : لبِس الدِرْعَ. وتَدَرَّعَ : لبِسه أو المِدْرَعَةَ. وتَمَدْرَعَ : لَبِسَ المِدْرَعَة، وهى لغة ضعيفة. ورجلٌ دَارِعٌ : عليه دِرْعٌ، كأنّه ذو دِرْعٍ؛ كَلاَبِن[2].

والعَالي : المرتفع، مِن عَلاَ يَعْلُو. وفروع المادّة كثيرة. ولامه واو، ولا يُوجد في الأسماء ما آخره واو قبلها ضمّة، فإنْ أدّى إليه قياسٌ رُفض بقلب الواوِ ياءً، والضمّةِ كسرةً، فلِذا صار عَالٍ، وأصله عَالِي، فاستثقلوا الضمّة والكسرة على الياء، فحذفوا الحركة، فحذفوا الياء؛ لالتقائها ساكنة مع التّنوين[1].

والأُطُم - بضمّ الهمزة والطّاء، وقد تُسكن الطّاء - : الحِصْن. والجمع آطَامٌ.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1390/4. مادة ضعف.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1206/3. مادة درع.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2434/6. مادة علا.

وقال الجوهري : «وهي حُصونٌ لأهل المدينة. قال[1] :

بَثَّ الجنودَ لهمْ في الأرض يقتُلهم ما بين بُصْرى إلى آطامِ نَجْرانا

والواحدة أَطَمَةٌ؛ كأكَمَة. وباليمن حِصن يُعرف بِأُطُم الأضْبَط[2]، وتَأَطَّمَ السَيْلُ : ارتفعتْ في وجهه كالأمواج ثمّ تكسَّرَ بعضُها على بَعْض»[3].

سَامَني ضَيْما؛ أيْ أولاني وأرادني عليه. يُقال : سُمْتُهُ خسفاً؛ أيْ أوليتُه إيَّاه، وأوردتُه عليه. قال[4] :

إذَا سُمْتهُ وَصْلَ القَرَابَةِ سامَني قَطِيعتَها تلك السَّفاهةُ والظُّلْمُ

الضَّيم : الظُّلم. ضامَهُ يَضيمُهُ، واسْتَضَامَهُ، فهو مَضِيمٌ ومُسْتَضَامٌ؛ أيْ مظلوم. وقد ضُمْتُ؛ أيْ ظُلِمْتُ، على ما لم يُسمّ فاعله. وضِيمَ؛ بالكسر وبالضمّ وبالإشمام[1].

استَجَرْتُ : اعتصمتُ، أو طلبت أنْ يجيرني. فيحتمل أنْ يكون المطلوب هو الله جلّ جلاله؛ أيْ استجرتُ الله من ذلك الضَّيم به، أيْ بسبب النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أنْ تكون الباء زائدة في المفعول؛ أيْ استجرت النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أيْ طلبته أنْ يجيرني، والأوّل هو الحقيقة، والثّاني أمدح.

---

(1) هو أوس بن مغراء السعدي.

(2) نسبة للاضبط بن قريع كان أغار على أهل صنعاء وبنى بها أطما.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1862/5. مادة أطم.

(4) هو مَعْن بن أوس المُزَنِيّ.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1973/5. مادة ضيم.

والجَار : من أجرته من أنْ يظلمه ظالم. واسْتَجَارَه من فلان، فَأَجَارَه منه. وأَجَارَهُ الله من العذاب : أنقذه[1].

ونِلْتُ منه خيرًا : أيْ أصبته، ونَالَ يَنَالُ نَيْلاً : أصاب. وأصله نَيِلَ يَنْيَلُ؛ كتَعِبَ يَتْعَبُ. وأَنَالَه غيره. والأمر منه نَلْ بفتح النّون، فإذا أخبرت عن نفسك كسرته[2].

والجِوَار : بكسر الجيم، وهو الأفصح، وبضمّها : المُجاوَرَة؛ وهو القُرْب. وتقدّم.

ولم يُضَم؛ أيْ لم يُظلم.

والتَمَسْتُ : طلبتُ، والالْتِمَاسُ الطّلب. والتَلَمُّس : التطلُّب مرّة بعد أخرى. واللُّماسَة بالضمّ : الحاجة المقاربة[1].

والغِنى بكسر الغين مقصورٌ : اليَسَار ضدّ الفقر. وتقدّم الآن.

والدّاران : الدّنيا والآخرة.

واستَلَمْتُ الحجر؛ أيْ لمسته؛ إمّا باليد أو بالفم، وقد يُتجوَّز به فيُقال : اِسْتَلَمتُ مَعروفَه؛ أيْ تناولته باليد، ولا يُهمز؛ لأنّه مأخوذ من السّلام - وهو الحجر - كـ "اِستَنْوَقَ الجَمَلُ"، وبعضهم يهمزه.

النّدَى : الجود والكرم. قيل : منقول من النّدى؛ الّذي هو القَطر، ورجلٌ نَدٍ؛ أيْ جواد. وفلان أَنْدى من فلان؛ أيْ أكثر خيراً منه. ويَتَنَدَّى

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 617/2. مادة جور.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1838/5. مادة نيل.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 975/3. مادة لمس.

على أصحابه : يتسخّى. ولا تقل يُنَدِّي عليهم. ونَدَوتُ : جُدْت. وسنّ للنّاس النّدى فنَدَوْا. وفلان نَدِي الكَفّ، إذا كان سخيًّا[1].

وَمِنْ خَيْرِ مُسْتَلَم؛ أيْ مِن خَير مطلوب منه.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2505/6. مادة ندا.

التَّفْسِيْرُ

[تسخير العجماوات للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

ما تضمّنته هذه الأبيات من المدح مناسب لِما كان فيه قبلُ، أمّا البيت الأوّل فمناسبته من وجهين:

الأوّل : ما تضمّن من الإخبار عن انشقاق القمر له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أيْ وكما سُخِّرت له الجمادات الأرضية السفليّة، فكذلك الجمادات السّماوية العُلويّة، فالقمر انشقّ له، حسبما تضمّن ذلك القرآن العظيم[1] والآثار الكريمة[2]، والشّمس أُوقِفت له، كما ورد في الحديث[3].

الثّاني : أنّه كان يخبر عن علامات نبوّته قبل الولادة، وإنّما ذكر الأشجار وغيرها بالعَرَض كما قدّمنا، فتضمّن هذا البيت الإخبار عن بعض

---

(1) وذلك في قوله تعالى: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ». الآية 1 و 2 من سورة القمر.

(2) منها حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْهَدُوا». رواه البخاري في المناقب، بَابُ سُؤَالِ المُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً، فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ القَمَرِ، رقم الحديث 3636.

(3) وذلك ما رواه الحافظ يونس بن بكير، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما أُسري به ليلة الاثنين، وأخبر قومه بالرفقة الّتي وجدهم في طريق (الشام) في العير الآتية إليهم، فقالوا له: متى تجيء العير؟ فقال : 'يوم الأربعاء'. فلمّا كان ذلك الوقت احتبست العير، وأشرفت قريش ينتظرون، ودنت الشّمس للغروب، فحبس الله الشمس ساعة، حتى قدمت العير، بعد أنْ دعا النبي صلى الله عليه وسلم ربّه أنْ يحبسها له. انظر حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار. الحضرمي : ص 139.

العلامات بعد الولادة وفي زمن الصّغر، وهو شقّ قلبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإخراج حظّ الشّيطان منه، كما تقدّم أنّ ذلك كان وهو في بني سعد.

وأمّا مناسبة ما بعد البيت الأوّل؛ فلأنّه إخبارٌ عن تسخير بعض العجماوات، وذلك الحمام والعنكبوت، وكأنّهما من الأشياء الّتي بين السّماء والأرض؛ لأنّ الطّير من الحمام وغيره مُسخّر في جوّ السّماء، ويلحق به العنكبوت، فإنّ غالب سكناه السّقف وما أشبهها من المرتفع عن الأرض، بل ربّما بقي متعلّقاً في الهواء ببعض خيوطه الّتي ينسج بها بيته، فهو شبيه بالطّائر.

ومعنى الأبيات؛ أنّه أخبر عن نفسه أنّه أنشأ الحِلف بالقمر الّذي انشقّ لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين دعا قريشاً إلى أنْ يريهم تلك الآية. وهو إمّا قَسَمٌ بالقمر على عادة الأدباء، وإمّا على تقدير مضاف؛ أيْ بربّ القمر، وجواب القَسَم؛ أعني ما حَلَف عليه، الأظهر أنْ يكون هو قوله بعدُ : "مَا سَامَنِي.." إلى آخر البيتين، وما بينهما جمل اعتراضية.

ويحتمل أنْ يكون الجواب قوله : "إنَّ لهُ"، والمعنى : أقسمتُ بالقمر المنشقّ لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنّ للقمر من قلب النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبةٌ، فإنّ شقّ قلب النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إكرامٌ له، كما أنّ شقّ القمر إكرامٌ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه هي النّسبة الّتي للقمر من قلب النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأيضاً فإنّ القلب إنّما شُقّ وغُسل لتتمكّن فيه معارف النّبوّة وصفاتها، ثمّ يظهر ذلك للنّاس بعدُ، فكذا القمر، إنّما شُقّ لتظهر النّبوّة، وتتقرّر للمكلّفين. وأيضاً فإنّ القمر نورٌ يتلألأ، وقلبه صَلَّى الله

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْوَرَ منه وأصفى، ولذلك قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«أَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِي كَمَا أَرَاكُمْ مِنْ أَمَامِي»**[1].

ولأجل أنّه أَنْوَر من القمر، جعل النّسبة للقمر من قلبه، ولم يجعل النّسبة لقلبه من القمر، فهذه وجوه من المناسبة. وأيضاً ورد أنّ القمر انشقّ مرّتين، وقلبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، على ما نُنبّه عليه - إنْ شاء الله تعالى - عند قوله : "لاَ تُنْكِرُ الوَحْيَ". وليست المناسبة بينهما الجمال والشّرف كما ظَنّ مَن خفي عليه ما أراد النّاظم بالنّسبة بينهما، حتّى اعترض بأنْ قال : «إنّ هذه النّسبة بين جماله والقمر، لا بينه وبين القلب، فكان اللاّئق أنْ يقول : "مِن حُسنه"».

وقوله : "مَبْرُورَة القَسَمِ"؛ قالوا : «إنّه نعت لـ "نسبة"؛ أيْ هذه النّسبة مبروة القَسَم المضاف إليها؛ أيْ إنْ أَقسَم على كينونة هذه النِّسبة وثبوتها بيمين، فيمينها مبرورة».

قلتُ : ولا يخفى ما فيه من التكلّف، لكن دعت إليه حاجة تصحيح الكلام، ولو رفع "مَبْرُورَة" على أنّه خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ يميني مَبرُورة القَسَم، لكان أقرب.

وقوله : "إنَّ لهُ"؛ إنْ لم يُجعل جوابَ القَسَم، فهو تعليل للقَسَم بالقمر المنشقّ؛ أيْ إنّما أقسمت به لِما حصل له من الشّرف، بسبب النّسبة الّتي بينه وبين قلب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما ذكرنا. والظّاهر أنّ قوله : "أَقسَمتُ" إنشاءٌ لا خبر.

---

(1) سبق تخريجه.

قوله : "ومَا حَوَى.." البيت؛ "ما" مخفوضة عُطف على "القمر"؛ أيْ وأَقْسَمتُ بما جمع الغار الّذي اختفى فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر رضي الله عنه حين هاجرا من مكّة إلى المدينة.

"مِنْ خِيرٍ ومِنْ كَرَم"؛ أيْ من كرم نفس ومن كرم جود، أو من خِير عام ومن كرم عام، والمراد ما حوى من صفات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفات أبي بكر رضي الله عنه. فـ "ما" واقعة على صفات مَن يعقل، وهو أحد مواضعها؛ نحو قوله تعالى : ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾[1]؛ أيْ الطَّيِّب. ويجوز أنْ يُراد بها ذاتهما؛ لأنّها قد تقع على العالم؛ ومنه قول العرب : "سُبحان مَا سخَّركنَّ لنا"، وهو ظاهر كلام سيبويه، فإنّه حين ذكر أنّ "مَن" تكون للأناسي، قال : «و"مَا" مثلها، إلاّ أنّ "ما" مبهمة؛ تقع على كلّ شيء»[2].

ويحتمل أنْ يكون كلٌّ من "الخِير" و "الكَرَم" كناية عن كلٍّ من أوصاف النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أوصاف أبي بكر رضي الله عنه.

ويحتمل أنْ يكون الأوّل للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنّ الِخير الّذي هو كرم النّفس يعمّ جميع الصّفات الحميدة، وكذا الخَير الّذي هو ضدّ الشرّ، والثّاني لأبي بكر رضي الله عنه؛ لأنّه خصّصه بالكرم، وهو أظهر في الجود، وإنّما وصفه بالكَرم؛ لأنّه آثر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه وماله كما تقدّم بعض ذلك، ومِن ذلك أنّهما لمّا أتيا إلى الغار، تقدّم أبو بكر في الدّخول مخافة أنْ يكون فيه ما يؤذي النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(1) سورة النساء : من الآية 3.

(2) انظر الكتاب. سيبويه : 228/4.

فيتلقّاه بنفسه، ومنه سدّ الكُوَى بثيابه حتّى بقيت الّتي سدّها برجله؛ لئلاّ يخرج منها ما يؤذيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا أمر لا يُجهل.

وقوله : "وكلّ"؛ الظّاهر أنّه مرفوع؛ أيْ الّذي حواه الغار، والحال أنّ كلّ طَرْف من الكفّار عن ذلك المحويّ عَمٍ؛ أيْ لا يُبصر ما فيه، مع قربهم منه، وهي من معجزاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي كلام بعضهم ما يقتضي أنّ لفظة "كلّ" مخفوضة، قال : «وأقسم بها، وإنْ كان طَرْف الكفّار أخسّ من ذلك؛ لِما تضمّن من المعجزة».

وقوله : "فالصِّدق"؛ أيْ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو إمّا على حذف مضاف؛ أيْ ذو الصّدق؛ الّذي لم ينطق قطُّ مدّة عمره إلاّ بالصّدق، وبذلك كان مشهورًا قبل النّبوّة -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبالأمانة، فلم يكونوا يسمّونه إلاّ الأمين، فكيف بعدها. ويحتمل أنْ يريد: أنّه نفس الصّدق مبالغةً، وتأييد الله إيّاه بمثل هذه المعجزات - الّتي لا نهاية لها - دليل صدقه.

وقوله : "في الغار"؛ أيْ هو في الغار المتقدّم الذّكر. و"الصدّيق"؛ أبو بكر - رضي الله عنه - معه فيه.

"لم يرِمَا"؛ أيْ لم يبرحَا منه؛ لئلاّ يُقال : إنّما عَمي عمّا في الغار كلّ طَرْف من الكفّار بعد خروجهما منه، بل ذلك كان وهُمَا في الغار المذكور، لم يبرحَا منه بعدُ.

"وَهُمْ يقولونَ"؛ أيْ وحالة الكفّار - حين نظرهم إليه، وهما فيه - قولهم : ما بالغار من "أَرِمٍ"؛ أيْ من أحد، وذلك لِما أعمى الله من أبصارهم، ولِما رأوا على باب الغار من الأمارات الّتي تُبعد كونهما فيه،

فإنّ الله - جلّت قدرته - أذن لشجرة فنبتت على فم الغار، ولحمام فجعل يحوم هناك، ولعنكبوت فنسجت على فم الغار نسجاً كثيفاً متراكماً، كما لا يكون مثله إلاّ مع طول الزّمان، حتّى قال قائلهم : إنّ نسج هذا العنكبوت لأقدم من ميلاد محمّد، وإلى هذا أشار النّاظم بقوله: "ظَنُّوا"؛ أيْ إنّما عَمُوا عمّا في الغار مع خَلْق الله ذلك فيهم، لأنّهم ظنّوا أنّ الحمام "لا تحوم"؛ أيْ لا تدور حول "خير البريّة"؛ وهو محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما ظنّوا وأنّ العنكبوت لا تنسج عليه؛ لِما جرت العادة أنّ هذين الحيوانَين متوحّشان، لا يألفان معمورًا، فمهما أحسَّا بالإنس فرَّا منه، وما علموا أنّ الله – تعالى - يسخّر ما يشاء مِن خَلْقه لمَن يشاء من عباده، وإنّ وقايته عبدَه بما يشاء - أيْ حفظه إيّاه بمثل ما ألقى من الظنّ في قلوب الكفّار، وبما أَعْمى من أبصارهم - تُغنِي عبده عن التّحصّن "بمضاعفة" من الدّروع، وهي الّتي نُسجت حلقَتَين حلقتَين كما تقدّم، وعن التّحصّن بالعالي من "الأُطُم"؛ أيْ الحصون، بل لا تُقاس وقاية الله بالتّحصّن بما ذُكر، فإنّ العدوّ قد يستعمل للتحصّن بالدّرع المذكورة من الآلات ما يفتحها، أو ما يَرُضُّ صاحبها معها، وكذا يتّخذ للحصون العالية ما يُدَكْدِكُها من المنجنيق ونحوه أو الحَفْر أو غير ذلك من الحيل، ليس لأحد في وقاية الله حيلة.

وفسّر بعضهم "المضاعفة من الدّروع"؛ بأنْ يلبس درعاً فوق أخرى. وليس هذا معناها لغة كما رأيتَ، وإنّما ما ذكره هو التّظاهر بين درعين.

وقوله : "مَا سَامَنِي"؛ أيْ أقسمتُ بما ذُكر ما أرادني الدّهر "بضَيْم"؛أيْ بظلم أو ذلّ، واستجرتُ بالنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك

الضَّيْم الّذي أرادني به الدّهر، إلاّ ونِلت من النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِوارًا؛ لم يُضَم ذلك الجوار قطّ فيما مضى، أو مَن نال ذلك الجوار.

وقوله : "ولا الْتَمَسْتُ"؛ عطفاً على "ما"، فهو ممّا حَلَف عليه؛ أيْ ولا طلبتُ غنى الدّارين؛ الدّنيا والآخرة، مِن يد النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلاّ صافحتُ الكرم مِن خَير مُصافَح، ومَن صافح نفس الكرم مِن خَير مصافَح، لا ينقلب إلاّ بما يُرضيه من خِير الدّنيا والآخرة.

وفي قوله : "مَا سَامَنِي الدَّهرُ ضيماً" إشكال، فإنّ ما يُنسب للدّهر، إنّما فاعله هو الله تعالى، فكيف تصحّ نسبة الظُّلم إليه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]. فإنّ الظّلم : وضع الشّيء في غير محلّه، وفعل ما ليس للفاعل أنْ يفعله، والعالم كلّه مِلْك لله تعالى، فهو سبحانه وتعالى متصرّف في مُلكه : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2]. فلا بدّ من تأويل كلام النّاظم؛ فإمّا أنْ يكون على حذف مضاف؛ أيْ ما سَامَنِي أهل الدّهر؛ الّذين يصحّ منهم الظّلم. أو يُقال : إنّه جرى على عادة أهل الأدب، ومَهْيَع كلام العرب.

واستعمل النّاظم الالتماس هنا في الطّلب الّذي هو بمعنى السّؤال، ويلازمه الخضوع، والمنطقيُّون إنّما يطلقون الالتماس على طلب المساوي من مساويه، ويسمّون الطّلب مع الخضوع سؤالا[3].

---

(1) سورة فصلت : من الآية 46.

(2) سورة الأنبياء : الآية 23.

(3) انظر البحر المحيط. الزركشي : 264/3.

فإنْ قلتَ : : إخباره عن نَيل ما الْتَمَس من النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن غنى الدّنيا بيّنٌ مُشاهدٌ بالحسّ، فكيف تصحيح إخباره عن نَيْل غِنَى الآخرة؟

قلتُ : ذلك أيضاً مُشاهد بقوّة يقين الإيمان بمنزلته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عند ربّه، ومن قوّة يقين النّاظم، أنّه لم يقتصر على الإخبار بنَيل مطلق الإكرام، بل أخبر عن غايته، وهو غنى الدّنيا والآخرة.

وقوله : "مِن يده"؛ أيْ منه، وأطلق اليد، وأراد جملة الذّات الكريمة؛ لأنّ باليد يكون تناول ما يُعطى، فكأنّ جملته يدٌ تعطي، وهو كَتَسمية الرّبيئَة[1] عَيْنًا.

---

(1) الرَّبيئة : هو الذي يرقب القوم.

ذِكْرُ بَعْضِ الأَخْبَارِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ

[انشقاق القمر]

أمّا انشقاق القمر، فيكفيك من صحّته إخبار الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العزيز بقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[1]. ووردت به الأخبار الصّحيحة؛ منها :

ما روي عن أنس وابن عبّاس رضي الله عنهما وغيرهما أنّ أهل مكّة سألوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية، فأراهم انشقاق القمر مرّتين[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنىً إذ انشقّ القمر فرقتين، فكانت فرقة وراء الجبل، وفرقة دونه، فقال لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اشْهَدُوا»[3].

---

(1) سورة القمر : الآية 1.

(2) روى ذلك البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. انظر صحيح البخاري. في المناقب. بَاب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ. صحيح مسلم في صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ. بَاب انْشِقَاقِ الْقَمَرِ. كما رواه البخاري عن ابن عباس. انظر صحيح البخاري في تفسير القرآن. باب ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾.

(3) رواه البخاري في تفسير القرآن. باب ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾..

وفي بعض الرّوايات، فقال كفّار قريش : هذا سحرٌ، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتّى تنظروا أرأوا مثل هذا أم لا. فأخبر أهل الآفاق أنّهم رأوه منشقًّا، فقال كفّار قريش : هذا سحر مستمر[1].

وفي رواية : قالوا : إنْ كان محمّد سحر القمر، فإنّه لا يبلغ من سحره أنْ يسحر الأرض كلّها، فاسألوا مَن يأتيكم من بلد آخر، فأتوا فسألوهم، فأخبروهم أنّهم رأوا مثل ذلك، فعند ذلك قالوا : هذا سحرٌ مستمرٌ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ .. ﴾ الآية[2].[3]

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 282/1.

(2) سورة القمر : الآية 1. ويقصد الآيتين، وهما بتمامهما : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 281/1.

[شقّ قلب النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وأمّا خبر شقّ قلبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتقدّم في شرحنا لقوله : "أَبَانَ مَوْلِدُهُ..". وروى ابن إسحق عن ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ[1]، عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ : أَنّ نَفَرًا مِنْ الصّحابة رضوان الله عليهم : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِك؟ قَالَ : «نَعَمْ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمّي حِين حَمَلَتْ بِي، أَنّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ؛ أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ الشّامِ، وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَبَيْنَا أَنَا مَعَ أَخٍ لِي خَلْفَ بُيُوتِنَا نَرْعَى بَهْمًا، إذْ أَتَانِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثَلْجًا، فَأَخَذَانِي فَشَقّا بَطْنِي، ثُمّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقّاهُ فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا، ثُمّ غَسَلَا قَلْبِي وَبَطْنِي بِذَلِكَ الثّلْجِ حَتّى أَنْقَيَاهُ، ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمّتِهِ. فَوَزَنَنِي بعشرة، فَوَزَنْتهمْ، ثُمّ قَالَ : زِنْهُ بِمِائَةٍ مِنْ أُمّتِهِ. فَوَزَنَنِي بِهِمْ، فَوَزَنْتهمْ، ثُمّ قَالَ : زِنْهِ بِأَلْفِ مِنْ أُمّتِهِ. فَوَزَنَنِي بِهِمْ، فَوَزَنْتهمْ. فَقَالَ : دَعْهُ عَنْك، فلَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمّتِهِ، لَوَزَنَهَا[2]. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلّما ذكره الذّاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

ويحتمل أنْ يشير إلى شقّ قلبه ليلة الإسراء على ما في صحيح البخاري كما ستراه إن شاء الله تعالى عند قوله : "لاَ تُنْكِرِ الوَحْيَ". وهذا هو الأظهر.

---

(1) هو ثور بن يزيد الكلاعي، أبو خالد (.. – 153هـ = .. – 770م). من رجال الحديث، ويعد في الثقات. كان محدث حمص. وكان قدريًا، فأخزجه أهل حمص لذلك من بلدهم، سَحْبًا، وأحرقوا داره، فانتقل إلى المدينة. وتوفي في بيت المقدس. انظر الأعلام. الزركلي : 102/2.

(2) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 166/1.

[خبر الغار]

وأمّا خبر الغار، فأخرجه البخاري وغيره من أهل الصّحيح من حديث عائشة - رضي الله عنها - في حديث الهجرة بطوله، واللّفظ لغير البخاري، قالت : كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ؛ إمّا بُكْرَةً أو عَشِيَّةً، حَتّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أَذِنَ الله – سُبْحَانه - فِيهِ لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْهِجْرَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، أَتَانَا بِالْهَاجِرَةِ فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا. قَالَتْ : فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَذِهِ السّاعَةَ إلّا لِأَمْرٍ حَدَثَ. فَلَمّا دَخَلَ، تَأَخّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ عليه رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إلّا أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَخْرِجْ عَنّي مَنْ عِنْدَك**». فَقَالَ : يَا نبيّ اللهِ، إنّمَا هُمَا ابْنَتَايَ وَمَا ذَاكَ؟ فِدَاك أَبِي وَأُمّي، فَقَالَ : «**إنّ الله أَذِنَ لِي بِالْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ**». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ : «**الصّحْبَةَ**». قَالَتْ : فَوَاَللهِ، مَا شَعَرْت قَطّ قَبْلَ ذَلِكَ أَنّ أَحَدًا يَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ، حَتّى رَأَيْت أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ، ثُمّ قَالَ : يَا نَبِيّ اللهِ، إنّ هَاتَيْنِ رَاحِلَتَانِ، قَدْ كُنْت أَعْدَدْتهمَا لِهَذَا، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا ذَا مَالٍ، فَكَانَ حِينَ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْهِجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ : «**لَا تَعْجَلْ، لَعَلّ اللهَ يجعل لَك صَاحِبًا**». قَدْ طَمِعَ بِأَنّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنّمَا يَعْنِي نَفْسَهُ، فَابْتَاعَ رَاحِلَتَيْنِ، فَاحْتَبَسَهُمَا فِي دَارِهِ، يَعْلِفُهُمَا

إعْدَادًا لِذَلِكَ اليوم. وَاسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللهِ بْنَ أَرْقَطَ يَدُلُّهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، فَكَانَتَا عِنْدَهُ يَرْعَاهُمَا لِمِيعَادِهِمَا[1].

فَلَمّا أَجْمَعَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْخُرُوجَ، أَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَخَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ لِأَبِي بَكْرٍ فِي ظَهْرِ بَيْتِهِ.. ليلاً إِلَى الْغَارِ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ قَبْلَه، فَلَمَسَ الْغَارَ، أَفِيهِ سَبُعٌ أَمْ حَيَّةٌ يَقِي رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنَفْسِهِ[2].

ولمّا فقدت قريش رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة إثْره في كلّ وجه، فوجد الّذي ذهب قِبل ثور أثره هنالك، فلم يزل يتبعه حتّى انقطع له لمّا انتهى إلى ثور، وشقّ على قريش خروجه، وجزعوا لذلك، وطَفِقُوا يطلبونه بأنفسهم فيما قَرُبَ، وأرسلوا مَن يطلبه فيما بَعُدَ، وجعلوا مائة ناقة لمن ردّه عليهم.

ولمّا كان ليلة بات النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الغار، أمر الله — سبحانه - شجرة، فنبتت في وجه الغار، [وأَمَرَ الْعَنْكَبُوتَ فَنَسَجَتْ عَلَى وَجْهِ الْغَارِ][3]، وأمر حَمَامَتَيْنِ وَحْشِيَّتَيْنِ، فوقفتا على فم الغار، وأتى المشركون من كلّ بطن، حتّى إذا كانوا من النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على قدر أربعين ذراعاً، معهم قُسيّهم وعصيهم، تقدّم رجل منهم فنظر، فرأى حمامتَين على فم

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 181/4. وانظر صحيح البخاري في مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ. بَابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 182/4.

(3) العبارة مابين المعقوفتين ساقطة من جميع النسخ، ويظهر أنّها أيضاً ساقطة من المصدر الذي نقل منه الإمام ابن مرزوق النص بسبب انتقال البصر بين لفظتي "الغار"، وأضفتها من مصادر القصة، لأنّ سياق الكلام يستدعيها.

الغار، فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء، رأيتُ حمامتَين على فم الغار، فعرفتُ أنْ ليس فيه أحد. وقال رجل آخر : ادخلوا الغار. فقال أميّة بن خلف : وما إربكم إلى الغار، إنّ فيه لعنكبوتًا أقدم من ميلاد محمّد[1]. وعن أنس أنّ أبا بكر قال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لو أنّ أحدًا نظر إلى قدمه لرآنا. فقال له النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ، اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[2]. واختُلف في مَكْث النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبي بكر في الغار، فرُوي عن مجاهد[3] ثلاثاً، وهو الصّحيح، قاله أبو عمر بن عبد البرّ[4].

قلتُ : وكذا هو في صحيح البخاري من حديث عائشة في حديث الهجرة الطّويل؛ أنّهما مكثا فيه ثلاثاً، وأتاهما عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ براحِلتَيهما صبح ثالثة[5]. قال الحافظ أبو عمر : «وفي حديث مرسل أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : "**مَكَثْتُ مَعَ صَاحِبِي فِي الغَارِ بِضْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ ثَمَرَ البَرِيَّةِ**". يعني الأراك. وهو غير صحيح عند أهل العلم بالحديث. والأكثر على ما قاله مجاهد»[6].

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 181/4 وما بعدها.

(2) سبق تخريجه.

(3) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم (21 - 104هـ = 642 - 722م). تابعي، مفسر من أهل مكة. شيخ القراء والمفسرين. انظر الأعلام. الزركلي : 278/5.

(4) انظر الاستيعاب. ابن عبد البر : 985/3.

(5) انظر صحيح البخاري في مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ. بَابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ إِلَى المَدِينَةِ.

(6) انظر الاستيعاب. ابن عبد البر : 985/3.

إنّما أنشأ القسم بلفظ الماضي لا المضارع إشارة إلى تحقيق وقوع هذا الأمر، وأنّ اعتقاده مطويّ عليه منذ عقل، وأيضاً الأكثر في ألفاظ الخبر المنقولة للإنشاء هي صيغ الماضي.

و «أل» في "القمر" للعهد؛ باعتبار حاله الّتي وُصف بها.

وجملة "إنّ له.."؛ إنْ لم تُجعل جوابَ قَسَم، فهي استئنافيّة؛ لأنّها جواب سؤال عن سبب الحكم الخاص، كأنّه قيل : لِم استحقّ القمر المنشقّ أنْ تُقسِم به؟ وقدّم "مِنْ قَلْبِه" على "نِسْبة" للاهتمام به، وإضافته للتّشريف. وتنكير "نِسبة" للنّوعية أو للتّعظيم. وتحتمل جملة "إنّ له.." أنْ تكون تذييلاً من الضّرب الّذي لم يخرج مخرج المثل؛ لعدم استقلالها بإفادة المراد، وتوقّفها على ما قبلها؛ نحو : ﴿ وَهَلْ نُجَزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[1]، إنْ قلنا : وهل يُجازَى ذلك الجزاء.

والتّعبير بالموصول في قوله : "ومَا حَوَى" للتّفخيم والتّعظيم؛ لما وقعت عليه "ما" من الصّفتين أو الذّاتين، وللتوصّل إلى أنْ يشتمل البيت على الإيضاح؛ وهو "مِنْ خِيرٍ ومِنْ كَرَم" بعد الإبهام بـ "ما".

و «أل» في "الغار" للعهد؛ أيْ الّذي بجبل ثور، وكذا هي في "الكفّار"؛ أيْ الّذين طلبوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتنكير "خِير" و"كرم" للتّكثير والتّعظيم. وقدّم "عنه" على "عمٍ" للحصر؛ أيْ لم يَعْمُ طَرْفهم إلاّ عن رؤيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنّ ذلك معجزة له، وإلاّ فهم أصحّاء

---

(1) سورة سبأ : من الآية 17.

البصر، ولو قدّم "عمٍ" لتوهّم أوّلاً - قبل ورود "عنه" - أنّ ذلك شأنهم، فلا يُعلم من أوّل الأمر أنّه معجزة. والمراد بـ "كلّ" هنا الإفرادي؛ أيْ كلّ واحد واحد. ولمّا قصد وصفَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصفَ أبي بكر رضي الله عنه بصفة الصّدق، جعلَ رسولَ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نفسَ الصّدق، فكان كالأصل والمنبع، وأثبت لأبي بكر الصّفة، الّتي تقتضي أنّه أخذ من ذلك الأصل الحظّ الأوفر؛ لأنّ "فِعّيلا" للمبالغة كما تقدّم. وفي الكلام إيجاز؛ أيْ والصّدق فيه؛ حُذف من الآخر لدلالة الأوّل.

وإنّما خصّ إضافة الكينونة في الغار بالصّريح إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنّه مطلوب الكفّار بالذّات، فأخبر بما هو أغبط لهم، لو مُثّلوا سامعين لهذه الأخبار. وإنّما خصّه بوصف الصّدق في هذا المقام؛ لأنّهم نسبوه للكذب، فكأنّه يقول : لو كان كما اعتقدتم، لسلّطكم عليه. ثمّ هذا البيت بكماله احتراس للأوّل، إذْ لو لا هو، لتُوهّم أنّ عَمَاهم عن الغار قبل دخولهما فيه، أو بعد خروجهما منه، فرفع ذلك بقوله : "فالصّدق.." البيت. كما أنّ قوله : "لم يرِمَا" احتراس للجملة الّتي قبله؛ لاحتمال أنْ يُتوهّم: فالصّدق والصدّيق قد اختفيا فيه، وذلك لا يُشعر بأنّهما لم يبرحَا بعدُ، أو يحتمل كائنان فيه فيما مضى، أو فيما يُستقبل، فليس الشّطر الأوّل أو وقوله : "لم يرِمَا" بحشو كما ظُنّ.

وقدّم المسند إليه في قوله : "وهم يقولون" إفادةً لتقوّي الحُكْم عليهم بتلك المقالة، وكذا إتيانهم بـ "أَرِم"؛ الّذي لا يُستعمل إلاّ في النّفي لعموم مَن يعقل، مع زيادة "مِن" الّتي هي لتوكيد العموم في هذا المقام؛

قصدًا بذلك كلّه لتحقيق الخبر عندهم؛ بأنّ ما بالغار من أحد، حتّى إنّ اعتقادهم تحقيق ذلك لم يحتاجوا معه إلى دخوله صرفاً من الله إيّاهم عنه.

وجعل بعضهم الشّطر الأوّل من قوله : "فالصّدق.." البيت من التّذييل، والثّاني من التّتميم. فتأمّله.

وإنّما أوقع الظّاهر موقع المُضمر في قوله : "في الغار" و"بالغار" قصدًا؛ لِما قصد من تأكيد الخبر بهذه المعجزة، ورفعاً للإبهام، فلو قال أوّلا : فالصّدق فيه، لتُوهّم أنْ يريد: فالصّدق في أخباره، أو نحو هذا، ولو قال ثانياً : ما به، لتُوهّم: ما بهذا المكان، والقصد إنّما هو الغار.

و «أل» في "الحمام" و"العنكبوت" تحتمل الجنس والعهد، إلاّ أنّ قوله : "لَمْ تَنْسُجْ ولمْ تَحُم" يقوّي العهد، ولو أراد الجنس لأتى بلا النّافية فيهما، إلاّ أنّه لا يُتوصّل بها إلى جزم القافية.

وأمّا "الظنّ"؛ فالأظهر أنّه هنا على بابه، ويحتمل اليقين. وجملة "ظنّوا.." استئنافيّة؛ لأنّها تعليل لمقالتهم.

وقوله : "على خيْرِ البَرِيَّة" فيه نوع من التّتميم؛ لأنّه أتى به في إضعاف كلامه؛ لتنبيههم على خطأهم في تبعيد ما ظنّوه؛ أيْ أنّ مَن هو عند الله خير الخَلْق، لا يُستبعد في حقّه تسخير الله المخلوقات له، ولذا كرّر "وظنّوا"؛ تنبيهاً على أنّ كلّ نوع منها مُسخَّر لِما يليق به، فليس بحشو كما ظُنّ.

وفائدة إيقاع الظّاهر موقع المُضمر في قوله : "خيْرِ البَرِيَّة" المدح بهذا الوصف أوّلاً، والإشارة إلى ما ذكرناه ثانياً. وأيضاً لو قال : عليه،

لتُوهّم عَوْده على "الغار"، وهم لم يظنّوا ذلك، وعَوْده على "الصّدّيق" - وهذا كلّه مع تأتّي الوزن - بالظّاهر.

وقوله : "ولم تَحُم"؛ أيْ عليه، فهو من إيجاز الحذف من الآخر لدلالة الأوّل. وإضافة "وقاية" للاختصاص والتّعظيم.

وحَذْف مفعول "أَغْنَت" من الإيجاز؛ أيْ أغنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر رضي الله عنه، ويحتمل أنْ يكون حَذْفه لإيهام العموم؛ أيْ أَغْنَت كلّ مَن نالها.

وتنكير "مضاعفة" و"عال" للنّوعية. و"مِن الدّروع" إيضاح لإبهام "مضاعفة"، وكذا "من الأُطُم" لـ "عالٍ".

و «أل» في "الدّهر"؛ إمّا للجنس أو للعهد؛ أيْ دهره. وتنكير "ضَيْماً"؛ الأظهر فيه التّعظيم، ويحتمل التّقليل. وفي البيت إيجاز الحَذف؛ أيْ أهل الدّهر، واستجرتُ به منه في كلّ حال. وتنكير "جِوار" للنّوعيّة. و«أل» في "الدّارين" للعهد، وفي "النّدى" للجنس. و"النّدى" هو الّذي أراد بقوله : "غِنَى" الظّاهر، فهو من إيقاع الظّاهر موقع المُضمر؛ أيْ إلاّ وقد نِلته، وفائدته تعظيم ما نال، حتّى أنّه نفس الكرم والجود. والقصران في هذا البيت؛ إمّا قصر إفرادي أو قلب؛ أمرهما محتمل.

في البيتين الأوّلَين مجاز الحَذف؛ أيْ بربّ القمر في وجه، ومِن ذوي خِير وكَرم، أو يكون جَعل الذّاتَين نفس الصّفتين؛ من باب تسمية الشّيء باسم ما يلازمه، ومنه : جَرَى المِيزَابُ. وإسناد "عمٍ" إلى ضمير "الطّرف" مجاز؛ إذ العَمَى حقيقة صاحبه، ثمّ إطلاق العَمَى عليه من مجاز التّشبيه؛ إذ الأصل كعَمَى؛ لأنّه لمّا لم يدرك كأنّه أَعْمَى؛ مثل : ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ﴾[1]. فهو من التّشبيه البليغ لا الاستعارة. والمجاز في قوله: "فالصّدق"، مثله في قوله : "من خِير".

وقوله : "على خَير البريّة" من مجاز الحذف؛ أيْ غار خَير، أو مكان خَير.. لأنّها لم تباشره بذلك، أو تكون "على" للسّببيّة، فيكون المنسوج عليه هو الغار. وقوله : "وقاية الله"؛ يحتمل أنْ يكون أطلق الوقاية، وأراد بها أسبابها، كحَوْم الحمام ونَسْج العنكبوت، فيكون من إطلاق المسبَّب على السّبب. وقوله : "مَا سَامَنِي"؛ يحتمل الاستعارة بالكناية؛ بأنْ يُشبَّه الدّهر - بسبب ما أصابه فيه - بظالم لم يَذكره، وذكر من لوازمه السَّوم والضّيم. ونَفْي "الضَّيْم" عن "الجوار" من مجاز الحذف؛ أيْ لم يُضَم صاحبه. وتَسمية الذّات يدًا من باب تسمية الشّيء باسم بعضه. قيل : وأطلق الاسْتِلام - وهو في الأصل تقبيل اليد والتّضرّع - على الظّفر بالجود؛ لأنّه مسبّب عن الاستلام، فهو من باب إطلاق السّبب، وإرادة المسبّب.

---

(1) سورة البقرة : من الآية 18.

في البيت الأوّل القَسَم.

[حقيقة القَسَم]

وهو : «أَنْ يُحْلَفَ بِمَا فِيهِ مَدْحٌ أَوْ فَخْرٌ أَوْ تَعْظِيمٌ أَوْ تَغَزُّلٌ أَوْ زُهْدٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِك»[1]. والّذي هنا من المدح؛ لأنّه أقسم بما فيه مدحٌ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

آثارُ جودِكَ في القلوب[2] تُؤَثِّرُ ... وجميلُ بِشْرِكَ بالنَّجاح يُبَشِّرُ
إن كانَ لي أملٌ سِواكَ أَعُدُّهُ ... فكفَرْتُ نعمتك الّتي لا تُكفَرُ[3]

فضمّن القَسَم ما يزيد الممدوح مدحًا. ومن الفخر قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾[4]، ومنه قول الأشتر النّخعيّ[5] :

بَقَّيْتُ وَفْرِي وانْحَرَفْتُ عن العُلا ... ولَقِيتُ أَضْيافِي بوَجْهِ عَبُوسِ
إِنْ لَمْ أَشُنَّ على ابْنِ هندٍ غارَةً ... لَمْ تَخْلُ يوماً مِن ذهابِ نُفُوسِ

---

(1) انظر تعريف القسم في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 150/7.

(2) ويروى "الخطوب" بدل "القلوب".

(3) البيتان من قول السري الرفاء. انظر الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. المؤيد بالله : 86/3.

(4) سورة الذاريات : من الآية 23.

(5) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي، المعروف بالأشتر (.. - 37هـ = .. - 657م). أمير، من كبار الشجعان. كان رئيس قومه. أدرك الجاهلية. وأول ما عرف عنه أنه حضر خطبة "عمر" في الجابية. وسكن الكوفة. وكان له نسل فيها. وشهد اليرموك وذهبت عينه فيها. انظر الأعلام. الزركلي : 259/5. والبيتان سبق توثيقهما

ويُروى : نِهاب[1].

ومن أحسنه قول أبي عليّ البصير[2] يعرّض بعليّ بن الجهم[3] :

كذَبْتُ[4] أَحْسَنَ ما يَظُنُّ مُؤَمِّلِي وهَدَمْتُ ما شادَتْهُ لِي أَسْلافِي
وعَـدِمْتُ عـاداتِي الّتـي عُوِّدْتُهـا قِدْماً مِن الإِخْلافِ والإِتْلافِ
وغَضَضْتُ مِن نارِي لِيَخْفَى ضَوْؤُها وقَرَيْـتُ عُـذْراً كاذِباً أَضْـيافِي
إِنْ لَـمْ أَشُـنَّ علـى عَلـيّ حُلَّـةً تبقى قَذىً في أَعْيُنِ الأَشْرافِ

ولفظ "القمر" و"المنشقّ" و"القلب" و"النّسبة" من مراعاة النّظير. وفيه التّلميح إلى قصّتَي انشقاق القمر وقلبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقوله: "إنّ له.." إلى آخره من حسن التّعليل في وجه، أو المذهب الكلامي. وفيه ردّ الصّدور على الأعجاز في "أَقْسمتُ" و"القَسَم"، وهما أيضاً من تجنيس الاشتقاق، وجعلهما بعضُهم من التّكرير. وفيه الإرصاد، وفيه الاستطراد؛

---

(1) وهي الرواية الأكثر شيوعاً.

(2) هو الفضل بن جعفر بن الفضل، أبو علي النخعي (.. - 255هـ = .. - 869م). ضرير، من الكتاب البلغاء المترسلين الظرفاء. نشأ بالكوفة. ثم سكن بغداد أول خلافة المعتصم، ومدحه، ومدح المتوكل والفتح ابن خاقان وبعض القواد. انظر الأعلام. الزركلي : 147/5.
وانظر الأبيات في الحماسة البصرية. أبو الحسن البصري : 71/1.

(3) هو علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن (.. - 249هـ = .. - 863م). شاعر، رقيق الشعر، أديب، من أهل بغداد كان معاصرا لابي تمام، وخص بالمتوكل العباسي. انظر الأعلام. الزركلي : 270/4.

(4) المحفوظ : "أكذبت" بدل "كذبت".

[حقيقة الاستطراد]

وهو : «أَنْ يُذْكَرَ مَعْنًى لاَ لِذَاتِهِ، بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى وَصْفِهِ»(1).

كذكر القمر، كذا قيل. وفيه نظر. وتقدّم حدّ الاستطراد(2).

ومثل هذا الاستطراد في البيت الثّاني في ذكر "الغار"، وفي ذكر "كلّ طَرْف"، على رأي بعضهم أنّه مخفوض. وفي الثّاني وما بعده إلى قوله : "من الأُطُم" استطرادٌ، والتّلميح إلى قصّة الغار، وإعماء أعين الكفّار. ومراعاة النّظير في "الِخير" و"الكرم" و"الطَّرْف" و"العمى". وفيه التّسهيم لفهم "عَمِ" من "الطّرْف"، وقرب الموازنة في "من خِير" و"من كرم". وشبه الطّباق في وجودهما وخفائهما.

قيل : «وفي البيتين إدماجٌ لِما تضمّنا من ذكر المعجزتين، وليستا بمقصودَتَي الذّكر». وفيه نظر.

وفي الثّالث تجنيس الاشتقاق في "الصّدق" و"الصدّيق"، والشّبيه به في "يرِما" و"أَرِم". قيل : والجمع؛ لجمع "الصّدق" و"الصدّيق"؛ في كونهما في الغار. وفيه تكرير لفظ "الغار" لِما تقدّم من الفائدة في المعاني. وفيه التّقسيم؛ لإضافة الكينونة لهما، والقول للكفّار. وفيه اللفّ والنّشر المرتّب كما تقدّمت الإشارة إليه في التّفسير؛ لاحتمال رجوع "الصّدق" إلى "خِير"، و"الصدّيق" إلى "كرم". وفيه إمّا الإرصاد وإمّا التّخيير، وهو الأظهر؛ لصحّة وقوع "عَلَم" موقع "أَرِم"، ويترجّح ذكر "أَرِم"؛

---

(1) انظر تعريف الاستطراد في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 119/7.

(2) أقول: لعلها هفوة من ابن مرزوق رحمه الله، فلم يتقدم حدّ الاستطراد، وإنما تقدم أول ذكره فقط في شرح قول الناظم: عَموْا وَصَمُّوا فَإِعْلاَنُ البَشَائِرِ لَمْ..

لأنّه مطلوبهم، ويترجّح ذكر "عَلَم"؛ لأنّه إذا انتفى عَلَم الكينونة، انتفت هي من باب أحرى. وانظر هل يكون البيت الرّابع من التّلميح، أو هو من التّصريح. وفيه لفّ ونشر معكوس؛ لرجوع "تنسج" إلى "العنكبوت"، و"تحُم" إلى "الحَمَام"، ويحتمل رجوع كلّ من الوصفين معاً إلى كلّ من الحيوانين معاً؛ بأنْ يُجعل النّسج في حقّ الحمام عبارة عن بناء عشّه، وأمّا الحَوم في حقّ العنكبوت فظاهر. وفيه قرب الموازنة في "لم تنسج" و"لم تحُم".

وفي الخامس مراعاة النّظير في لفظ "الوقاية" و"المضاعفة" و"الدّروع" و"الأُطُم" و"العالي".

وفي السّادس تجنيس الاشتقاق في "ضَيْم" و"يُضَم"، وفي "استجرتُ" و"جوارًا". ومراعاة النّظير في ألفاظ "الدّهر" و"الضَيْم" و"الاستجارة" و"الجوار". وفي لفظتَيْ "ما سام" قلب الكلّ.

قيل : «وفيه العكس والتّبديل؛ لأنّه قدّم ذكر "الضَّيْم" على "الاستجارة" في الشّطر الأوّل، وعكس في الثّاني؛ لتقديمه لفظ "الجوار" على "الضَّيْم"».

قلتُ : وممّا تقدّم[1] في حدّ هذا اللّقب، تعلم أنّ هذا ليس منه.

وفي السّابع قلب البعض في "الْتَمَست" و"اسْتَلَمت"، ولا يبعد أنْ يكونا من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، بل أقرب؛ لقُرب معنى الكلمتَين. وتجنيس الاشتقاق في "استَلَمت" و"مُستَلَم"، وهما من ردّ الصّدور على

(1) وهو في شرح قول الناظم: لَوْلاَ الهَوَى لَم تُرِقْ دَمْعًا عَلى طَلِلِ..

الأعجاز؛ لأنّ ما بعد "إلاّ" في حُكم المُصدَّر، فكأنّ "استَلَمت" وقع أوّل المصراع الثّاني، فهو في الحُكم كقول الحماسي[1] :

وإنْ لَم يَكُن إلاّ مُعَرَّجُ سَاعةٍ قَلِـيلاً فـإنّي نَـافعٌ لِـي قليلُهـا

وفي البيتين براعة المطلب، استخرجه عزّ الدّين الزّنجانيّ[2] في كتاب "**المعيار**"[3].

---

(1) هو ذو الرّمّة. انظر البيت في الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. المؤيد بالله : 208/2.

(2) هو عبد الْوَهَّاب بن إِبْرَاهِيم بن عبد الْوَهَّاب عز الدين، ابْن أبي الْمَعَالِي الخزرجي الزنجاني. صَاحب شرح الْهَادِي الْمَشْهُور. قال السيوطي : وقفت عَلَيْهِ بِخَطِّهِ، وَذكر فِي آخِره أَنه فرغ مِنْهُ بِبَغْدَاد فِي الْعشْرين من ذِي الْحجَّة سنة أَربع وَخمسين وسِتمائَة. وَله التصريف الْمَشْهُور بتصريف الْعُزّى، ومؤلفات فِي الْعرُوض والقوافي. انظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. السيوطي : 122/2.

(3) هو معيار النظار في علوم الأشعار. طبع منه الجزء الأول الخاص بعلمَي العروض والقوافي بتحقيق محمد علي رزق الخفاجي. صدر عن دار المعارف بمصر سنة 1991م.

[حقيقة براعة المطلب]

وهو : «أَنْ يُلَوِّحَ بِالطَّلَبِ بِأَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الإِلْحَاحِ، مُقْتَرِنَةً بِتَعْظِيمِ المَمْدُوحِ، تُشْعِرُ بِمَا فِي النَّفْسِ دُونَ كَشْفِهِ»[1].

وقيود هذا الحدّ كلّها موجودة في بيتَيْ النّاظم الأخيرَين، وكأنّه أشار إلى ما قصد في هذا القصيد من التّوسّل بها إلى النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في أنْ يشفع فيه لربّنا جلّ وعلا علوًا كبيرًا، حتّى يُشفيه من مرضه المزمن؛ الّذي أعيى الأطبّاء، فأدرك ببركة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أمله، وأنجح الله تعالى - لعلمه بصدقه - قصدَه.

قالوا : «ومن أمثلة هذا اللّقب قول المتنبّي[2] :

وَفي النّفسِ حَاجَاتٌ وَفيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتي بَيَانٌ عِنْدَها وَخِطابُ»

قلتُ : وفيه نظر، فإنّه إلى التّصريح والإلحاح أقرب، بخلاف بيتَيْ النّاظم.

---

(1) انظر الكليات. أبو البقاء الكفومي : ص 364.

(2) انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 135/7.

اَلْإِعْرَابُ

جملة "أقسمتُ.." : إنشائية، هي نفس اليمين. وبالقمر : يتعلّق بفعلها. وكثيرًا ما يُحذف فعل القَسَم مع المحلوف به.

ونسبةً : اسم "إنّ". وله : خبرها. ومن قلبه : يتعلّق بمتعلّق الخبر.

ومبرورة القَسَم : تقدّم أنّهم جعلوه صفة لـ "نسبة"، ولا اكتراث بإضافتها؛ لأنّها لا تُعرّف ، وتقدّم جواز رفعها على أنّها خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ يميني. وأظهر الوجوه جَعْلها صفة لموصوف محذوف، وعامله "أَقسمتُ"؛ أيْ يميناً مبرورة، وحُذف الموصوف للعِلم به؛ لأنّ صفته مختصّة به.

ويحتمل أنْ يكون "من قلبه" حالاً من "نسبة"؛ من نعت النّكرة المنتصب حالاً لتقدّمه. وتقدّم الكلام في جملة "إنّ له..".

وما حوى : تقدّم أنّ "ما" مخفوضة؛ عطف على "القمر"، وهي موصوله؛ صلتها "حوى"، وعائدها محذوف؛ أيْ حواه، وهذا على أنّ الجواب "ما سَامَنِي.."، وعلى أنّ الجواب "إنّ له.."؛ تكون "ما" مبتدأ استفهاميّة، والمراد بالاستفهام التّعظيم، "وحوى" خبر.

ومن خِير ومن كرم : على الوجهين يتعلّقان بـ "حوى"، و"مِن" للبيان، والمبيّن "ما"، أو العائد عليها. وأجاز بعضهم كون "مِن" للتّبعيض.

و"كلّ" : مبتدأ.

ومن الكفّار : نعت لـ "طَرْف".

وعميْ : خبر. وسُكّنت الياء ضرورة. وعنه : متعلّق به. وضمير "عنه" : عائد على "ما".

وجملة "كلّ.." : حال من عائدها على الأظهر، أو من "ما" إنْ كانت مخفوضة، والعائد - وإنْ حُذف - في حُكم الموجود.

فالصّدق : مبتدأ، خبره "في الغار".

والصّدّيق : مبتدأ، خبره محذوف؛ أيْ في الغار، أو كذلك، أو معه أو نحو ذلك.

وقال شيخنا أبو العبّاس : «أو "الصدّيق" معطوف على المبتدأ، و"في الغار" خبر لهما معًا».

قلتُ : ليتأمّل[1].

ولم يرِمَا : إنْ صحّ أنّ "في الغار" خبر للمبتدأين، فهي جملة في موضع الحال من الضّمير المستكنّ في الخبر؛ أيْ كائنان فيه، وهي حال مؤكّدة؛ لأنّها مفهومة من الخبر، والعامل في الحال متعلّق الخبر، وأمّا إنْ كان لكلٍّ خبرٌ، فيقلق جعلها حالاً من ضميرَيهما؛ لأنّهما جملتَين، فيتعدّد العامل. اللّهمّ إلاّ أنْ يكون حالاً من ضمير أحدهما، وحُذف مثله للآخر، وأقرب منه في المعنى جَعل "لم يرِمَا" خبرًا عن المبتدأَين، و"في الغار" متعلّق بـ "يرِمَا"، إلاّ أنّ تقديمه على "لم" ضعيف. وأقوى من هذه الوجوه أنْ

---

(1) أقول : أجاز بعض النحاة تعدد المبتدأ قياسا على تعدد الخبر، فيقال : محمد، عليّ، زينب غاضبة عليه بسببه "بتعدد المبتدآت بدون ضمائر، وجَعل الروابط بعد خبر الأول"، فترتّب الضمائر ترتيباً عكسيًا، ويكون الضمير في "عليه" راجع إلى الثاني، وهو "عليّ"، وفي "بسببه" راجع إلى الأول، وهو "محمّد".

يكون "لم يرِمَا" خبر مبتدأ محذوف، تقديره : وهما لم يرِمَا فيه، وهي مستأنفة.

وهم : مبتدأ عائد على "الكفّار"، خبره "يقولون".

و "ما" : نافية.

ومن : في "مِن أَرِم" زائدة؛ لتأكيد العموم، لأنّ "أرِمًا" من الألفاظ المختصّة بالنّفي كما تقدّم، وهو مبتدأ. وبالغار : خبره. والباء زائدة لتأكيد النّفي.

وجملة "ما بالغار من أرم" : في موضع مفعول "يقولون".

وجملة "وَهُم.." الكبرى : الظّاهر أنّها مستأنفة، وقيل حال من فاعل "يرِمَا"، وهو الألف.

وجملة "لم تنسج" : في موضع المفعول الثّاني لـ "ظنّوا العنكبوت". ولم تحُم : مفعول ثانٍ لـ "ظنّوا الحمام".

وعلى خير البريّة : متعلّق بـ "تنسج". ومتعلّق "تحُم" محذوف ؛ أيْ حوله.

وجملة "ظنّوا العنكبوت على خير البريّة لم تنسج" معترضة بين المفعول الأوّل؛ وهو "الحمام"، وبين الثّاني؛ وهو "لم تحُم". ولك أنْ تجعل "ظنّوا" الثّاني تأكيدًا، و"العنكبوت" معطوفاً على "الحمام"، والجُملتان في محلّ المفعول الثّاني، وترجع كلٌّ منهما إلى ما يناسبها، إلاّ أنّ فيه الفصل بين حرف العطف والمعطوف - وهو العنكبوت – بـ "ظنّوا"، وهو قليل.

ووقاية الله : مبتدأ، خبره "أغنت". وبه يتعلّق "عن مضاعفة".

ومفعول "أغنت" : تقدّم ذكره في المعاني[1]. وأجاز بعضهم أنْ يكون "وقاية الله" خبر مبتدأ مُضمر؛ أيْ هذا الأمر. وانظر محلّ جملة "أغنت.." على هذا الإعراب.

ومن الدّروع : صفة لـ "مضاعفة". وعن عال : عطف على "عن مضاعفة". ومن الأُطُم: نعت لـ "عال". ومن : للبيان فيهما. وقيل : أو للتّبعيض.

ما : نافية.

سَامَني : فعل ماضٍ. وياء المتكلّم مفعوله الأوّل، والثّاني "ضَيْماً". والدّهر : فاعل. والجملة إمّا جواب "أَقْسمتُ" كما تقدّم، وإمّا استئناف إخبار بمعناها.

وجملة "استجرتُ به.." : عطف على "سامني..". والباء سببيّة. ومفعول "استجرتُ" محذوف؛ أيْ الله، ويحتمل أنْ تكون الباء زائدة في المفعول؛ أيْ استجرته. ويصحّ جَعل جملة "واستجرتُ.." حالاً من مفعول "سَامَنِي" الأوّل. و"قد" مضمرة عند من يشترط ذلك، وألاّ إيجاب بعد النّفي.

ونِلتُ جوارًا منه : جملة حالية من ياء المتكلّم أيضاً، أو من المجرور بالباء. و"قد" مضمرة أيضاً. والاستثناء مفرّع من عموم الأحوال، والتّقدير : ما سَامَنِي واستجرتُ به على حال من الأحوال إلاّ والحالة أنّي قد نِلت..

---

(1) أي الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه.

وجوارًا : مفعول بـ "نلت". ومنه : متعلّق به.

ولم يُضَم : في موضع الصّفة لـ "جوار"، وإنْ جعلتَ "منه" صفة لـ "جوار"، جاز أنْ يكون "لم يُضَم" حالاً من "جوار". و "يُضَم" : مبني للمفعول، وهو ضمير "الجوار" أو مَن ناله كما تقدّم، وأصله يُضَام، فحُذفت الألف؛ لالتقاء السّاكنين.

وجملة "ولا التمستُ.." : معطوفة على جملة "مَا سَامَنِي.."، وقيل : على "سَامَنِي". ولا : زائدة لتأكيد النّفي.

وغنى الدّارَين : مفعول "الْتَمَستُ" ومضاف إليه. ومن يده : متعلّق بـ "الْتَمَستُ".

وإلاّ استملت النّدى : إعرابه كإعراب "إلاّ ونِلت"، وهذا الاستثناء يُرجّح كون "لا" معطوفة على "مَا"، ويضعف كونها زائدة، و "اسْتلمتُ" عُطف على "سَامَنِي"، إلاّ أنْ تقدّر "ما" أخرى؛ أيْ ما اسْتَلَمتُ غنَى الدّارَين إلاّ في حال استِلاَمِي النّدى.

ومن خير : متعلّق بـ "اسْتَلمتُ"، ويجوز أنْ يكون حالاً من "النّدى".

ومن في "من يده" و"من خير" : لابتداء الغاية.

وقيل : «إنّ "نلت" و"استلمت" حالان مقدّران؛ لأنّ الإجابة بعد الطّلب، والمُسبَّب بعد السّبب».

الْإِشَارَاتُ

[قلب المؤمن قمره]

تقدّم أنّ شقّ القلب إنّما كان لاستخراج حظّ الشّيطان منه؛ حتّى لا يبقى في القلب إلاّ الله، كما أنّ شقّ القمر إنّما كان لإقامة الحجّة على الخَلْق، فيرفضوا عبادة الأصنام، حتّى لا يعبدوا إلاّ الله، فقلبُ المؤمن قمره؛ الّذي يرى به، فإنْ فاته شقّه؛ لاستخراج حظّ الشّيطان منه، لكون ذلك لا يكون إلاّ للنّبيّ، كما أنّ انشقاق القمر مع دعوى الرّسالة، لا يكون إلاّ للنّبيّ، فلا يفوته صَقْله وجِلاؤه؛ بالتزام الطّاعات، وترك الشّهوات، والصّبر على الجوع وسائر المشاقّ، مستعيناً على ذلك بالله، ثمّ على استئهاله بتذَكُّر هجوم الممات، وطول القيام يوم القيامة في شدائد العرصات، فمَن فعل ذلك فحَرٍ أنْ ينصقل قلبه، حتّى تنجلي له الحقائق وتنكشف، كما يُدرك بنور القمر. ولمّا كان ما يُدرَك بهذا القلب من الحقائق والمعارف، ليس هو من عالَم المشاهدة، وما يُدرَك بنور القمر هو من عالَم الحسّ، وهو أخفض رتبة، لا جَرَم كان القلب أصلاً للقمر، حتّى يُقال : للقمر نسبة من القلب، وإنّما كانت المشاكلة في هذا القلب بينه وبين القمر، لا بينه وبين الشّمس؛ لأنّ ما يدركه العبد في الدّنيا من المعارف بالبنية الفانية، ليس هو كمال الحقيقة، بل مبادئ الأمور، ناسب القمر الّذي تشوبه ظلمة اللّيل؛ لأنّه كوكب زمن النّوم، وهو اللّيل، كظلمة ليل الدّنيا، فلا تُدرَك المحسوسات به على كمالها وَ: «**النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا اسْتَيْقَظُوا**»[1]. فحينئذٍ يشاهدون الأشياء عياناً على حقيقتها، كما يشاهدون الأشياء على حقائقها بنور الشّمس؛ الّذي هو كوكب زمان اليقظة، وهو النّهار.

---

(1) سبق تخريجه.

[اعتزال الفتن]

وقوله : "وما حوى.." البيت؛ مَن خاف على دينه من الفتن فليلجأ إلى بعض الغيران، فيختفي فيها، ويعبد ربّه، حتّى يجعل الله له من أمره مخرجاً، ويوشك - إنْ فعل مخلصاً من قلبه، فارًا بدينه إلى ربّه - أنْ لا يُطْلِع عليه أحدًا يؤذيه، ويُعمِي عن إدراكه أعينَ المضلّين، ولذا أمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعض الصّحابة[1] ماذا يفعل إنْ أدركه زمن فتنة، فقال : «**اعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ بِأَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ**»[2]. وقال لمن سأله[3] فيمَ النّجاة؟ : «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، والزَمْ بَيْتَكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»[4]. ويحتمل أنْ تكون الإشارة "بالغار" إلى صدر المؤمن الّذي حوى مثل ذلك القلب المُطهّر، وهو خَلِيق أنْ يُقسم بمثله.

وقوله : "وكلّ طَرْف"؛ أيْ الكفّار الجاحدون أنْ يكون للقلوب مثل هذه الأنوار؛ كلّ طَرْف - أيْ بصيرة - منهم عَمِي عن ذلك المعنى : ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾[5].

---

(1) هو حُذَيْفَة بْن الْيَمَانِ.

(2) رواه مسلم في الإمارة. بَاب وُجُوبِ مُلَازَمَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِّ حَالٍ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ. ورواه غيره.

(3) هو عُقْبَة بْنِ عَامِرٍ.

(4) رواه الترمذي في الزهد. بَاب مَا جَاءَ فِي حِفْظِ اللِّسَانِ. وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(5) سورة يونس : من الآية 39.

[قبر المؤمن]

ويحتمل أنْ يشير بـ "الغار" إلى قبر صاحب هذا القلب من المؤمنين، فإنّه بعد موته تتجلّى له الحقائق في قبره؛ لأنّ القلب إذا لم يكن له تعلّق إلاّ بالله، كانت حياته الدّنيوية مانعة له من الوصال وكَشْف الحقيقة، فإذا مات زال المانع، فاتّصل، فعلى مثله يكون القبر روضاً من رياض الجنّة، فحَرٍ أنْ يُقسَم بما حوى ذلك الغار؛ الّذي هو القبر، من خِير ومن كَرَم، أو أنْ يُستفهم عنه على سبيل التّعظيم إنْ كانت "ما" استفهاميّة، وهذا الخِير لا يُدرك في الحياة الدّنيا، إلاّ ببصيرة الإيمان الحقيقيّ، فأنّى تُدركه بصائرُ الكفّار المكذّبين بالحياة الآخرة، فكلُّ طَرْف منهم عنه عَمٍ. وعلى هذا قوله : "فالصّدق في الغار"؛ أيْ ما أخبر به الشّارع – صلوات الله عليه – من هذا الثّواب؛ الّذي هو الخَبَر الصِّدق، كائنٌ في القبر، والصدّيق – أيْ صاحب العمل الّذي استوجب به هذا الجزاء؛ الّذي كان كثير التّصديق به في القبر – مقترنان؛ لأنّه لا قرين للمكلّف في قبره إلاّ عمله كما قال – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لقيس بن عاصم[1]، ثمّ لا يُدفن

(1) ونصه كما في الأربعين الودعانية الموضوعة (الحديث الثاني) : عَنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ لِي: «اغْتَسِلْ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ» ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عِظْنَا عِظَةً نَنْتَفِعُ بِهَا، فَقَالَ: «يَا قَيْسُ إِنَّ مَعَ الْعِزِّ ذُلا، وَإِنَّ مَعَ الْحَيَاةِ مَوْتًا، وَإِنَّ مَعَ الدُّنْيَا آخِرَةً، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا؛ وَإِنَّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثَوَابًا، وَإِنَّ لِكُلِّ سَيِّئَةٍ عِقَابًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا، وَإِنَّهُ لا بُدَّ لَكَ يَا قَيْسُ مِنْ قَرِينٍ يُدْفَنُ مَعَكَ وَهُوَ حَيٌّ، وَتُدْفَنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ كَرِيمًا أَكْرَمَكَ، وَإِنْ كَانَ لَئِيمًا أَسْلَمَكَ، ثُمَّ لا يُحْشَرُ إِلا مَعَكَ، وَلا تُبْعَثُ إِلا مَعَهُ، وَلا تُسْئَلُ إِلا عَنْهُ، فَلا تَجْعَلْهُ إِلا صَالِحًا فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَالِحًا لَمْ تَأْنَسْ إِلا بِهِ، وَإِنْ كَانَ فَاحِشًا لَمْ تَسْتَوْحِشْ إِلا مِنْهُ، أَلا وَهُوَ فِعْلُكَ».

إلاّ معك، ولا تُحشر إلاّ معه، فالعامل والعمل لم يبرحَا، والكفّار يقولون: ليس بالقبر أحد يعقل، إنّما هناك رِمَم بالية، وعظام نَخِرة؛ لأنّهم لا يقرّون بالآخرة، فبصائرهم محجوبة عن إدراك ما هناك.

وأمّا إنْ كان المراد غار المعتَزَل، فلا شكّ أنّ صدق النّجاة فيه، وهو الصّدّيق بخيرها، والمفتونون - السّالكون سبيل الكفّار في الغفلة عن الآخرة، والخوض في أمور الدّنيا، والاستكثار، وبذلك وصف الله تعالى الكفّار؛ فقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا.. ﴾ الآية[1]. وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا؛ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[2] - يقولون للّذي اعتزل عنهم في غاره : ما بالغار أحدٌ؛ أيْ يُعتدّ به؛ لأنّ الّذي يُعتدّ به عندهم هو مَن سلك سبيلهم، وخاض غمرات بحورهم، وينسبون سالك طريق الآخرة - المُباين لطريقهم - إلى الجنون.

وقوله : "ظنّوا الحمام.." البيت؛ لمّا كانت الحمام والعنكبوت لا تدلاّن على عِمَارة، ظنّ المشركون – بجهلهم - خلاء الغار، كذلك الكفّار، لمّا لم يشاهدوا ما يكون في القبر من النّعيم والعذاب، ظنّوا نفيهما عنه، وما علِموا أنّ خلاّق الإدراك هو الله، فإنْ لم يخلُقه الله، لم يكن ولو حضر المدرَك. وكذا يظنّ الخائضون في الفتن؛ أنّ المنعزل عنهم في غاره، إنّما منعه من الدّخول معهم عدم القدرة، ولو كان عنده

---

(1) سورة الروم : من الآية 7. والآية بتمامهما : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

(2) رواه البخاري عَنْ جَرِيرٍ مرفوعا في العلم. بَاب الْإِنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ. ورواه غيره.

غنى ما انعزل، أو يظنّون به أنّه بانفراده متعرّض للهلاك؛ لأنّه لا يحصل له شيء من الدّنيا، فيهلكه الفقر، وما علم جميع الجهّال الغُمر أنّ وقاية الله لهذا المنفرد، وحفظه إيّاه، تُغني عن مثل المضاعفة من الدّروع والعالي من الأطُم؛ الّذي يتحصّن به الدّاخل في الفتنة، بتعلّقه بالأسباب الدّنيوية؛ الّتي هي عنده أقوى الحصون، وهي في الوهن كبيت العنكبوت.

كما أنّ حَجْب الله – تعالى – أعينَ عباده عن مشاهدة ما في القبور، لحِكمة أرادها سبحانه وتعالى، هو وقاية أيضاً، ومَن ناله ضرّ، فليلجأ إلى الله، وليتخلّ لعبادته والفكرة في أمره، فإنّ الله يكشف ما به، وحينئذٍ فليُقْسم بربّ القمر المنشقّ، ويقول في جواب قَسَمه : "مَا سَامَنِي.." البيت: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[1].

وأقوى الأسباب الّتي تُرجى بها النّجاة من المهالك، ويُنال بها الفوز في الدّارَين التّوسّل إلى الله - جلّ جلاله - بمحمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْليماً، فإنّه الوسيلة الّتي لا تُردُّ في الدّنيا والآخرة، كما نجح هذا النّاظم في طلبته، لمّا توسّل به[2].

اللّهم إنّ وسيلتنا إليك - في أنْ تجعلنا من أولئك الّذين لا خَوف عليهم، ولا هم يحزنون في الدّنيا والآخرة - مولانا محمّدٌ نبيُّك وعبدُك ورسولُك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلّما ذكره الذّاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

---

(1) سورة النمل : من الآية 62.

(2) أيْ فشفاه الله تعالى من مرضه.

لاَ تُنْكِرُ الوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إنَّ لَه قَلْباً إِذَا نَامَتِ العَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ

فَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوَّتِه فَلَيْسَ يُنْكَرُ فِيهِ حَالُ مُحْتَلِمِ

تَبَارَكَ اللهُ مَا وَحْيٌ بِمُكْتَسَبٍ وَلاَ نَبِيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ

شَرْحُ الغَرِيْبِ

لا تُنكر : لا تجحَدْ، والإِنْكارُ : الجُحُود. والتَناكُرُ : التّجاهلُ. وطريقٌ يَنْكُورٌ؛ أيْ على غير قَصد. ونكِرْتُ الرّجلَ – بالكسر - نُكْراً ونُكُوراً، وأَنْكَرْتُهُ واسْتَنْكَرْتُهُ، كلّه بمعنًى. والإِنْكارُ أيضاً : تغيير المُنْكَرِ[1].

الوَحْي : تقدّم.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 836/2. مادة نكر.

ولم يَنَمِ؛ أصله يَنَام، فحُذفت الألف لالتقاء السّاكنين.

والبُلُوغُ : الوصول. بَلَغْتَ المكان بُلُوغاً : وصلت إليه، أو شارفت عليه. ومنه : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾[1]؛ أيْ قارَبْنَهُ. وبَلَغَ الغُلامُ : أدرك. والإِبْلاغُ والتَبْليغُ : الإيصالُ. والاسمُ البَلاغُ[2]. وتقدّمت المادّة.

والحَالُ : حَالُ الإنسان، وأَحْوَالُه؛ أيْ صفاته وهيئاته، وواحد الحَال حَالَةَ[3].

ومُحْتَلِم : اسم فاعل من احْتَلَمَ، وحَلَمَ بفتح اللاّم حُلُماً بضمّ الحاء؛ أيْ رأى في نَوْمه. واحْتَلَمَ بمعناه. وتقدّم.

وتَبَارَكَ : تفاعل من البرَكَة على معنى التّمجيد؛ أيْ تَعَالَى وَتَعَاظَمَ.

وقال الجوهري : «تَبَارَكَ الله؛ أيْ بارَكَ، مثل قاتَلَ وتَقاتَلَ، إلاّ أنّ فَاعَلَ يَتعدَّى، وتَفَاعَلَ لا يَتعدَّى. والبَرَكَةُ : النّماءُ والزّيادةُ. والتَبْريكُ : الدّعاءُ بالبَرَكَةِ. وطعامٌ بَرِيكٌ، كأنّه مُبَارَكٌ. وبارَكَ الله لك وفيك وعليك، وبارَكك. وقال تعالى : ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[4]. وتَبَرَّكْتُ به : تَيَمَّنْتُ»[5].

بمُكْتَسَبٍ : أيْ بمطلوب، وكَسَبَ واكْتَسَبَ؛ قيل : بمعنًى واحد؛ أيْ حَصّل، وقيل : كَسَبَ لتحصيل الشّيء، واكْتَسَبَ

---

(1) سورة البقرة : من الآية 234.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1316/4. مادة بلغ.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1679/4. مادة حول.

(4) سورة النمل : من الآية 8.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1574/4. مادة برك.

التَّفْسِيْرُ

[مبدأ الوحي]

لمّا ذكر النّاظم حال مولده - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وما ظهر فيه من الآيات، وذكر من المعجزات ما يوافقها بحسب الاستطراد، كما نبّهنا عليه، وأشار إلى بعض أحواله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حال الصّغر؛ وهو شقّ قلبه زمن كونه مسترضعاً في بني سعد كما تقدّم، أخذ الآن يذكر مبدأ الوحي إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنْ شئتَ قلتَ : لمّا أشار إلى شقّ قلبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقّبه بهذه الأبيات؛ تنبيهاً على أنّه إنّما أراد بذلك الشَقّ ما في صحيح البخاري؛ من أنّ ذلك كان ليلة أُسرِي به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما تراه بعون الله، وهذا أولى لِوَجهَين، الأوّل : تعقيبه ببدء الوحي وقوله : "فَذَاكَ حِينَ بُلُوغ". الثّاني : أنّه أصحّ. وإنْ جمعتَ بين الحديثَين قلتَ : إنّ قلبه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شُقّ مرّتَين؛ زمن الصّبا، وكان ذلك لاستخراج حظّ الشّيطان منه؛ وهو العَلَقة السّوداء، وغَسْله من أثرها، حتّى تكون تربيته طاهرَ القلب من نزغات الشّيطان، والثّاني عند الإسراء به للوحي، ولذلك قال في هذا : «فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ حِكمَةً وَإِيمَانًا فحُشِيَ بِهِ قَلْبِي»(1)، ولم يذكر في الأوّل إلاّ مجرّد الغسل خاصّة.

(1) رواه البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ في الصلاة. بَاب كَيْفَ فُرِضَتْ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْرَاءِ. ورواه غيره.

[حقيقة الإسراء]

ثمّ اختلف العلماء في الإسراء به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هل كان بروحه خاصّة وهو نائم، أو بروحه وجسده وهو يقظان، اختلافاً كثيرًا، وفي طرق أحاديث الإسراء - على اختلافها - ما يرجّح ما ذهب إليه كلّ فريق، ورجّح كثير من العلماء الرّاسخين والفضلاء المحقّقين؛ كالقاضي حجّة الإسلام أبي الفضل عياض - رحمه الله - في كتاب "الشّفا" وغيره؛ أنّ ذلك في اليقظة، واستدلّ على ذلك بما يُوقف عليه في الكتاب المذكور[1].

فكأنّ النّاظم يقول : إنْ كان الإسراء حال اليقظة، فلا ينبغي أنْ يُنكَر؛ لأنّ خرق العادات أساس إثبات النّبوّات، وإنْ كان حال النّوم، فلا تُنكر؛ أيْ لا تَجحَد، ولا تَستبعِد أيّها الجاهل المُنكِر ما لم يحط به علمك ثبوتَ الوحي من رؤياه؛ أيْ أنَ يوحي الله – تعالى - إليه حال نومه، فإنّ له قلبًا إذا نامت عيناه لا ينام هو، فإنّه قد شُقّ وطُهّر من التّعلّق بغير الله، ومُلئَ إيمانًا وحكمةً، فاليقظة الدّائمة صفته، فيحسن منه أنْ يُخاطب ويتلقّى الوحي، لا كالقلوب الّتي تنام حين تنام أعينها.

ولمّا كان كلامه قد يتوهّم سامعُه أنّ الوحي إليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دائمًا، إنّما كان في النّوم، رفع ذلك الإيهام بقوله : "فَذَاكَ"؛ أيْ الوحي الثّابت من رؤيَاه كان - أو ثبت - حين وصولٍ "من نبوّته إليه"؛ أيْ حين وصلته النّبوّة.

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 187/1 وما بعدها.

الثّالث : أنّه لمّا قال : "لاَ تُنْكِرِ الوَحْيَ مِن رُؤْيَاه"، وعلّله بما ذكر، وهي صفة ثابتة له، والصّفة الثّابتة لا تتبدّل، فقد يُتوهّم أنّ ذلك كان دأبه من أوّل أمره، فيُنكر فيه في كلّ وقت حال المحتلم؛ الّذي تنام عينه وقلبه، رَفَع ذلك بقوله : "فَذَاكَ حِينَ"، فلمّا تخصّصت تلك الصّفة بوقت من الأوقات، أنتج ذلك التّخصيص أنْ لا يثبت له الوحي من الرّؤية في غير ذلك الوقت، فليس الأمر والشّأن يُنكر في النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حال النّائم الّذي لا يُوحى إليه قبل وصول النبوّة إليه، وهذا التّفسير أقلّ تكلّفاً باعتبار اللّفظ، وأبعدَ باعتبار المعنى، والأوّلان بالعكس.

الرّابع : لبعضهم؛ «أنّ فيه متعلّق بـ "يُنكَر"، وضميره عائد على "الوحي"، و"حال" مفعول لم يُسمّ فاعله، والمعنى : فليس حاله حال المحتلم، فتُنكر.. فنفي الإنكار لانتفاء حال المحتلم؛ كقول امرئ القيس : عَلَى لاَحِبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنارِهِ[1]؛ أيْ لا منار له فيُهتدى به، واللاّحب : الطّريق. ومن كلامهم : هذا يوم لا يُنادَى وَليدُهُ؛ أيْ لا وليد فيه فيُنادَى». انتهى. وإليك تأمُّل معنى هذا التّفسير.

الخامس : وهو لبعضهم أيضاً؛ «أنّ كلام النّاظم لمّا أوهم أنّ جميع مرائيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الوحي، لزم أنّ جميعها لا

---

(1) البيت بتمامه :

على لاَحِبٍ لا يُهْتَدَى بمَنارِه   إذا سافَهُ العَوْدُ النِّبَاطِيُّ جَرْجَرا

وسافَه : شمّه. النباطي : الضخم. جرجر : ضج. انظر ديوانه : ص 96.

يجري إلاّ على ظاهره؛ إذ الوحي إنّما يكون كذلك، لكنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد تجري رؤياه على غير ظاهرها، كقوله : «**رَأَيْتُ بَقَرًا تُذْبَحُ**»[1]. ولم تجر على ظاهرها، بل كانت القتلى يوم أحد، فلمّا رأى النّاظم أنّ كثيرًا من مَرَائيه لا تجري على نهج الوحي؛ في حَمْلها على الظّاهر، وإن كانت على نهجه في صدقها، قال : "فليس"؛ أيْ كون تعبيرها كتعبير مرائي المحتلم، لا يمنع كونها وحيًا، فهذا احتراس عمّا أوهمه البيت قبله؛ من أنّ مَرَائيه على ظاهرها كما هو الوحي». انتهى.

قلتُ : الجاري على ما قال ألاّ يأتي بالفاء في قوله : "فليس" الدّالة على أنّ ما بعدها مُسبّب عمّا قبلها، بل الجاري على قصد الاحتراس الواو. ثمّ لا نسلّم أنّ رؤيا الوحي إنّما تجري على ظاهرها، بل اللاّزم في رؤيا الوحي إمّا جَرْيها على ظاهرها، أو صدق تأويلها، ألاَ ترى رؤيا يوسف - عليه السّلام - الشّمس والقمر والكواكب، وكذا كثير من مرائيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لم يَبْقَ بَعْدِى مِنَ النُّبوَّةِ إلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ**». وهي : «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الرَّجُلُ الصّالح، أَوْ تُرَى لَهُ**»[2]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبوَّةِ**»[3]. فجعل رؤيا غيره من النّبوّة، مع أنّه معلوم أنّ أكثر المرائي الصّادقة إنّما هي بالتّأويل.

---

(1) رواه أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مرفوعا : 259/4. رقم الحديث : 2445. والحديث حسن.
(2) رواه مالك في الموطأ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مرفوعا في الجامع. بَاب مَا جَاءَ فِي الرُّؤْيَا.
(3) رواه مالك في الموطأ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مرفوعا في الجامع. بَاب مَا جَاءَ فِي الرُّؤْيَا.

[الاستدلال لما أشار إليه النّاظم من المعاني]

ثمّ لا بدّ من الإشارة إلى بعض الأحاديث الدّالة على ابتداء الوحي، وأنّه كان بالرؤيا، وأنّه تنام عيناه ولا ينام قلبه، وإلى تقرير بعض ما قاله مَن قال بصحّة اكتساب النبوّة وإبطاله، وإلى بعض ما قيل في عصمة الأنبياء مِن الكذب وغيره من المعاصي، فإنّ هذه الأبيات ضمّنت هذه الفصول.

رُوينا في الصّحيحين عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ؛ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا، إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ؛ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ. قَالَ: **«مَا أَنَا بِقَارِئٍ»**. قَالَ : **«فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ : اقْرَأْ»**. قُلْتُ: **«مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ : اقْرَأْ»**. قُلْتُ : **«مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حتّى بلغ منّي الجهد، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»[1].

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، فَقَالَ : **«زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي»**. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ

---

(1) سورة العلق : من الآية 1 إلى الآية 5.

عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**». فَقَالَتْ له خَدِيجَةُ : كَلَّا أبشر، فَواللهِ مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِخَبَرِ مَا رَأَى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**». قَالَ : نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ أحدٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ، إِلَّا عُودِيَ، فَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ، أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً، حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا؛ كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ، لِكَيْ يُلْقِيَ بنَفْسه مِنْهُ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ حَقًّا. فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ، غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ[1].

---

(1) انظر صحيح البخاري في بدء الوحي. صحيح مسلم في الإيمان. بَاب بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وخرّج البخاري عن عائشة قالت : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ قَالَ : «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي**»[1]. انتهى.

ثمّ كان يأتيه الوحي بعدُ في اليقظة، وربّما أتاه بمَحضر أصحابه ومشاهدتهم، خرّج البخاري والنّسائي عن عائشة - رضي الله عنها - أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ[2] قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ**». وقَالَتْ عَائِشَةُ : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[3].

وخرّج النّسائي عن عمر - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذا أُنزل عليه الوحي يُسمع عنده دويّ كدويّ النّحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة، ورفع يدَيه، وقال : «**اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا ولا تُحْزِنَّا، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا**

---

(1) انظر صحيح البخاري في الجمعة. بَاب قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللَّيْلِ فِي رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ.

(2) هو الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أبو عبد الرحمن (.. - 18هـ = .. - 639م). صحابي، كان شريفا في الجاهلية والإسلام، أسلم يوم فتح مكة. وخرج في أيام عمر بأهله وماله من مكة إلى الشام، فلم يزل مجاهدا بالشام إلى أن مات في طاعون عمواس. انظر الأعلام. الزركلي : 158/2.

(3) انظر صحيح البخاري في بدء الوحي. وانظر السنن الكبرى في المساجد. جَامِعُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ. الحديث رقم : 1008.

وَارْضَ عَنَّا». ثمّ قال : «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ، مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ». ثمّ قرأ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات[1].[2]

وأمّا ما أشرنا إليه من أنّ شقّ قلبه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان ليلة الإسراء، فهو تخريج البخاري ومسلم والنّسائي عن أنس بن مالك، ولعلّ لذكره موضعاً هو أليق به من هذا، نذكره فيه إنْ شاء الله تعالى؛ حيث يقول : "سَرَيْتَ مِنْ حَرَم.." البيت.

ونذكر بعضه هنا من لفظ البخاري لتضمُّنه معنى قوله : "إذا نامَتِ العَيْنانِ لَمْ يَنمِ". قال فيه عن أَنَس عن لَيْلَةَ أُسْرِيَ بالنّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ أَوَّلُهُمْ : أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ : هُوَ خَيْرُهُمْ. فَقَالَ آخِرُهُمْ : خُذُوا خَيْرَهُمْ. فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى؛ فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ، وَتَنَامُ عَيْنُهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ؛ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ، وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ، حَتَّى احْتَمَلُوهُ، فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ، فَتَوَلَّاهُ جِبْرِيلُ، فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ جَوْفِهِ وَصَدْرِهِ، فَغَسَلَهُ بمَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، مَحْشُوًّا

---

(1) سورة المؤمنون : من الآية 1.

(2) انظر السنن الكبرى في الوتر. رفع اليدين في الدعاء. الحديث رقم : 1439. والحديث سنده ضعيف.

إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ - يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ - ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. الحديث بطوله[1].

فإنْ قلتَ : ليس فيه ذكر القلب، بل الصّدر، فالأولى أنْ يكون النّاظم أشار إلى حديث ابن إسحق؛ فإنّ فيه شقّ القلب.

قلتُ : الصدر محلّ القلب، قال الله تعالى : ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2]. فالمقصود بشقّ الصّدر إنّما هو القلب، والله أعلم.

---

(1) انظر صحيح البخاري في التوحيد. بَاب قوله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. وانظر صحيح مسلم في الإيمان. بَاب الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ. السنن الكبرى في الصلاة. فَرْضُ الصَّلَاةِ. الحديث رقم : 309.

(2) سورة الحج : من الآية 46.

[عصمة الأنبياء]

وأمّا عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم؛ فأجمعت الأمّة على عصمتهم بعد الرّسالة من تعمّد الكذب في الأحكام والتّبليغ عن الله تعالى؛ لأنّ ما ظهر على أيديهم من المعجزة، دلّ على صدقهم، فلا يجوز عليهم الكذب، وإلاّ ناقض مدلول المعجزة[1]، وإلى هذا أشار بقوله : "وَلا نَبِيٍّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ". وأمّا غيره من المعاصي؛ فالإجماع أيضاً على عصمتهم من الكبائر والصّغائر الخسيسة[2]، واختلف في عصمتهم من الصّغائر غيرها، فالّذي عليه المحقّقون عصمتهم منها أيضاً؛ لأنّا مأمورون باتّباعهم في كلّ ما يصدر عنهم من قول أو فعل، فلو صدرت عنهم صغيرة، لكنّا مأمورون بفعلها، وذلك باطل؛ لأنّها فحشاء، وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[3].[4]

---

(1) وعبارة علماء العقيدة في هذا الشأن هي : «لأن إنزال المعجزة بمنزلة قوله تعالى "صدقَ عبدِي في كلّ ما يُبلغ عنيّ"». انظر شرح اللقاني على الجوهرة. إبراهيم اللقاني : 683/1.

(2) نعم أجمع العلماء على عصمة الأنبياء من الكبائر والصغائر الخسيسة (كسرقة لقمة)، ولكن اختلفوا في دليل امتناعها؛ فقال المحققون من الجمهور هو السمع، وإليه ذهب الباقلاني، وقال أغلب العلماء هو العقل، وإليه ذهب الإسفراييني؛ لأن الخيانة من المستحيلات العقلية. انظر شرح اللقاني على الجوهرة. إبراهيم اللقاني : 702/1.

(3) سورة الأعراف : من الآية 28.

(4) اختلف العلماء في عصمة الأنبياء من الصغائر غير الخسيسة، فقد جوزها عليهم جماعة من السلف، كإمام الحرمين وأبي هاشم من المعتزلة وأبي جعفر الطبري وغيرهم، منعها المحققون من الفقهاء والمتكلمين، وذهبت طائفة أخرى إلى الوقف، وقالوا : العقل لا يحيل وقوعها منهم، ولم يأت في الشرع قاطع بأحد الوجهين، وقال بعض المحققين : ويجب على جميع الأقوال أن لا يختلف أنهم معصومون من تكرار الصغائر وكثرتها بحيث تصل إلى حد لحوقها بالكبائر . انظر ذلك وأدلة كل فرقة في شرح اللقاني على الجوهرة. إبراهيم اللقاني : 703/1 وما بعدها.

فتلخّص أنّهم معصومون من الصّغائر والكبائر، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وبقي في هاتين المسألتين أبحاث، محلّها علم الكلام وأصول الفقه[1].

(1) لعله يقصد : مسائل مثل : صدور الكبائر والصغائر عنهم سهوا. وصدور الذنوب قبل الوحي، انظرها في شرح اللقاني على الجوهرة. إبراهيم اللقاني : 706/1 وما بعدها.

إنْ كانت "لا" للنّهي – وهي الرّواية – فقوله : "تُنكر" من الخطاب العام؛ لأنّ كلّ مخاطَب معه ما إنْ تأمّلَ ارتدَعَ عن الإنكار. وإنْ كانت للنّفي، والفعل بعدها مُسند للغائب، كان المعنى : لا يصحّ وجود حقيقة هذا الإنكار؛ لظهور دليل نقيضه. وهذا أبلغ. و«أل» في "الوحي" إمّا للجنس – وهو الظّاهر – أو للعهد؛ إنْ أُرِيد قضية الإسراء. وإضافة "رُؤْيا" للتّخصيص والتّشريف، وإنّما قال : "مِن رُؤياه"، ولم يقل : "في" مع أنّه مقتضى الظّاهر؛ ليفيد التّبعيض، وأنّه ليس جميع مرائيه من الوحي. وقال بعضهم : «إنّها زائدة على مذهب من يرى ذلك[1]، أو للضّرورة».

وإتيانه بالجملة الاسمية مؤكّدة بـ "إنّ"؛ إمّا لأنّ المقام إنكاريّ؛ لأنّ الخطاب مع المُنكِر أو مع مَن لاحت عليه أمارة الإنكار؛ كالقائلين باكتساب النبوّة، لأداء مذهبهم إلى إنكار الوحي حال النّوم كما تقدّم، وإمّا لأنّ المقام طَلبيّ؛ لأنّه بصدد أنْ يُقال : وكيف لا يُنكَر الوحي في النّوم؟ أو كيف يمكن في النوّم؟ وهو حال ذهاب العقل لتغطية القلب به، فقال : "إنّ له.."؛ وهذا نحو قوله : إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ[2]. وعلى

---

(1) وهم الكوفيون والأخفش، ومع أن هذا الأخير بصري، إلاّ أنه خالف البصريين في هذه المسألة، وقال بزيادة "من" بدون شرط، وهم يشترطون أن تدخل "من" على نكرة، وأنْ يتقدمها في التركيب نفي أو نهي أو استفهام. انظر قول الأخفش في كتابه معاني القرآن في باب زيادة "من" : 105/1.

(2) وهو من قول بشار بن بُرْد، وسبق توثيقه، وصدر البيت : بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ.

كلّ فالجملة مستأنفة. وظاهرٌ أنّ تنكير "قلبًا" للنّوعية. و«أل» في "العينان" للعهد؛ لنيابتها عن الضّمير عند الكوفيّ؛ أي عيناه، ولحذفه عند البصريّ؛ أيْ منه[1]، وعلى الثّاني فهو من إيجاز الحذف.

وقال بعضهم : «في قوله : "إذا نَامَت.." إلى آخره؛ هي شرطية اتّفاقية، لا لزومية؛ إذْ الشّرط لا يستلزم الجزاء؛ كما هو في قوله تعالى : ﴿ لَوۡكَانَ فِيهِمَآ.. ﴾ الآية[2]؛ فإنّ تعدّد الآلهة يستلزم الفساد». بل هذه ينافر الشّرط فيها الجزاء؛ كقوله تعالى ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ.. ﴾ الآية[3]؛ لأنّ الحاصل في الوهم؛ أنّ من نام عينه، نام قلبه.

وكون المُسند اسم إشارة في قوله : "فذاك"؛ إمّا للتّعظيم؛ أيْ الأمر العظيم الخارق للعادة، وهو كون الوحي في النّوم أو يقظة القلب، وإنْ نامت العين في زمن خرق العادات، وهو النبوّة. وإمّا لكشف حاله وبيانه، حتّى كأنّه مُشاهَد، وذلك لِما طابق ما أخبر به ما هو في الوجود؛ من الإخبار عن بيت المقدس والعير وغيره. وتنكير "بلوغ" للنّوعية. وإضافة "نبوءة" كإضافة "رؤيا". وأتى باسم "ليس" ضمير شأنٍ؛ لتتأهّب النّفوس وتتشوّف إلى تحصيل الخير المنفي بها، وليكون في البيت إطناب؛ لأجل التّفسير بعد الإبهام.

---

(1) ونظّروا للمسألة بقوله تعالى : ﴿فَإِن الْجنَّة هِيَ المأوى﴾. انظر مغني اللبيب. ابن هشام : ص 652.

(2) سورة الأنبياء : من الآية 22. والآية بتمامها : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

(3) سورة آل عمران : من الآية 154.

وتنكير "وحي" و"نبيّ" للعموم؛ لأنّهما في سياق النّفي. وزِيدت الباء في "مُكتَسَب" لتأكيد النّفي، وتنكيره وتنكير "غَيْب" و"متّهم" للتّقليل.

قال بعضهم : «قوله : "بمُكتَسَب"؛ يحتمل أنْ يكون المعنى : نفي أنْ يكون الوحي بالاكتساب، وهذا صريح الإيمان، وهو الّذي عنى النّاظم. ويحتمل أنْ يكون المعنى : أيْ الوحي لا يلحق ولا يتّصل به أحد، وهذا كفر، وعيّن الاحتمال الأوّل؛ للإرادة أنّ نفي الاكتساب لا يلزم منه نفي الوقوع بوجه آخر غير الاكتساب، ثمّ لو احتمل لفظه الأمرين، لعيّنَ الأوّلَ السّياقُ». انتهى.

قلتُ : قال أهل المعاني[1] : «إذا قيل : ما أنا قمتُ. فالقيام ثابت، وإنّما المنفي إسناده إلى المتكلّم. فكذا هنا، الوحي ثابت، وإنّما المنفي كونه مكتسباً». وهذا مقرّر في علم المعاني، لا يحتاج إلى برهان، فالسّؤال غير وارد.

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 63.

اَلْبَيَانُ

الظّاهر أنّ إسناد "النّوم" إلى "العينين" وإلى "القلب" من المجاز العقلي، وكذا إسناد "البلوغ" إلى "النبوّة"؛ لأنّ "من نبوّته" صفة "بلوغ"؛ أيْ كائن هو منها، ويحتمل أنْ يكون من مجاز الحذف؛ أيْ من زمن نبوّته، وإنْ كان التّقدير : بلوغه من النّبوّة مسافتها المعلومة، فيكون استعارة المسافة للمنزلة الحُكميّة.

وفي الثّالث : مراعاة النّظير في "الوحي" و"النّبيّ" و"الغيب". وفيه من التّقسيم؛ «إِضَافَةُ الشّيءِ إلى مَا يَلِيقُ بِهِ» في : نفي "الاكتساب" عن "الوحي"، و "التّهمة على الغيب" عن "النّبيّ". والبيت كلّه من المذهب الكلامي للبيتَين قبله خاصّة، وتشاركت الثّلاثة في ذلك باعتبار ما قبلها، كما قدّمنا.

الإعراب

لا : ناهية. وتُنكرِ : مجزوم بها، وكُسِر لالتقاء السّاكنين، وإنْ كانت نافية فهو مرفوع، وفي بعض النّسخ "لا تنكروا" بالخطاب للجماعة.

والوحي : مفعول.

ومِن رؤياه : متعلّق بـ "تنكر"، وتقدّم معنى "مِن"، ويحتمل أنْ تكون لابتداء الغاية؛ أيْ لا تنكروا ابتداء الوحي مِن رؤياه، وقيل : هي للبيان، أو بمعنى "في"، ويحتمل أنْ يكون "من رؤياه" حالاً من "الوحي".

وقلباً : اسم "إنّ". وله : خبرها.

وإذا : ظرف يقتضي الاستقبال، وفيه معنى الشّرط، ولذا يطلب جواباً، ولكنّه لا يجزم إلاّ في نادر الشّعر، ولا يليه عند سيبويه[1] إلاّ الفعل ظاهرًا أو مُقدَّرًا، وتمام أحكامه وفروعه في علم النّحو. وجملة "نامت العينان" : في موضع خفض بإضافة "إذا" إليها. وجملة "لم تنم" : في موضع جوابها، وهي العاملة في "إذا" على الصّحيح.

ونامت : ماضٍ لفظًا، مستقبل معنىً؛ لإضافة الظّرف المستقبل إليه، وكذا "لم تنم"؛ مستقبل معنىً؛ لعمله في الظّرف المستقبل، وإنْ كانت لم تقلب المضارع إلى الماضي، ففي "تنم" تحويلان؛ تحويل

---

(1) تمام كلام سيبويه هو : وأما "إذا" فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاةٌ، وهي ظرف، وتكون للشيء توافقه في حالٍ أنت فيها، وذلك قولك : مررت فإذا زيدٌ قائمٌ. وتكون "إذ" مثلها أيضاً، ولا يليها إلاّ الفعل الواجب، وذلك قولك : بينما أنا كذلك إذ جاء زيد، وقصدت قصده إذ انتفخ على فلانٌ. فهذا لما توافقه وتهجم عليه من حالٍ أنت فيها. انظرالكتاب : 232/4.

إلى الماضي بـ "لم"، ثمّ تحويل إلى الاستقبال لعلمه في المستقبل، وإنّما قُدِّمت "إذا" على عاملها؛ لأنّ اسم الشّرط له صدر الكلام. وجملة "إذا" بشرطها وجوابها في موضع الصّفة لـ "قلباً"؛ أيْ قلباً غير نائم إذا نامت عيناه.

فذاك : الفاء عاطفة جملة خبرية على إنشائية. وذاك : مبتدأ، والإشارة إلى كون الوحي في رؤياه، وقيل إلى مضمون جملة "إنّ له..".

حين بلوغ : ظرف زمان، وخفض به في موضع الخبر. ومن نبوّته : في موضع الصّفة لـ "بلوغ"، وقيل متعلّق بـ "بلوغ"، ويحتمل تعلّقه بعامل الخبر.

فليس : الفاء عاطفة، وتقدّم معناها. واسم "ليس" : ضمير الشأن مستتر معها. وجملة "ينكر.." إلى آخرها : هي الخبر، وتقدّم في التّفسير إعراب مفرداتها.

وقيل : «يحتمل اسم "ليس" أنْ يكون ضميرًا عائدًا على النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو يكون اسمها "حال محتلم"، وضمير "ينكر" يعود عليه».

قلتُ : وفي هذا الأخير عود الضّمير مِن الخبر على الاسم المتأخّر.

تبارك : فعل ماضٍ لا يتصرّف، فلا يستعمل مضارعه ولا اسم فاعله ولا مصدره ولا غيرها.

ما : يحتمل أنْ تكون حجازية[1]. و"وحي" : اسمها، والمجرور خبرها، وأصله النّصب. والباء زائدة؛ لتأكيد النّفي. ويحتمل أن تكون تميمية[2]، و"وحي" مبتدأ، والمجرور خبر[3]، والباء زائدة فيه، وهو على رأي غير الفارسي[4] والزّمخشري[5]؛ في جواز زيادتها في خبر التّميمية.

---

(1) "مَا" الحجازية هي من المُشَبَّهاتِ بـ "لَيْسَ" في النَّفي وتَعملُ عَمَلَهَا؛ أيْ ترفع المبتدأ، ويُسمَّى اسمها، وتنصب الخبر. وهو رأي البصريين. وإنَّما سميت حجازية؛ لأن الحجازيون أعملوها في النكرة والمعرفة، وتعْمَلُ بأربعَةِ شُرُوط : أحدُها : ألاّ يَقترن اسمُها بـ "إن" الزَّائدة وإلاَّ بَطَل عَملها. والثاني: ألاَّ ينتقض نَفْيُ خَبرِها بـ "إلاّ". والثالث : ألاَّ يَتَقَدَّم الخبرُ على الاسم وإنْ كان جَارًّا ومَجروراً، فإن تَقَدَّمَ بَطَل. والرابع : ألاَّ يَتَقَدَّمَ معمولُ خَبَرها على اسمِها، فإنْ تقدَّم بَطَلَ عَمَلُها. انظر معجم القواعد العربية. عبد الغني الدقر : ص 398 و 399.

(2) "مَا" التميمية هي مهملة وغير عاملة؛ أيْ لا ترفع اسماً (المبتدأ) ولا تنصب الخبر، بل يبقى على أصله مرفوعا، وهو رأي الكوفيين، وإنَّما سمِّيت تميمية لأن التميميون أهملوها. انظر معجم القواعد العربية. عبد الغني الدقر : ص 398.

(3) أي : وأصله الرفع.

(4) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي (288 - 377هـ = 900 - 987م). أحد الأئمة في علم العربية. ولد في فسا (من أعمال فارس) ودخل بغداد. وتجول في كثير من البلدان. وقدم حلب، فأقام مدة عند سيف الدولة. وعاد إلى فارس، فصحب عضد الدولة ابن بويه. انظر الأعلام. الزركلي : 179/2.

(5) وقالا : إن الْمُقْتَضِي لِزِيَادَة الْبَاء هو نصب الْخَبَر. انظر مغني اللبيب. ابن هشام : ص 727.

ولا : إمّا عاملة عمل "ليس" عند من يراه[1]. و"نبيّ" : اسمها. و"بمتّهم" : خبرها. وأصله النّصب، والباء زائدة. ومن لا يراه[2]، "فنبيّ" مبتدأ، سوّغ الابتداء به النّفي، خبره "بمتّهم"، والباء زائدة أيضاً. وعلى غَيب : متعلّق بـ "متّهم".

---

(1) وهم الحجازيون، وتسمى حينئذ بـ "لا" الحجازية، ويشترط في إعمالها الشروط في "ما" الحجازية على ما سبق ذكره، ما عدا زيادة "إن"، فإنها لا تُزاد بعد "لا" أصلا. انظر معجم القواعد العربية. عبد الغني الدقر : ص 365.

(2) وهم التميميون، وتسمى حينئذ بـ "لا" التميمية. انظر معجم القواعد العربية. عبد الغني الدقر : ص 365.

الْإِشَارَاتُ

[رؤية النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام]

يحتمل أنْ يكون أشار بقوله : "لا تُنكر.." البيت إلى أنّ مَن رآه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في النّوم، فقد رأى الوحي؛ أيْ ذا الوحي أو الحقّ، وسمّاه وحياً؛ لأنّ الوحي لا شكّ فيه، وهذا لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَنْ رَآنِي فِي النَّوْمِ، فَقَدْ رَآنِي حَقًّا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي**»[1]. وفي رواية : «**فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ**»[2]. ف "رؤيَا" على هذا مصدر مضاف للمفعول. ومِن هذا الوحي رؤية الّذي رأى هذه القصيدة تُنشد بين يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يتمايل كما يتمايل القضيب، فأصبح إلى النّاظم، وطلبها منه، ولم يكن النّاظم أعلم بها أحدًا بعدُ.

---

(1) رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا من غير قوله "حقا" في الرؤيا. بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي. ورواه غيره.

(2) روى هذه الرواية البخاري عن أبي قَتَادَةَ في التعبير. بَاب مَنْ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ. ورواها غيره.

[يقظة القلب]

وقوله : "إنّ له.." إلى آخره؛ أيْ إنّ لرؤية النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في النّوم قلباً لا ينام إنْ نامت عيناه؛ أيْ ليس يراه في النّوم إلاّ مَن كان مُعلّق القلب بالله ورسوله، وشأن هذا يقظة القلب في نومه، فجديرٌ أنْ يرى الحقّ، حتّى إنّ بعض الصّالحين كان يتمنّع من المعصية في نومه. وقال بعضهم : «لَم أَحْتَلِم قطّ إلاّ بأمّ وَلَدِي فُلاَنَة». وذلك لكثرة مراقبتهم.

[الرؤيا الصّالحة]

ومثل هذا هو الّذي تكون رؤياه جزءًا من النّبوّة، فيُكاشَف في النّوم، وتصدُق رؤياه، ويكون له هذا حين يرتقي إلى درجة الصّالحين؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوْ تُرَى لَهُ**»[1]. وإلى هذا الإشارة بقوله : "فَذَاكَ حِينَ بُلُوغ"؛ أيْ فرؤيا المؤمن الّتي هي من الوحي حين بلوغ من درجة نبوّته؛ أيْ القَدْر الّذي يُنال من درجة النبوّة، وهو صدق الرّؤيا؛ فلِذا أضاف النّبوّة إليه، وإلاّ فحقيقة النبوّة على التّمام لا مَطمَع فيها لأحد مِن خَلْق الله تعالى بعد محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّه خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فليس يُنكر فيمَن أدرك درجة الصّلاح إدراك ما هو من الوحي حال احتلامه ليقظة قلبه، ولمّا كان هذا القَدْر هو الّذي يصل إليه مَن ليس بنبيّ من صدق الرّؤيا، نزّه النّاظم الله تعالى عمّا يتوهّمه الجاهل مِن اكتساب الوحي، فلا يُظَنُّ أنّ ذلك كائن بعد النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لإخباره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن ذلك، وهو الصّادق المصدوق؛ إذ لا نبيّ على غَيب بمتّهم.

أماتنا الله مسلمين، وألحقنا بعباده الصّالحين.

۞ ۞ ۞

(1) سبق تخريجه.

كَمْ أَبْرَأَتْ وَصِبًا باللَّمْسِ رَاحَتُه   وَأَطْلَقَـتْ أَرِبـاً مِـنْ رِبقَـةِ اللَّمَـمِ
وَأَحْيَـتِ السَّـنَةَ الشَّـهْبَاءَ دَعْوَتُـه   حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً فِي الأَعْصُرِ الدُّهُمِ
بِعَارِضٍ جادَ أَوْ خِلْتَ البِطَاحَ بِهَا   سَيْبٌ مِنَ اليَمّ أَوْ سَيْلٌ مِنَ العَرِمِ

شَرْحُ الغَرِيْبِ

كم : قال الجوهري : «اسمٌ ناقصٌ مبهم، مبني على السّكون»[1].

قلتُ : وتقدّم في قوله : "كَم حَسَّنَت".

بَرِئْتُ من المرض بكسر الرّاء وفتحها، وأَبْرَأَنِي الله.

وقال الجوهري : «برِئْتُ منك ومن الدّيون والعيوب بَرَاءَةً. وبَرِئْتُ من المرض بُرْءًا، بالضمّ. وأهل الحجاز يقولون : بَرَأْتُ من المرض بَرْءًا بالفتح. وأصبح فلان بَارِئاً من مرضه، وأَبْرَأَه الله من المرض»[2].

والوَصَبُ : المرض. وقد وَصِبَ يَوْصَبُ فهو وَصِبٌ، وأَوْصَبَه الله فهو مُوصَبٌ. والمُوَصَّبُ بالتّشديد : الكثير الأوجاع[3].

اللّمْسُ : المَسُّ باليد. وقد لَمَسَهُ يَلْمُسُهُ ويَلْمِسُهُ[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2025/5. مادة كم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 36/1. مادة برأ.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 233/1. مادة وصب.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 975/3. مادة لمس.

تعالى : ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾[1]؛ قال الأخفش : «إنْ فَسَّر "مائة" فجرّ، وإنْ فَسَّر "ثلاث" فنصب». وعلى أنّ لامه واو؛ يُقال : أَسْنَى القومُ يُسْنون إِسْنَاءً : لبثوا في موضعٍ سَنَةً. وأَسْنَتُوا : أصابهم جدب، قُلِب الواو تاءً للفرق بينهما. قال المازني[2] : «ولا يُقاس عليه»[3].

والسَّنَة الشَّهْبَاءَ : الّتي لا مطر فيها ولا نبات، وسَنَةٌ بيضاء وحمراء وغبراء وظلماء بمعنًى واحد[4].

والشُهْبَةُ : بياضٌ على سواد. وشَهِبَ – بالكسر – شَهَباً، وأشْتَهَبَ الرأسُ. وفرسٌ أَشْهَبُ، واشْهَبَّ اشْهِبَاباً، واشْهَابَّ اشْهِيبَاباً مثله. وغُرَّةٌ شَهْباءُ، فيها شَعَرٌ يخالف البياضَ. واشْهَابَّ الزّرعُ : هاج وفي خلاله شيءٌ أخضر. واليوم ذو الرِيح الباردة والصَقيع : أَشْهَبُ، واللّيلةُ شَهباءُ. وكتيبةٌ شَهْبَاءُ؛ لبياض الحديد. والنّصلُ الأشْهَبُ : بُرِدَ فذهب سَوادُه[5].

(1) سورة الكهف : من الآية 25.

(2) هو بكر بن مُحَمَّد بن بَقِيَّة – وَقيل: ابْن عدي – بن حبيب الإِمَام أَبُو عُثْمَان الْمَازِني، بَصرِي روى عَن أبي عُبَيْدَة والأصمعي وَأبي زيد، وَعنهُ الْمبرد وَالْفضل بن مُحَمَّد اليزيدي وَجَمَاعَة. وَكَانَ إِمَامًا فِي الْعَرَبيَّة، وَقد نَاظر الْأَخْفَش فِي أَشْيَاء كَثِيرَة فَقَطعه، وَله من التصانيف: كتاب فِي الْقُرْآن، علل النَّحْو، تفاسير كتاب سِيبَوَيْهٍ، مَاتَ فِي سنة تسع – أَو ثَمَان – وَأَرْبَعين وَمِائَتَيْنِ. انظر بغية الوعاه. السيوطي : 466/1.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2235/6. مادة سنه.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2235/6. مادة سنه.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 159/1. مادة شهب.

والدّعْوة : المرّة الواحدة، والدُّعَاء واحد الأدْعِيَة، وأصل همزته واو. دَعَوْتُ الله له وعليه، دُعَاءً. ويُقال للمرأة : أنتِ تَدْعِينَ، وتَدْعُوِينَ، وبالإشمام. ولجماعة الرّجال والنّساء : تَدْعُونَ[1].

وحَكَت؛ أيْ شَابَهَت، وحَكَيْتُ فِعْلَهُ وحاكَيْتُهُ : فعلتُ مثل فِعْلِهِ. والمُحَاكاةُ : المشابَهَةُ. وفلان يَحْكِي الشّمسَ حُسْناً ويُحَاكِيها بمعنىً[2].

غُرَّة القوم : بضمّ الغين وشدّ الرّاء سيّدهم، والجمع غُرَرٌ، وغُرَّةُ المال الخيل والعبيد؛ أيْ أفضله وأحسنه، وغُرَّةُ كلّ شيء : أفضله. وغُرَّةُ الفرس : بياض في جبهته. وبه قَصَد النّاظم تشبيه السَّنَة الّتي أُحيِيَت بدعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين السّنين.

وقال الجوهري : «الغُرَّةُ : بياضٌ في جبهة الفرسِ فوق الدِّرهم. وفرسٌ أغَرُّ. والأغَرُّ : الأبيضُ. وقومٌ غُرَّانٌ. ورجل أغَرّ : شريف. والغُرَرُ: ثلاث ليالٍ من أوّل الشّهر. و "غُرَّةُ عبدٍ أو أمَة"[3]؛ كأنّه عبّر عن الجسم كلّه بالغُرَّة»[4].

العَصْر : الدَّهْر، وهو كَوَزْنِه، ويُقال : بضمّ العين أيضاً، وبضمّها مع ضمّ الصّاد. ويُجمع في القلّة أَعْصُر وأَعْصَار، وفي الكثرة عُصُور. والعَصْرانِ : الغداةُ والعَشيّ. ومنه سُمّيت صلاة العَصْرِ. وهما أيضاً اللّيل والنّهار؛

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2336/6. مادة دعا.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2317/6. مادة حكى.

(3) يشير إلى الحديث النبوي الذي رواه الترمذي وغيره عن حَجَّاجِ الأَسْلَمِيِّ مرفوعا. انظر سنن الترمذي في الرضاع. بَابُ مَا جَاءَ مَا يُذْهِبُ مَذَمَّةَ الرَّضَاعِ.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 767/2. مادة غرر.

قال حميد بن ثَور[1] :

ولن يَلبَثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تَيَمَّما[2]

الدُّهْم : بضمّ الدّال، وسكون الهاء، ويجوز ضمّها اتّباعاً، جمع أَدْهَمُ، وهو الأسود. قيل : ويُروى البُهْم، جمع البَهِيم. وفرس بَهِيم للذّكر والأنثى؛ أيْ مُصْمَتٌ، لا يخالط لونَه شيءٌ، فهو ذو اللّون الواحد. وجمعه بُهُمٌ؛ كرَغِيف ورُغُف. والأوّل أظهر. وقال الأصمعي : «أثر أَدْهَمُ: جديد، وأثر أَغْبر : قديم». وقال غيره : أثر أدْهَمُ : قديم دارس؛ قال[3] :

وفي كلّ أرْضٍ جِئْتَها أنتَ وَاجِدٌ بها أثَراً مِنها جَديداً وأدْهَمَا[4]

فهو على هذا مِن الأضداد.

وقال الجوهري : «الدُّهْمَةُ : السّوادُ. ففرسٌ أو بعيرٌ أَدْهَمُ، وناقةٌ دَهْماءُ : اشتدّت وُرْقَتُهُ حتّى ذهب البياض الّذي فيه. فإنْ زاد واشتد السّواد فجَوْنٌ. وادْهَمَّ الفرسُ ادْهِماماً : صار أَدْهَمَ، وادْهَامَّ الشّيء ادْهِماماً؛ أيْ اسودَّ. ومنه : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾[5]؛ أيْ سَوْدَاوَان من شدّة

---

(1) هو حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري، أبو المثنى (.. - نحو 30هـ = .. - نحو 650م). شاعر مخضرم. عاش زمنا في الجاهلية. وشهد حنينا مع المشركين. وأسلم ووفد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومات في خلافة عثمان. وقيل : أدرك زمن عبد الملك بن مروان. انظر الأعلام. الزركلي : 283/2.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 748/2. مادة عصر.

(3) لم أقف على قائل هذا البيت.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1924/5. مادة دهم.

(5) سورة الرحمن : الآية 64.

الخُضرة من الريِّ. والعرب تقولُ لكلِّ أخضر أسْوَدُ. وسُمِّيت قرى العراق سَوَادًا؛ لكثرة خضرتها»[1].

والعارض : السّحابُ يعترض في الأفق؛ ومنه : ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[2]. [3]. والمادّة عريضة.

وجادَ : كثُر مطره، ومنه أصابتها سماءٌ جَوْدٌ، والجَوْدُ : المطر الغزير. وجَادَ المطر جَوْداً، فهو جائِدٌ، والجمع جَوْدٌ؛ كصَاحب وصَحْب. وهاجتْ لنا سماءٌ جَوْدٌ، ومُطِرنا مَطْرَتَيْنِ جَوْدَينِ. وجِيدَت الأرضُ، فهي مَجُودَةٌ[4].

وخِلْتُ : ظَنَنْتُ. خَيْلاً، وخيلَةً، ومَخيلَةً، وخَيْلولَةً، وفى المثل : "مَن يسمع يَخِل"؛ أيْ يظنّ. والمضارع إخَالُ بكسر الهمزة، وهو الأفصح، ويفتحها بنو أسد، وهو القياس. وأَخالَ الشّيءُ : اشتبَهَ. وأمرٌ لا يُخِيلُ. وخَيَّلْتُ للنّاقة وأَخْيَلْتُ : وضَعتَ قُرْبَ ولدها خَيالاً لئلاّ يقربَه الذّئب. وفلانٌ يمضي على المُخَيِّلِ؛ أيْ ما خَيَّلْتَ؛ أيْ شَبَّهْتَ، يعني على غَرَرٍ لا يقين. وخُيِّلَ إليه مبني للمفعول : من التَّخْييل والوَهْم. وأَخَلْتُ فيه خَالاً من الخَيْر، وتَخَوَّلْتُه فيه : تفرّسته فيه. وتَخَيَّلَ لي أنّه كذا؛ أيْ تَشَبَّهَ وتَخايَلَ. وتَخَيَّلْتُهُ فَتَخَيَّلَ؛ كتحقّقتُه فتحقّق[5].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1924/5. مادة دهم.
(2) سورة الأحقاف : من الآية 24.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1082/3. مادة عرض.
(4) انظر الصحاح. الجوهري : 461/2. مادة جود.
(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1691/4. مادة خيل.

والأَبْطَحُ : مَسِيلٌ واسِعٌ فيه دِقاقُ الحَصى. والجمع الأَباطِحُ والبِطاحُ أيضاً - على غير قياس - وبِطَاحٌ بُطَّحٌ؛ كأَعْوَام عُوَّم. والبَطيحَةُ والبَطْحاءُ مثل الأَبْطَح؛ ومنه بَطْحاءُ مَكّة. وبَطائحُ النَّبَط بين العراقيْن. وتَبَطَّحَ السّيلُ : اتَّسَع في البَطْحاء[1].

السَيْبُ : مصدر سَابَ الماء يَسِيبُ؛ أيْ جَرى. والسِيبُ بالكسر : مجرى الماءِ. وانسَابَ فلانٌ نحوَكم؛ أيْ رجع. وانسَابَتْ الحَيَّةُ : جَرَتْ[2]. اليَمُّ : البحرُ، ويُمَّ الرّجلُ، فهو مَيْمُومٌ : طُرِح في البحر[3].

والسَيْلُ : واحد السُيولِ. وسالَ الماء وغيره سَيْلاً وسَيَلاناً، وأَسالَهُ غيره وسَيّلَهُ أيضاً. ومَسيلُ الماءِ : موضع سَيْلِهِ، والجمع مَسايِلُ، ويُجمع أيضاً على مُسُلٍ وأَمْسِلَةٍ ومُسْلانٍ على غير قياس؛ لأنّ "مَفْعِلاً" لا يُجمع على ذلك، لكن شبّهوه بـ "فَعِيل"؛ كرَغيف ورُغْف[4] وأَرْغِفَة ورُغْفَان. ويقال للمَسِيلِ أيضاً مَسَلٌ بالتّحريك[5]. وقيل في قوله تعالى : ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾[6] : إنّ الْعَرِم حجارة مركومة عقدوها لحبس الماء. وقيل : الْعَرِم اسم الوادي، وقيل : المطر الشّديد. وقيل : الجرذ الّذي ثقب عليهم السدّ. والْعَرِم بلسان اليمن الْمُسَنَّاةُ، لا واحدة لها من لفظها، ويقال : واحدتها عَرَمَة[7].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 356/1. مادة بطح.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 150/1. مادة سيب.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2064/5. مادة يمم.

(4) في لسان العرب : "أَرْغُف" بدا "رُغْف". انظر لسان العرب : 351/11.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1733/5. مادة سيل.

(6) سورة سبأ : من الآية 16.

(7) انظر معاني العرم في الجامع لأحكام القرآن. القرطبي : 285/14 و286.

التَّفْسِيْرُ

[بعض ما ظهر على يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المعجزات]

لمّا كان قوله : "وَلا نَبِيٍّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ" يتضمّن صدقه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في كلّ ما أخبر به، عقّب ذلك بذكر بعض ما ظهر على يديه من المعجزات الدّالة على صدقه، فقال : كثيرًا ما أَبْرأَت المرضَ راحتُه؛ أيْ كفّه، بمجرّد اللّمس الصّادر منه بها للمرض المذكور.

وقوله : "وأَطْلَقَتْ"؛ أيْ وكثيرًا ما أطلقت راحتُه "أرِباً"؛ أيْ حلّت عُقَدًا كائنة تلك العقد من "رِبْقة اللّمم"؛ أيْ من عُقَد حبل الجنون التّي يربطون بها الآدميّين، وهذا على سبيل الاستعارة والتّشبيه؛ لأنّ الجانّ لمّا كان يخنق الآدميّ، ومحل الخنق العنق، فشبّه فعله ذلك بالآدميّين بالحبل الّذي فيه عُرى، يدخل في تلك العُرى أعناق الخرفان لئلاّ تذهب، فمَن شفاه الله من الجنون ببركة لمس النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إيّاه براحته، فقد أطلقت عنه عقدة الجانّ، وأشبه مَن حلّ عقدة الحبل من عنق الخروف فذهب عند ذلك. ويحتمل أنْ يكون المعنى : وأطلقت ذا عُقَد من رِبْقة الجنون عُقد فيها، وتقدّم في الغريب ما شرح به بعضهم هذا اللّفظ.

وإنْ فسّرنا "اللَّمَم" بالذّنوب والمعاصي، فالمعنى : كثيرًا ما أطلقت راحته عقدًا من رِبْقة حبل الكفر، أو ذا عُقد من رِبْقة حبل الكفر عُقد فيها، ثمّ أصبح منها محلولاً ببركة مسّه بكفّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتكون الإشارة بذلك إلى مثل قصّة الّذي[1] نوى قتله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(1) هو فضالة بن عمرو.

ويكون "اللَّمَم" على هذا اسمًا لِما أَلَمَّ به الإنسان من حاجة، فإنْ صحّ كونه كذلك لغةً، وإلاّ فهو على المجاز والتّشبيه.

وقوله : "وأحْيَتِ.." البيت؛ أيْ وكثيرًا ما أحيت السَنَة الّتي أصابها الجدب، حتّى صار لون نباتها - ليُبسه من قلّة الماء - وقلّة الخضرة أَشْهب، أو حتّى صار لون وجه الأرض في زمانها - لقلّة النّبات فيه من أجل القحط - كأنّه أشهب، ويحتمل سبب تسميتها شهباء وجوها أُخَر. وقال بعضهم : «سمّاها بذلك؛ لدوام ظهور الشّمس فيها قبل الاستسقاء».

قلتُ : لو كان كذلك لسمّاها بيضاء.

"دَعْوَتُهُ"؛ أيْ دعاءه وتضرّعه إلى الله – تعالى - في أنْ يحيي الله تلك السّنَة بالمطر؛ لأنّها من قلّته تشبه الميّت، فاستجاب الله دعاءه، فنزل المطر، وحَيِيَت السَّنَة؛ بتبدّل حال الجَدْب فيها بحال الخَصْب، إلى أنْ كانت نسبة تلك السَّنَة - بما اشتملت عليه من الخَصْب - إلى سائر الأعصر الدُّهم؛ أيْ إلى أزمنة الخصب، نسبة الغُرَّة من كلّ شيء؛ وهي الأفضل منه.

وإنّما كانت أزمنة الخَصْب دُهُمًا؛ لشدّة خضرة النّبات فيها، وإلى هذا أشار بقوله : "حتّى حَكَتْ"؛ أيْ حَيِيَت بالخَصْب حتّى شابهت الأفضل في الأعصر الدُّهُم. أو يكون المعنى: فاشتهرت هذه السَّنَة بالحيَا والخَصْب، فكانت شهرتها في الأعصر الدُّهُم - وهي سِنوّ الخَصْب - شهرة غرّة الفرس الأدْهَم فيه، فتقدير لفظه على هذا : حتّى شابهت في الأعصر الدُّهم - لشهرتها فيها - غُرَّة الفرس الأدْهَم؛ لشُهرتها فيه. ويحتمل على بُعد تعلّق "حتّى" بـ "الشّهباء"؛ أيْ اشهابّت من

ذِكْرُ مَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الأَبْيَاتُ مِنَ الأَخْبَارِ

[إبراء المرض]

أمّا إبراء المرض الّذي مسّه بكفّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمن ذلك أنّ شُرَحْبيل الجُعْفي[1] كانت بكفّه سَلعة[2] تمنعه القبض على السّيف وعنان الدّابة، فشكاها للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما زال يطحنها بكفّه، حتّى رفعها، ولم يبق لها أثر[3]. وأُصِيب يوم أحد عينُ قتادة بن النّعمان[4]، حتّى وقعت على وجنته[5]، فردّها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت أحسن عَيْنيه[6]. وقطع أبو جهل يوم بدر يد

---

(1) قال ابن عبد البر : شرحبيل الجعفي. وَقَالَ بعضهم فيه : شراحيل. حديثه في أعلام النبوة في قصة السلعة التي كانت به، شكاها إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم، فنفث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضع يده عليها، ثم رفع يده، فلم ير لها أثر. روى عنه ابنه عبد الرحمن . انظر الاستيعاب. ابن عبد البر : 700/2.

(2) السلعة : هي غُدَّة تظهرُ بين الجلد واللَّحم إذا غُمِزت باليدِ تحرَّكَت.

(3) رواه الطبراني في الكبير : 306/7. رقم الحديث : 7215.

(4) هو قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الظفري الأوسي (.. - 23هـ = .. - 644م). صحابي بدري، من شجعانهم. كان من الرماة المشهورين. شهد المشاهد كلها مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت معه يوم الفتح راية بني ظفر. وتوفي بالمدينة وهو ابن 65 سنة. انظر الأعلام. الزركلي : 189/5.

(5) الوجنة : أعلى الخد.

(6) رواه ابن أبي شيبة عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ. انظر المصنف : 161/12. رقم الحديث : 33031.

فأخذها متعجّبًا - يَرَى أنْ قد هَزِئَ به - فأتاه بها، وهو على شفا، فشربها، فشفاه الله[1].

ومِن إطلاق راحته الأرِب مِنْ رِبْقَة اللَّمَمِ - الّذي هو الجنون - ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما : جَاءَتْ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا بِهِ جُنُونٌ، فَمَسَحَ صَدْرَهُ، فَثَعَّ ثَعَّةً - أيْ قَاءَ - فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ مِثْلُ الْجَرْوِ الْأَسْوَدِ[2].

وممّا يناسبه من بركة يده في إزالة هذا المرض ما رُوي أنّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَمٍ أتته وَمَعَهَا صَبِيٌّ بِهِ بَلاَءٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَأُتِيَ بِمَاءٍ، فَمَضْمَضَ فَاهُ، وَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَعْطَاهَا إيّاه، وأَمَرَهَا بِسَقْيِه، وَمَسِّهِ بِهِ، فَبَرِئَ الغُلاَمُ، وَعَقلَ عَقْلاً يَفْضُلُ عُقُولَ النّاسِ[3].

وممّا يناسب الباب في إبراء الأوصاب، إلاّ أنّه ليس بمسّ الكفّ؛ ما رُوي عن حَبِيب بْن فُدَيْكٍ[4] - أو فُوَيْكٍ - أنّ أباه ابْيَضَّت عَيْنَاه، فَكَانَ لاَ يُبْصِرُ بِهِمَا شَيْئًا، فَنَفَثَ رَسُولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عَيْنَيْهِ،

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 322/1.

(2) رواه الإمام أحمد. انظر المسند : 241/4. رقم الحديث : 2418. والحديث إسناده ضعيف.

(3) رواه ابن ماجه عن أُمِّ جُنْدَبٍ في الطب. بَاب النُّشْرَةِ. والحديث ضعيف.

(4) قال ابن عبد البر : حبيب بن فديك، أبو فديك ويقال حبيب بن فويك، اضطرب في حديثه، روت بنت أخيه أن رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا له وهو أعمى مبيضة عيناه، فأبصر، وكان يدخل الخيط في الإبرة. يختلف في حديثه. انظر الاستيعاب. ابن عبد البر : 322/1.

[إحياء السّنَة الشّهباء بدعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وأمّا إحياء السّنَة الشّهباء بدعائه؛ فذلك ما لا يُحصى كثرةً؛ من ذلك حديث أنس المشهور المذكور في الصّحيحَين وغيرهما، حتّى لقد رواه البخاري عن أنس من نحو ثمانية طرق؛ منها عن إِسْحَاق بْن عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ[1] عن أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ: أَصَابَتْ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فقَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَ الْمَالُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا. فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَيْهِ، وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ. قَالَ : فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ، حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ. قَالَ : فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ ومنَ الْغَدِ وَمِنْ بَعْدِ الْغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى، فَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ – أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ، وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَيْهِ، فَقَالَ : «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا**». قَالَ : فَمَا جَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْ السَّمَاءِ، إِلَّا تَفَرَّجَتْ، حَتَّى صَارَتْ الْمَدِينَةُ فِي مِثْلِ الْجَوْبَةِ، حَتَّى سَالَ الْوَادِي قَنَاةَ شَهْرًا. قَالَ : فَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ، إِلَّا حَدَّثَ بِالْجَوْدِ[2].

---

(1) هو إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ زَيْدُ بْنُ سَهْلِ الأَنْصَارِيّ النَّجَّارِيّ. أَحَدُ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَالِكٌ لا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا، وَهُوَ مُجمَعٌ عَلَى الاحْتِجَاجِ بِهِ. تُوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ، وَقِيلَ : سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاثِينَ. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 612/3.

(2) انظر صحيح البخاري في الجمعة. بَاب الِاسْتِسْقَاءِ فِي الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وانظر صحيح مسلم في الاستسقاء. بَاب الدُّعَاءِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ.

وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ، جِئْتَ تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ. فَقَرَأَ : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[1]. ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[2]؛ يَوْمَ بَدْرٍ. وَزَادَ أَسْبَاطٌ[3] عَنْ مَنْصُورٍ : فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسُقُوا الْغَيْثَ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ. قَالَ : «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا». فَانْحَدَرَتْ السَّحَابَةُ عَنْ رَأْسِهِ، فَسُقُوا النَّاسُ حَوْلَهُمْ[4].

ووجدت في نسخة من كتاب رزين[5] - وأحاديثه إنّما هي من الموطّأ والصّحيحين وسنن أبي داود والتّرمذي والسّنن الكبرى للنّسائي - في حديث من أحاديث الاستسقاء ما نصّه : واتّفق حديث محمّد بن

---

(1) سورة الدخان : الآية 10.

(2) سورة الدخان : الآية 16.

(3) هو أَسْبَاط بن أبي عَمْرو واسْمه مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن. وَيُقَال ابْن أبي عبد الرَّحْمَن، مَاتَ فِي أول سنة 200ه. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 4/ 1067.

(4) انظر صحيح البخاري في الجمعة. بَاب إِذَا اسْتَشْفَعَ الْمُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْقَحْطِ.

(5) هو رزين بن معاوية بن عمار العبدري السرقسطي الأندلسي، أبو الحسن (..- 535هـ =...- 1140م). إمام الحرمين. نسبته إلى سرقسطة. جاور بمكة زمناً طويلاً، وتوفي بها. له تصانيف، منها (التجريد للصحاح الستة). انظر الأعلام. الزركلي : 20/3.

أقول : وعلى كتابه "التجريد" اعتمد مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير في تصنيف كتابه جامع الأصول في أحاديث الرسول. ولقد وقفت على نسخة مخطوطة من كتاب رزين، ولم أقف على هذا النص فيها في باب الاستسقاء. وهي نسخة نفيسة بمكتبة كوبريلي بتركيا كتبت سنة 611 هـ تحتوي على النصف الأول من الكتاب.

مسلم[1] وحديث عائشة أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمّا حَوَّلَ رِدَاءَهُ بعد أنْ استقبل القِبْلة، دَعَا الله تعالى، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ بوَجْهِهِ، وَأَتمَّ بَاقِي خُطْبَته، ثمّ نَزَلَ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابة فَأرعَدَتْ وَأبرَقَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ. فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ، فأسرعوا إِلَى الْكِنِّ، فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ، ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثمّ قَالَ : «**أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»[2].

وفي حديث عمر - رضي الله عنه - في جيش العُسرة، وذكر ما أصابهم من العطش، حتّى إنّ الرّجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه، فيشربه، فرغب أبو بكر إلى النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الدّعاء، فرفع يديه، فلم ترجعَا، حتّى قالت السّحاب، فانسكبت، فملئوا ما معهم من آنية، ولم تجاوز العسكر. ذكره القاضي في "**الشّفا**"[3].

ورُوي أنّ أهل مكّة تتابعت عليهم سِنوّ جَدْب، فاستسقى بهم عبد المطّلب، فقام، فاعتضد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرفعه على عاتقه، وهو يومئذٍ غلام قد أيفع، ثمّ قال : اللَّهُمَّ سَادَّ الْخَلَّةِ، وَكَاشِفَ الْكُرْبَةِ، أَنْتَ عَالِمٌ غَيْرُ مُعَلَّمٍ، ومَسْئُولٌ غَيْرُ مُبْخِلٍ، وهَذِهِ عِبَادُكَ وَإِمَاءُكَ

---

(1) هو مُحَمَّد بن مُسلم بن عبيد الله بن عبد الله الزُّهْرِيّ الْقرشِي الْمدنِي أَخُو أبي مُحَمَّد عبد الله بن مُسلم. مَاتَ يَوْم سبع عشرَة من رَمَضَان سنة 124هـ. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 499/3.

(2) انظر الحديث في سنن أبي داود في الصلاة. بَاب رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ. والحديث حسن.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 290/1.

فقوله : "كُنَّا". يقتضي الدّوام.

ومثله أيضاً ما في البخاري عن ابن عمر : رُبَّمَا ذَكَرْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَسْقِي، فَمَا يَنْزِلُ، حَتَّى يَجِيشَ كُلُّ مِيزَابٍ : وَأَبْيَضَ.. البيت[1]. فقوّة هذا يقتضي التّكرار. وإنّما أطنبنا في هذا بعض الإطناب؛ لأنّ بعضهم قال : «قوله : "وأحْيَتِ" معطوف على "كَمْ"، ولا يصحّ عطفه على "أبْرَأتْ"؛ لأنّه يردّه اللّفظ والمعنى : أمّا اللّفظ؛ فللزوم كون "السَّنَة" تمييزًا. ولا يصحّ؛ لأنّه معرفة. وأمّا المعنى؛ فلأنّ إحياء السَّنَة بدعوته؛ إنّما اتّفق مرّة واحدة، وعطفه على أبْرَأتْ" يؤذن بالتّكثير». انتهى.

قلتُ : أمّا قوله "يلزم أنْ تكون السَّنَة تمييزًا"، فليس كذلك، بل هو مفعول. وأمّا قوله "يلزم في المعنى أنْ يكون ذلك كثيرًا"، وإنّما وقع مرّةً"؛ فدعوى هذا الحصر جسارة عظيمة، وأنت ترى ما نقلنا من ذلك من كتاب البخاري وحده، فكيف بما تضمّنته مَسانِدُ الأئمّة؛ ممّا لا يُحصى عدد تلك المسانِد، فضلاً عمّا تضمّنته من أحاديث إجابة دعائه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الاستسقاءات. ولولا قصد الإيجاز، ورجاء الإتمام من هذا التأليف - إنْ شاء الله بفضله - والإنجاز، لأريتُكَ من ذلك ما تقرُّ به العينُ، وينزاحُ - بسببه - الرّيبُ والمَيْن[1].

---

(1) انظر صحيح البخاري في الجمعة. بَاب سُؤَالِ النَّاسِ الْإِمَامَ الِاسْتِسْقَاءَ إِذَا قَحَطُوا.

(1) المين : الكذب. ولهذا يقال : "أكثر الظنون ميون". ونحمد الله أنه لم يطل النَّفَس في كثير من المواضع في تأليفه هذا، حتى وفقه الله وأتمه، فلقد عاجلته المنية، ولم يتم المطولات من مصنفاته؛ كشرح مختصر خليل وصحيح البخاري.

هذا إنْ وقفنا مع إحياء السَّنَة الشّهباء بدعوته، وإنْ قلنا : المراد الإشارة إلى استجابة دعائه، وظهور معجزته في إيجاد الماء عند الحاجة إليه، فأحاديث نبع الماء بين أصابعه متواترة المعنى، إنْ لم تكن متواترة اللّفظ مع ذلك، ومَن أراد تصحيح ذلك، فليتتبّع أحاديث البخاري في ذلك[1]، وما تضمّنه ذلك الفصل من كتاب "الشّفا"، والعلم لا يُنال براحة الجسم، وذَكر في "الشّفا" عن عمرو بن شعيب أنّ أبا طالب قال للنّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو رديفه بذي المجاز : عَطَشت، وليس عندي ماء. فنزل النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضرب بقدمه الأرض، فخرج الماء، فقال : «**اشْرَبْ**». صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

---

(1) منها حديث أنس : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ، فَأُتِيَ بِقَدَحٍ رَحْرَاحٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ. قَالَ أَنَسٌ: فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ. قَالَ أَنَسٌ : فَحَزَرْتُ مَنْ تَوَضَّأَ مَا بَيْنَ السَّبْعِينَ إِلَى الثَّمَانِينَ. رواه البخاري عن أنس في الوضوء. بَاب الْوُضُوءِ مِنْ التَّوْرِ.

ومنها حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ : عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ : «**مَا لَكُمْ**» قَالُوا : لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ. فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا. قُلْتُ : كَمْ كُنْتُمْ. قَالَ : لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً. رواه البخاري عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ في المناقب. بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ.

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 290/1.

الإتيان بـ "كَم" للدلالة على كثرة وقوع تلك المعجزات منه. وتنكير "وَصِبًا" و"أرِباً" للتّعظيم. و«أل» في "اللّمس" و"اللّمَم" للحقيقة. وإضافة "راحة" للاختصاص، وتقديم "وَصِبًا" عليه للاهتمام بشأنه. وقوله : "مِن رِبْقة" إيضاح لإبهام "أرِباً"؛ فهو من الإطناب.

و «أل» في "السَّنَة"؛ الأَولى كونها جنسيَّة، وإضافة "دعوة" وتأخيرها عن "السَّنَة" كـ "راحة". والأَولى عطف "أَطلَقت" و"أَحيَت" على "أبْرَأَتْ"؛ ليدخلا في مقتضى التّكثير، لا على "كَم". وتنكير "غُرَّة" للنّوعية. و«أل» في "الأعْصُر الدُّهم" للجنس أو العموم وهو الأظهر؛ ليفيد أنَّ خَصْب هذه السَّنَة يُعهد مثله في جميع سِنيّ الخَصْب؛ إمّا في تلك البلاد، أو مطلقاً. ولو قال : "في أعْصُرٍ دُهُم" بالتّنكير؛ لفات هذا المعنى. وزعم بعضهم أنّ التّنكير حسن في هذا المقام.

وتنكير "عَارض" للتّعظيم أو النّوعية. وأتى بـ "أو" وإنْ كانت بمعنى الواو؛ إمّا لإقامة الوزن، أو ليُوهم أنّ النّاظر يتشكّك - لكثرة الماء الكائن على سطح الأرض - في اعتقادٍ أنّه من العارض أو من البحر أو من السدّ. وإذا كانت "أو" على حقيقتها، ففي الكلام ترقٍ بحسب العادة؛ لأنّ ما يستنقع في الأرض غالباً من ماء المطر أقلّ من الّذي يصعد فيها من البحر، وهذا الصّاعد من البحر أقلّ من الّذي يسيح فيها عند انفجار الأسداد، كما في جسور النّيل إذا كُسرت؛ لأنّ الصّاعد من البحر ليس على وِفق طبيعة الماء؛ لأنّه يطلب مركز السُّفل بطبعه، فلا يخرج عنه إلاّ

اَلْبَيَانُ

إسناد "الإبراء" و"الإطلاق" إلى "راحته" من المجاز العقلي، ويجوز أنْ يكون - مع ذلك - من مجاز الحذف؛ أيْ ببركة مسّ راحته، فهو مجاز في مجاز.

وإسناد "البُرء" إلى "الوَصَب" و"الإطلاق" إلى "الأرِب"؛ إمّا حقيقة، أو من مجاز الحذف؛ أيْ ذا وَصَب، وذا أَرَب، أو من تسمية صاحب الوصَب باسمه، وصاحب الأَرَب باسمها، أو يكون من الاستعارة بالكناية؛ بأنْ يُشبَّه ذا الأَرَب - إنْ كان الكلام على حذف مضاف، على اختلاف التّفاسير في ذي الأَرَب - بخَرُوفٍ لم يُذكر، وذكر من لوازمه الرِّبْقة، إلاّ أنّها تجريديّة؛ لأنّها قُرنت بما يلائم المستعار له؛ وهو اللَّمَم - على اختلاف التّفاسير فيه أيضاً - والجامع في هذه الاستعارة - إنْ كان المراد باللَّمَم الجنون - كون المجنون يشبه صوتُه وغَطِيطه عند الخَنق صوتَ الخروف، أو المراد الصّبيان الصّغار، كما أشار إليه بعضهم، وإنْ كان المراد ذا الحاجة، فالجامع كون صاحب الحاجة يريد التفلّت إليها، ولا يجد، كإرادة الخروف التفلّت من الرِّبْقة لرضاع أو رَعْي ولا يقدر، فإذا أُطلقا تخلّصا، ووثاق الآثام المانعة من الخيرات أشدّ من هذا كلّه، إنْ كان المراد المعاصي.

وإسناد "الإحياء" إلى "الدّعوة" مجاز عقلي، وكذا إلى "السَّنَة"؛ لأنّه من الإسناد إلى السّبب، وكذا الإسناد إلى "الرّاحة".

وتسمية "السَّنَة" "شهباء"؛ إمّا حقيقة باعتبار أنّ الجوّ يَغْبَرّ فيها، وإمّا على التّشبيه. وكذا وصف "الأعْصُر" بـ "الدُّهُم". وأمّا إطلاق "الغُرّة"

عليها فمن التّشبيه، لا الكناية؛ لأنّ لفظة "حَكَت" بمعنى شابهت، والاستعارة مبناها على تناسي التّشبيه كما قدّمنا غير مرّة. وتأمّل كلام بعضهم في هذا البيت، فإنّه مع التثبّت لا يثبت.

وإسناد "جاد" إلى ضمير "العارض"؛ الظّاهر أنّه مجاز، سواء كان بمعنى الإمطار كما تقدّم في تفسيره لغةً، أو بمعنى التّكرّم.

وفي كلام بعضهم ما يقتضي أنّ "سيْبًا" المراد به العطاء؛ أيْ كأنّ البطاح ذات عطاء من البحر؛ أيْ كأنّه أعطاها ماءً عذبًا.

قلتُ : معنى السَّيْب لغةً الجريان كما تقدّم، وما قاله إنْ صحّ، يكون هاهنا بمعنى ما أُعطِيَتْه الأرض من النّبات، فسُمِّيَ عطاءً مجازًا في المعنى وفي اللّفظ؛ لأنّ المصدر بمعنى المفعول.

في "أبْرَأَتْ" و"وصِبًا" مراعاة النّظير، وكذا في "اللّمس" و"راحته"، وكذا في "أطلقت" و"أَرِبًا"و "رِبْقة"، وكذا "أبْرَأَتْ" و"أطلقت"، وكذا "وصِبًا" و"لممًا"، وفي هذين الموازنة. وقوله "أبرأت وصباً" موازن لـ "أطلقت أَرِباً". وفي البيت الجمع؛ لجمعه بين "الوصب" و"اللّمَم" في إبراء كفّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منهما. وجمع "الإحياء" و"السَّنَة" و"الدّعوة" من مراعاة النّظير، وكذا "السَّنَة" و"الأغْصُر"، وكذا "الشّهباء" و"الغُرّة" و"الدُّهُم". وفي "الشّهباء" و"الدُّهُم" الطّباق، وكذا الجمع بين "السَّنَة الشّهباء" و"الإحياء"، وبينهما أيضاً وبين "الأغْصُر الدُّهُم" إنْ كان المراد بها سِنِيّ الخَصْب. وفي البيت الثّاني التّدبيج.

[حقيقة التّدبيج]

وهو : «أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْنَى المَدْحِ أَوْ غَيْرِهِ أَلْوَانٌ لِقَصْدِ الكِنَايَةِ أَوْ التَّوْرِيَةِ»[1]. فمن تدبيج الكناية قول أبي تمّام[2] :

تَرَدَّى ثِيابَ المَوْتِ حُمْراً فما أَتَى ... لَها اللَّيلُ إلاّ وهْيَ مِن سُنْدُسٍ خُضْرُ

وقوله[3] :

إِنْ تُرِدْ عِلْمَ حَالِهِمْ عَنْ يَقِينٍ ... فَالقهمْ يَومَ نَائِلٍ أَو نِزَالِ

تلقَ بيضَ الوُجُوهِ سُودَ مثارِ الـ ... ـنَّقْعِ خُضْرَ الأَكْنافِ حُمْرَ النِّصَالِ

ومن تدبيج التوّرية لفظ "الأصفر" في قول الحريري[4] : «فمُذْ ازْوَرّ المحْبوبُ الأصفَرُ. واغْبرّ العيشُ الأخضَرُ. اسوَدّ يوْمي الأبيضُ. وابيَضّ فَوْدي الأسوَدُ. حتى رثَى ليَ العدوّ الأزرَقُ. فحبّذا الموتُ الأحمَرُ!»[5].

وهو في كلام النّاظم من الأوّل؛ إذ "الشّهباء" كناية عن السَّنَة المجدبة، و "الدُّهُم" كناية عن سِنيّ الخَصْب على الأصحّ.

---

(1) انظر الكليات. أبو البقاء الكفومي : ص 474.

(2) انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 228/3.

(3) انظر البيتين في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 181/7.

(4) هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (446 - 516هـ = 1054 - 1122م). الأديب الكبير، صاحب المقامات الحريرية. مولده بالمشان (بليدة فوق البصرة) ووفاته بالبصرة. ونسبته إلى عمل الحرير أو بيعه. انظر الأعلام. الزركلي : 177/5.

(5) انظر المقامات. الحريري : ص 126.

وفي قوله : "جاد" نوع احتِراس؛ لأنّ العارض قد يكون مهلكًا. وقد يكون الاحتراس في قوله "أَحيَت". ولفظ "عارض" و"جاد" من مراعاة النّظير، كذا هما و"البطاح" و"السَّيْب" و"السَّيْل" و"اليَمّ" و"العَرِم"، وبالجملة ألفاظ البيت الثّالث كلّها من ذلك.

وقد يُقال : إنّ "عارضًا" و"البطاح" من الطّباق؛ للتّضاد بينهما. وفي "سَيْب" و"سَيْل" التّجنيس اللاّحق، وهو النّاقص منه؛

[حقيقة التّجنيس اللاّحق]

لأنّه : «اخْتِلاَفُ الكَلِمَتَيْنِ فِي حَرْفٍ مُتَقَارِبٍ»[1]، ومقابله المضارع كما تقدّم[2]، وهذا الحرف قد يكون في الأوّل أو الوسط أو الآخر؛ كالّذي هنا، فإنّ الياء لا تقارب اللاّم في المخرج؛ ومنه : ﴿ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ ﴾[3].

وقوله[4] :

هل لِمَا فَاتِ مِنْ تَلاَقٍ تَلاَف؟ أَمْ لِشَاكٍ من الصَّبَابَةِ شَافِ؟

وأظنّ هذا تقدّم لنا[5].

وقوله : "من اليمّ" موازن لقوله : "سَيْلِ مِن العَرِمِ".

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 357.

(2) وذلك في شرح أول أبيات القصيد.

(3) سورة النساء : من الآية 83.

(4) هو البحتري. وسبق توثيقه.

(5) وذلك في شرح قول الناظم : فما لِعَينيك إن قُلتَ اكْفُفَا هَمَتَا.. البيتين.

الْإِعْرَابُ

كم : خبريَّة للتّكثير في محلّ نصب على الظّرف؛ لأنّ تمييزها ظرف، حَذْفه للعِلم به؛ أيْ كم مرّة، والخبريَّة تشبه "رُبَّ" في الافتخار والمباهاة، فلذلك بُنيت، وتمييزها مخفوض بالإضافة، ولها صدر الكلام عند الجمهور[1]، فلا يعمل فيها إلاّ ما بعدها، وهو هنا "أَبْرَأت"، وهو ماضٍ، وعلامة تأنيث الفاعل.

ووصِبًا : مفعوله، ويحتمل أنْ يكون "وصبًا" تمييزًا لـ "كم"، وإنّما نُصب لفصله منها، وحملاً على الاستفهاميّة، وإلاّ فحقّه الجرّ بإضافتها إليه كما قلنا، أو بـ "من" محذوفة على الرّأيَين. ومفعول "أَبْرَأَت" على هذا ضميرٌ عائدٌ على التّمييز، وحُذف منه، وفيه نظر، فالوجه الأوّل أَولى.

باللّمس : متعلّق بـ "أَبْرَأَت"، وباءه للسّببية. وراحته : فاعله.

وأطلقت : عطف على "أَبْرَأَت". وفاعله ضمير "الرّاحة". وقال بعضهم : «يصحّ عطفه على "كم"، ولا يكون فيه دليل على كثرة الإطلاق». وأربًا : مفعول "أطلقت". ومن رِبْقة : متعلّق به، و"من" لابتداء الغاية، أو يكون المجرور صفة لـ "أربًا".

وأحيت : عطف على "أَبْرَأَت"، أو على "أطلقت".

والسّنَة : مفعول. والشّهباء : نعته.

---

(1) قال ابن السراج : "رُبَّ" حرف جر، وكان حقّه أنْ يكون بعد الفعل موصّلاً له إلى المجرور كأخواته، لكن لمّا كان معناه التقليل، وكان لا يعمل إلاّ في نكرة صار مقابلاً لـ "كم" إذا كانت خبرًا، فجُعل له صدر الكلام، كما جُعل لـ "كم". انظر شرح التسهيل. ابن مالك : 176/3.

ودعوته : فاعل ومضاف إليه. وحتّى : حرف غاية متعلّق بـ "أَحْيَت". وحكت : ماضٍ، وعلامة تأنيث، وفاعله ضمير يعود على "السّنَة". وغرّة : مفعوله. وفي الأعصر : متعلّق به، أو صفة لـ "غُرّة".

والدُّهم : نعت لـ "الأَعْصُر". وبعارض : يتعلّق بـ "أحيت" أو بـ "حَكَت". والباء سببيّة، ويجوز أنْ يكون حالاً من "دعوته"، والباء للمصاحبة، وهو حسن؛ لأنّ نزول المطر استصحب دعاءه. ولذا قال الرّاوي: «فرَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1]. وقال ابن عمر : «فَمَا يَنْزِلُ عَنِ المِنْبَر، حَتَّى يَجِيشَ كُلُّ مِيزَابٍ»[2]. وجاد : صفة "عارض"، وفاعله ضميره. أو خِلت : تقدّم أنَّ "أو" بمعنى الواو، ولا يطّرد ذلك فيها.

وقال ابن جنّي[3] : «إنّ هذا من تدريج اللّغة : أنْ يُشْبِه شيء شيئاً، فيُمْضى حكمه على الأوّل، ثمّ يتعدّى منه إلى غيره؛ نحو : جالِسِ الحسنَ أو ابنَ سيرين. فلو جالسهما أطاع، وإنْ كانت "أو" في الوضع لأحد الشّيئين. لكن القرينة؛ وهي أنّ التّرغيب في مجالسة الحسن لفضله، وهو موجود لابن سرين، فكأنّه قال : جالِسْ هذا الضّرب. ثمّ تدرّجوا، فأجروها مجرى الواو في غير هذا المعنى». انتهى[4].

---

(1) سبق تخريج الحديث قريبا.

(2) سبق تخريج الحديث قريبا.

(3) هو عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح (.. - 392هـ = .. - 1002م). من أئمة الأدب والنحو، وله شعر. ولد بالموصل وتوفي ببغداد، عن نحو 65 عاما. وكان أبوه مملوكًا روميًا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي. انظر الأعلام. الزركلي : 204/4.

(4) انظر الخصائص. ابن جني : 347/1.

[مبايعة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

كما أنّ راحته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُشفِي الله بها الأمراض، ويُطلق بها من رِبْقة الجنون إذا مسّ ذلك بها، فكذا مبايعته[1] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسلام؛ يُشفي الله بها من أوصاب الآخرة؛ الّتي هي - والعياذ بالله - مرض لازب، وعذاب واصب، ويُطلق أيضاً بها من أغلال النّار، كما أطلق في الدّنيا من أغلال الجانّ؛ الذّي هو مخلوق من مارج من نار. وليست مبايعته بمقصورة على مَن لمس كفّه؛ لأنّ المقصود من مبايعته الوفاء بما جاء به، لا لَمْس كفّه، ولذا كان لا يُبايع النّساء إلاّ بإجابتهنّ إلى التزام الميثاق، فلا جرم لا تنقطع مبايعته إلى أنْ يرث الله الأرض ومَن عليها؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ إلى قوله : ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]. فمن أراد أنْ يَشْفى من أمراض الآخرة من لدن خروج روحه إلى دخوله الجنّة، وأنْ يُطلَق من أغلال النّار، فليُمَاسّ راحته؛ بأنْ يفي بما بايع عليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أمّته.

---

(1) لاحظ معي كيف وُفّق الإمام ابن مرزوق رحمه الله ورضي عنه إلى استعمال لفظ المبايعة دون غيرها من الألفاظ؛ وهذا لكي لا يبتعد عن المعنى الحسّي للفظي الرّاحة والمسّ، فإن في المبايعة المصافحة بالكفّين، الدالة على الوفاء والانقياد المعنوي.

(2) سورة الفتح : الآية 10.

[حياة القلوب بالتزام السنّة]

وكما أنّ دعوته يُحيي الله بها السَّنَة الشّهباء، حتّى تصير لخَصبها غُرّة في سِنيّ الخَصْب، فكذا مَن أجاب دعوته، والتزم سُنّته، يُحيي الله به أرض قلبه الميّتة، ويُنيله الله بسبب إقامته سُنّة نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الّتي دعا إليها - من الرُّتَب المَنيفة والمنازل الشّريفة، ما يصير به كالغُرّة في متّبعي السُنّة : قال لقمان لابنه : «يَا بُنَيَّ، جَالِسِ الْعُلَمَاءَ، وَزَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْك، فَإِنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ بِالْحِكْمَةِ؛ كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بِوَابِلِ الْمَطَرِ»[1].

---

(1) رواه ابن المبارك في كتابه الزهد : 487/1. رقم الأثر : 1387.

لَمَّا شَكَتْ وَقْعَهُ البَطْحَاءُ قَالَ لَه عَلَى الرُّبَى وَالهِضَابِ انْهَلْ وَانْسَجِمِ
فَأَدَّتْ الأَرْضُ مِنْ رِزْقِ أَمَانَتِهَا بِـإِذْنِ خَالِقِهَـا لِلْنَّـاس وَالـنَّعَمِ
وَأُلْبِسَتْ حُلَلاً مِنْ سُنْدُسٍ وَلَوَتْ عَمَائِمًا بِرُؤُوسِ الهَضْبِ وَالأَكَمِ
فَالنَّخْلُ بَاسِقَةٌ تَجْلُو قَلاَئِدُهَا مِثْلَ البَهَارِ عَلَى الخَدَّيْنِ وَالعَنَمِ
وَفَارَقَ النَّاسَ دَاءُ القَحْطِ وَانْبَعَثَتْ إِلَى المَكَارِمِ نَفْسُ النِكْسِ وَالبَرَمِ
إِذَا تَتَبَّعْـتَ آيَـاتِ النَّبِـيِّ فَقَـدْ أَلْحَقْـتَ مُنْفَخِمًـا مِنْهَـا بِمُـنْفَخِمِ
قُلْ لِلْمُحَاوِلِ شَأْوِي فِي مَدَائِحِه هِيَ المَوَاهِبُ لَمْ أَشْدُدْ لَهَا زِيَمِ
وَلاَ تَقلْ لِي بِمَاذَا نِلْتَ جَيِّدَه فَمَـا يُقَـالُ لِفَضْـلِ اللهِ ذَا بِكَـمِ
لَوْلاَ العِنَايَةِ كَانَ الأَمْرُ فِيهِ عَلَى حَدِّ السَّوَاءِ فَذُو نُطْقٍ كَذِي بُكمِ

[تعليق لابن مرزوق على صحة نسبة الأبيات للبوصيري]

هذه الأبيات التّسعة تقع في بعض نسخ البردة الّتي بالمغرب في هذا المحلّ، وليست بثابتة في روايتنا، وذكر بعض الثّقات مِن أصحابنا أنّ الّذي زادها في القصيد الإمام الفاضل أبو علي بن

الجيّاب الأندلسيّ الغرناطيّ[1] من شيوخ الإمام القاضي العالم الشّهير أبي العبّاس الشّريف الحسنيّ[2] شارح "**مقصورة حازم**" الشّرح البديع، وشارح "**قصيدة الخزرجي**" في العَروض، وله على "**تسهيل ابن مالك**" شرح سمّاه بـ "**قصد السّبيل في شرح التّسهيل**"، جنح فيه إلى الاختصار، وكنت سمعتُ أيضاً أنّ الأبيات لبعض الفاسيِّين، فالله أعلم. ولولا اشتهارها في النّاس منسوبة إلى هذه القصيدة المباركة، ما تصدّينا لشرحها، إذ لم تثبت في روايتنا كما فعلنا في "**الاستيعاب**"، وآثار المباينة بينها وبين النّظم ظاهر، فلذا ترى كلامنا عليها في الفصول خفيفًا[3].

---

(1) اتفقت النسخ الخطية التي بحوزتي على إسقاط اسم "الحسن" من الكنية، لكن وقفت على كلام للإمام الجادري الذي يؤكّد فيه أنه أبو الحسن علي بن الجياب، وكان الجادري معاصرًا للشيخ ابن مرزوق، حيث يقول : «أخبرني صاحبنا الفقه القاضي الحاج الخطيب أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي أن ناظمها هو الشيخ الكاتب أبو الحسن علي بن الجياب الأندلسي». انظر بردة البوصيري وأثرها في الأدب العربي القديم. محمد فتح الله مصباح : ص 264. فهو إذن أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان الأنصاري، الغرناطي (673 - 749هـ) (1274 - 1348م). وله قصيدة في مدح الرسول عليه السلام.

(2) لعله يقصد أحد أبناء الشريف التلمساني، فله ابنان نجيبان؛ أحدهما قاضي الجماعة أبو المعالي والآخر أبو العباس أحمد. والذي شرح الخزرجية ومقصورة حازم هو أبو المعالي وليس أبو العباس.

(3) أقول : الذي يقرأ البردة من أولها إلى آخرها يلمس روح الانكسار وهضم النفس واتهامها بالتقصير حتى في مدح الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يليق به، عكس من نلمسه في هذه الأبيات من الاعتداد بالنفس، والتفاخر بما أدته من مدح. إضافة إلى ذلك الإيغال في ذكر الطبيعة بثلاث أبيات (من البيت الثاني إلى البيت الرابع) حتى نأى عن المقصود، وهذا لم يُعهد من البوصيري في قصيدته البردة.

وبعضهم أضاف إليها قوله : "كَفَاكَ بِالعِلْمِ.." البيت. وليس كذلك، بل هذا البيت ثابت في الرّواية بعد قوله فيما يأتي إن شاء الله تعالى : "كمْ جدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ.." البيت.

شَرْحُ الغَرِيْبِ

شكت : تقدّم، وكذا **البطحاء**.

وَوَقْعَهُ : أيْ نزوله، ووقَعَ الشّيء وُقوعاً : سقط، وأوْقَعَهُ غيره. ويُقال : وَقَعَ رَبيعٌ بالأرض، ولا يُقال : سقط. ومَواقِعُ الغيثِ : مساقطه[1].

والرُّبَى : جمع رَبْوة، وهي ما ارتفعَ من الأرض. ويُقال فيها أيضًا : رَبْوَةٌ بتثليث رائها، ورَباوَةٌ. ورَبَا الشّيءُ يَرْبو رَبْواً : زاد. والرَّابِيَةُ : الرَّبْوُ؛ وهو ما ارتفعَ من الأرض أيضاً[2].

والهضاب : ويُروى "والبِطَاح"، والأوّل أحسن؛ لأنّ "البِطَاح" ما تقدّم، ومِن أجل كون الماء عليها، طلبوا الاستصحاء، فلا يأمر الماء بالنّزول عليها، وهم قد طلبوا منه إقلاعه عنها، وأيضاً استقرار الماء في البطاح يمنع من الانتفاع بها معه، اللّهمّ إلاّ أنْ يُراد بها مكان الحصباء - كما تقدّم - فنعم؛ إذ لا تُزرع، والموافق لِما ورد في الحديث الهضاب؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ**»[3]، وهي من معناها.

وهي جمع هَضْبَة؛ وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض، وتُجمع أيضاً هَضْبٌ وهِضَبٌ[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1301/3. مادة وقع.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2349/6. مادة ربا.

(3) رواه البخاري عن أَنَس بْن مَالِكٍ مرفوعا في الجمعة. بَاب الِاسْتِسْقَاءِ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 238/1. مادة هضب.

وانْهَلْ : فعل أمر، والمخاطَب العارض، من انهلَّ المطرُ انْهِلالاً : سال بشدَّة. واسْتَهَلَّ الرّجل. وتهَلَّلَتْ دموعُهُ : سالت. وانْهَلَتِ السَّماءُ : صَبَّتْ. وأمّا تَهَلَّلَ السّحابُ ببرقِهِ فمعناه: تَلألأَ[1].

وانسَجِمْ : أمر أيضاً؛ أيْ صُبْ، من قولهم : أرضٌ مَسْجومَةٌ؛ أيْ ممطورة. وأَسْجَمَت: صَبَّتْ. وتقدّمت المادّة.

فأَدّتْ؛ أيْ أعطت وأَخْرجت نباتها. وأَدَّى الأمانة : رَدّها إلى مالكها. وأَدَّى دَيْنَه : قَضَاه. والاسم الأَدَاءُ. وهو آدَى للأمانة منك، بالمدّ. وتأَدَّى إليه الخبر؛ أيْ انتهى. واسْتَأْدَاهُ مالاً؛ إذا صادره واستخرج منه[2].

الأَرْض : اسم جنس مؤنّثة، وحقّ واحدتها : أَرْضَةٌ، ولم يرد. والجمع أَرْضَاتٌ، وقالوا : أَرَضُونَ. والمؤنَّث لا يُجمع بالواو والنّون، إلاّ أنْ يكون منقوصاً؛ كثُبَةٍ، لكن جعلوا ذلك عوضاً من الألف والتّاء، وتركوا فتح الرّاء على حالها، وقد تُسكن، وقد تُجمع على أُرُوضٍ. وزعم أبو الخطاب[3] أنّهم قالوا: أَرْض وآرَاض؛ كأَهْل وآهَال. والأَراضي أيضاً شاذ، كأنّه جمع

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1851/5. مادة هلل.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2265/6. مادة أدا.

(3) هو عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس ابن ثعلبة، أبو الخطاب الأَخْفَش الأَكْبَر (.. - 177هـ = .. - 793م): من كبار العلماء بالعربية. لقي الأعراب وأخذ عنهم. وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله، وإنّما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها. انظر الأعلام. الزركلي : 288/3.

آرِض. وكلُّ ما سفل فهو أَرِض، وأَرْض أَريضَةٌ؛ أيْ زكيةٌ، وقيل: مُعجِبةً للعَين بيّنة الأَرَاضَة. وقد أَرُضَتْ بالضمّ؛ أيْ زَكَتْ. ولا أَرْضَ لك؛ نحو: لا أُمَّ لك[1].

(1) انظر الصحاح. الجوهري: 1063/3. مادة أرض.

[حقيقة الرّزق]

والرِّزْق : قيل ما يُمْلك.

وقالت المعتزلة : «هو الحلال». وقال أهل السنّة : «ما يُنتفع به مطلقاً»[1].

وجمعه أرْزاق. والرِّزْقُ : العطاءُ، مصدر : رَزَقَهُ الله. والرَزْقَةُ بالفتح: المرّة، والجمع الرَزَقاتُ؛ وهي أطماع الجند، وارْتَزَقُوا : أخَذوها. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾[2]؛ المطر مجاز، كما يُقال : التمر في قعر القليب؛ أيْ سقى النّخل. ومَرْزُوقٌ؛ أيْ مجدود[3].

والأَمَانَة : الوديعة، وأَمِنْتُهُ على كذا واتَّمَنْتُهُ بمعنىً. وقُرِئَ : ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾[4]؛ بين الإدْغام والإظهار[5]. قال الأخفش : «والإدغام أحسن». واؤْتُمِنَ مبنِي للمفعول، فإن ابتدأت به صيّرت الهمزة الثّانية واوا. واسْتَأْمَنَ إليه : دخل في أَمَانِهِ. والبَلَدُ الأمِينِ : المَأْمونُ. والأُمَّانُ بضمّ الهمزة وتشديد الميم : الأمينُ. والأَمُونُ : النّاقة الّتي أَمِنَتْ أنْ تكون ضعيفة[6].

---

(1) انظر تفسير ابن عرفة : ص 48.

(2) سورة الذاريات : من الآية 22.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1481/4. مادة رزق.

(4) سورة يوسف : من الآية 11.

(5) قرأ أبو جعفر ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ مشددة النون من غير اشمام. وكذلك الحلواني عن قالون. وقرأ الباقون بالإشارة إلى النون المدغمة بالضمة. انظر المبسوط في القراآت العشر. النيسابوري : ص 245.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 2071/5. مادة أمن.

والإِذْن : يُفسّر بالأمر، وقد يُفسّر بالعِلم[1]. وقال ابن عطية في تفسيره : «هو التّمكين من الشّيء مع العِلم بما مُكّن منه»[2].

والنّاس : قد يكون من الإنس والجنّ، وأصله أناس فخُفّف، وليست «أل» عوضاً من الهمزة، وإلاّ لما اجتمعا في قوله[3] :

إِنَّ المَنَايَا يَطَّلِعْـنَ عَلى الأُنَاسِ الآمِنِينَا[4]

والنَّعَم : قيل : اسم جنس جَمعيّ[5]، فقيل[6] : «الإبل والبقر والغنم»، وقيل[7] : «الإبل فقط». وقيل[8] : «والشّاه»[9].

وقال الجوهري : «النَعَمُ : واحد الأنْعامِ، وهي المال الرّاعية، وأكثر ما يقع على الإبل. قال الفَرّاء : "يُذكّر ولا يُؤنّث". يُقال : هذا نَعَمٌ واردٌ. وجمعه نُعْمانٍ؛ كحَمَلٍ وحُمْلانٍ. والأنعامُ تُذكّر وتُؤنّث. وجمع الجمع أَنَاعِيمُ؛ يُراد به التّكثير فقط. وجمع الجمع إمّا للتّكثير أو للضّروب المختلفة»[10].

---

(1) يروى عن الأصم. وانظر التفسيرين في تفسير البحر المحيط. أبو حيان : 533/1.

(2) انظر تفسير ابن عطية : 518/1.

(3) هو ذو جدن الحميري.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 905/3. مادة أنس.

(5) اسم الجنس الجَمعيّ هو : الموضوع للماهية، فيصلح للواحد، وللاثنين، والجمع.

(6) قاله ابن قتيبة.

(7) قاله ابن الأعرابي.

(8) قاله ابن سيده.

(9) انظر هذه المعاني في لسان العرب. ابن منظور : 585/12. تفسير البحر المحيط. أبو حيان : 533/1.

(10) انظر الصحاح. الجوهري : 2041/5. مادة نعم.

والحُلَل : بُرودُ اليمن، جمع حُلَّة. والحُلَّةُ : إزارٌ ورداءٌ، لا تُسمَّى حُلَّةً حتّى تكون ثوبَين[1].

والسُنْدُس : البِزْيَوْنُ. قال[2] يصف فرساً :

وداوَيْتُها حتَّى شَتَتْ حَبَشِيَّةً   كأنَّ عليها سُنْدُساً وسُدوسا[3]

وقيل : «إنّ السّندس ضرب من البُرُد، وهو رَقِيقُ الدِّيباج». وقيل: «نوع من اللّباس رفيعٌ. والإِسْتَبْرَق : غَلِيظُ الدِّيباج، ضدّ السُنْدُس»[4].

ولَوَت : يعني جُعلت طاقة فوق أخرى، من قولهم : لَوَيْتُ الحبل : فتلته[5].

وعَمَائم : جمع عمامة. وعَمَّمْتُهُ : ألبسته العِمامة. وعُمِّمَ : سوِّدَ؛ لأنَّ العَمَائمَ تيجان العرب، كما قيل في العَجَمِ تُوِّجَ. واعتمَّ بعمامةٍ وتَعَمَّمَ بها بمعنًى. وحسن العِمَّةِ؛ أيْ الاعتِمامِ. واعْتَمَّ النّبت : اكتهلَ، والشابّ إذا طال[6].

رُؤُوس : جمع رأس في الكثرة، وفي القلّة أَرْؤُس. ويقال للقومِ إنْ كثروا وعَزُّوا : رَأْسٌ. ورَأَسَ القومَ يَرْأَسُهم بالفتح، رِيَاسَةً، فهو رَئِيسُهُمْ. ورَيِّسٌ كقيِّم. وَرأَّسْتُهُ عليهم تَرْئيساً، وَتَرَأَّسَ، وارْتَأَسَ. ورَأَسْتُهُ

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1672/4. مادة حلل.

(2) هو يَزيد بن خَذّاق العَبْديُّ.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 937/3. مادة سدس.

(4) انظر تاج العروس. الزبيدي : 155/16. مادة سندس.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 2485/6. مادة لوى.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 1991/5. مادة عمم.

وتَجْلُو : أيْ تكشف وتوضّح؛ من جَلَوْتُ الأمر. وجَلَوْتُ العروس جَلاءً وجِلْوَةً، واجْتَلَيْتُها بمعنىً؛ إذا نظرتَ إليها مَجْلُوَّةً. وجَلاَها زوجها وصيفاً : أعطاها. يُقال : ما جِلْوَتُها بالكسر؟ فيُقال : كذا. وما جِلاءُ فلان؟ أيْ بأيِّ شيء يُعَظَّم من الألقاب. واجْتَلَيْتُ العمامة : رفعتَها مع طَيّها عن جَبِينك[1].

قَلاَئِد : جمع قِلادة العنق. وقَلَّدْتُ المرأة فَتَقَلَّدَتْ. ومنه التَّقْلِيد في الدِّينِ، وتَقْلِيدُ الوُلاةِ الأعمالَ. وتَقْلِيدُ البُدْن، وتَقْلِيدُ السّيف. ومُقَلَّدُ الرجُلِ: موضعُ نِجاد السّيف على منكبَيه. والمُقَلَّدُ مِن الخيل : السّابقُ يُقَلَّدُ شيئاً ليُعرَف أنَّه سَبَقَ[2].

والبَهَار : قال الجوهريّ : «العَرَارُ الّذي يُقال له عَين البقر، وهو بَهار البَرِّ، وهو نبت جَعْدٌ له فُقَّاحَة صفراء تنبت أيام الرّبيع، يُقال له العَرَارَة»[3].

قلتُ : ولعلّ هذا - الّذي وصف الجوهريّ - هو الّذي أراد الشّاعر بقوله[4]:

تَمَتَّعْ مِن شَمِيمِ عَرارِ نَجْدٍ　　　فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِن عِرارِ

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2303/6. مادة جلا.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 527/2. مادة قلد.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 598/2. مادة بهر.
(4) ينسب البيت لمَعْقِل بن جَناب وتروى لجَعْدَة بن مُعاوية، ولقيس بن الملوح (مجنون ليلى)، وللصِّمَة بن عبد الله. انظر البيت في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 425/5.

[تحقيق معنى البَهَار]

وظهر لي من كلام الجوهريّ وكلام غيره أنّ هذه الصّفة، هي صفة النَّوْر الّذي يُقال له ببلاد المغرب "النَّرْجِس". وقال الإمام الأديب الحافظ أبو العباس أحمد بن موسى القيسي الشّريشيّ[1] شارح "**مقامات الحريري**" عند قوله "فأمطَرَتْ لؤلؤاً من نرْجِسٍ[2]" : «والنّرجس الّذي يُشبّه به شعراء المشرق العيونَ؛ نبات له قضبان خضر في رؤوسها أقماع تخرج نَوْرا، ينبسط منها على الأقماع ورق بيض، في وسط البياض دائرة قائمة من ورق صفر، فهذه صفة النّرجس إذا ذكروه، ولذلك وصفه كسرى أَنُوشِرْوَان بأنّه ياقوت أصفر، بين درّ أبيض، على زمرّد أخضر. أخذه بعضهم فقال[3] :

وَيَاقُوتَةٌ صَفْرَاءُ فِي رَأْسِ دُرَةٍ   مُرَكَبَةٍ فِي قَائِمٍ مِن زَبَرْجَدِ

كَمْثْلِ بَهِيّ الدُرّ عَقَدَ نِظَامَهَا   نَثِيرُ فِرنـدٍ قـد أطـاف بِعَسْجدِ

.. وقال ابن المعتزّ :

---

(1) هو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى، أبو العباس الشريشي (557 - 619هـ = 1181 - 1223م). من العلماء بالأدب والأخبار. نسبته إلى شريش بالأندلس، ومولده ووفاته فيها، كان يقرئ بها العربية وعلوم الأدب. وله كتب وشروح أشهرها (شرح المقامات الحريرية). انظر الأعلام. الزركلي : 164/1.

(2) البيت بتمامه : فأمطَرَتْ لؤلؤاً من نرْجِسٍ وسقَتْ   وَرْداً وعضّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ.

وهو من نظم أبي الفَرَج الوأواءِ الدمشقي. انظر مقامات الحريري : ص 32.

(3) هو المأموني.

كأنَّ عُيونَ النّرجِسِ الغضِّ بيْنَنَا مُـدَاهنُ درٍ بيْـنَهُنَّ عَقِيـقُ
إذا بَلّهـنَّ القَطْرُ خَلَـتَ دُمُوعَهـا بُكَاءَ عيُونٍ كُحْلُهُنَّ خَلوقُ»

وأكثر من الاستشهاد بشِعر المشارقة على هذا المعنى.

ثمّ قال : «وهذه الصّفة الّتي أثبتها أهل المشرق للنّرجس، هي الصّفة الّتي يصف بها أهل المغرب البَهار؛ قال القسطلي[1] :

بَهـارٌ يُـروق بِمِسْـكٍ ذَكِـيّ وَصِبْغٍ بَـدِيعٍ وَخَلْـقٍ عَجَـبْ
غُصُـونُ الزّبَرْجَـدِ قَـدْ أَوْرِقَـتْ لهـا[2] فِضَّـةٌ نَـوَّرَتْ بِالـذَّهَبْ

والّذي يسمّيه أهل المشرق نرجسًا، يسمّيه أهل المغرب بَهارًا[3]. ولذلك قال الحريري في العاشرة : «ووَرْدَتي بالبَهارِ»[4]. دعا فيها على الغلام بالحُمّى، وأنْ تنعكس حمرة خدّه صفرة». هذا محصول كلام الشّريشي رحمه الله[5]. وفيه طول وظُرف.

قلتُ : وما وصف به أهل المشرق النّرجس موافق الآن لعرف بلدنا تلمسان وفاس، وأظنّ سائر المغرب من أهل برّ غير الأندلس،

---

(1) هو أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسيّ، أبو عمر (347 - 421هـ = 958 - 1030م). شاعر كاتب من أهل (قسطلة دراج). كان شاعر المنصور أبي عامر، وكاتب الإنشاء في أيامه. انظر الأعلام. الزركلي : 211/1.
(2) المحفوظ : "لنا" بدل "لها".
(3) في شرح الشريشي العكس، ونصه : «والّذي يسمّيه أهل المغرب نرجسا، يسمّيه أهل المشرق بَهارا».
(4) انظر مقامات الحريري : ص 98 .
(5) انظر شرح الشريشي على مقامات الحريري : 104/1 وما بعدها.

كذلك عرفهم، ولا أدري الآن ما عرف أهل الأندلس فيه. والّذي يُسمَّى بالبَهار عندنا اليوم نبات له أصول كأصول القصب، يتفرّش عنها ورق كورق القصب، ويصعد في وسط تلك الأوراق قضيب أخضر في رقّة القلم، وطول الشّبر أو أكثر، وفي رأس القضيب ككمّ الطّلع قبل تفتّحه، إلاّ أنّه مستدير مستطيل، ثمّ يتفتّح على ثلاثة أوراق، في وسط كلّ ورقة زغب، ثمّ منه ما هذه الأوراق منه صُفر، ومنه ما هي منه زُرق، ومن أجل هذا النّوع الأصفر منه - والله أعلم - جاء الاشتباه بينه وبين النّرجس لسامع وصفه، لا لمن عاينه، فإنّ المباينة بينهما في العيان بعيدة.

والخَدُّ : في الوجه، وهما الخدّان، والمِخدّة بالكسر؛ لأنّها توضع تحت الخدّ[1].

والعَنَمُ : قال الجوهري : «شجرٌ ليِّن الأغصان، يشبَّه به بنانُ الجواري. وقال أبو عبيدة: هو أطراف الخرّوب الشّاميّ. قال[2] :

فلـم أسـمعْ بمُرْضِـعَةٍ أمالـتْ　　　لَهـاةَ الطّفـلِ بالعَنـمِ المَسـوكِ

ويُنشد قول النّابغة : عَنَمٌ على أغصانه لم يُعْقَدِ..[3]. فهذا يدلُّ على أنّه نبتٌ لا دودٌ. وبنانٌ مُعَنمٌ؛ أيْ مخضوبٌ»[4]. انتهى.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 468/2. مادة خدد.

(2) البيت أنشده الجوهري، ولم ينسبه لأحد.

(3) البيت بتمامه : بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأن بَنانَهُ　　　عَنَمٌ على أغصانه لم يُعْقَـدِ

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1993/5. مادة عنم.

فقوله : "مخضوبٌ" يقوّي مَن فسّر العَنَم بأنّه نبات أحمر، واستشهد عليه بقوله[1] :

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجوهُ دَنَا نِيرُ وأطراف الأكُفِّ عَنَمْ

ولا دليل فيه عندي؛ لاحتمال أنْ يكون قصده حمرة الأصابع أو أطرافها بالحنّاء، بل قصد لين الأصابع ورخصها، ولذا قال : "أطراف الأكفّ" ولم يقل : "أطراف الأصابع"، وإنّما الحمرة في قوله : ..وعضّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ[2].

وفارقَ النّاس : من المفارقة؛ أيْ تنحّى عنهم.

والدّاء : المَرَض. والجمع أدواءٌ. وقد داءَ الرّجلُ يَداءُ داءً : مَرِضَ، فهو داءٌ. ودِئْتَ يا رَجُلُ، وأَدَأْتَ أيضاً : فأنت مُدِيءٌ، وأَدَأْتُهُ أنا : أَصَبْتُهُ بداءٍ، قاصر ومتعدّ. وبه داءٌ ظَبْي؛ أيْ لا داء به كما لا داءَ بالظّبْي. وقيل : يُقال : امرأة دَاءَة[3].

والقَحْطُ : الجَدْبُ. وقَحَطَ المطر يَقْحَطُ قُحُوطاً : احتبس. وقَحَطَ القطر، وقيل قحَط بالفتح في المطر، وبالكسر في المكان. وحكى الفَرَّاء:

---

(1) هو المرقش الأَكْبَر، قال هذا الْبَيْت من قصيدة فِي مرثية عَم لَهُ. وانظر البيت في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 81/2.

(2) البيت بتمامه : فأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالبَرَد
وهو للوأواء الدمشقي. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 743.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 51/1. مادة دوأ.

وتَتَبَّعْتُ الشّيءَ تَتَبُّعاً : تطلَّبته مُتَبِعاً له، وكذلك تَبَّعْتُه تَتْبيعاً[1].

لَحِقَهُ ولَحِقَ به لَحاقاً بالفتح : أدركه؛ وأَلْحَقَهُ به غيره. وأَلْحَقَهُ أيضاً: لَحِقَهُ؛ ومنه : «بالكافرين مُلْحِقٌ»[2] بالكسر؛ أيْ لاحِقٌ، والفتح صواب. ولَحِقَ يَلْحَق لُحوقاً : ضَمَرَ. والمُلْحَقُ : المُلْصَقُ الدعِيُّ. واسْتَلْحَقَهُ : ادَّعاه. وتَلاحَقَت المطايا : لَحِقَ بعضُها بعضاً. واللَحَقُ بالتّحريك : شيء يَلْحَقُ بالأوَّل، ومن التّمر: الآتي بعد الأوَّل[3].

والمُنْفَخِم : العظيم المرتفع، وفَخُمَ الرجل فَخامَةً : ضَخُمَ. ورجلٌ فَخْمٌ : عظيم القدر. والتَفْخيمُ : التَّعظيمُ. وتَفْخيمُ الحرف : ضدّ إمالته. ومنطقٌ فَخْمٌ : جَزْلٌ[4].

والمُحَاوِل : المريد الطّالب. وحاوَلْتُ الشّيء : أردته. والاسمُ الحَوِيلُ. ويقرب من المادة الحِيلَة[5]. وفروع هذه المادّة كثيرة.

والشَّأْو : الغاية والأمَد. وعَدا الفرس شَأْواً؛ أيْ طَلَقاً. والشَأْوُ: السَبْقُ. أبو زيد : «شَأَوْتُ القوم شَأْواً : سبقْتهم. وشَاءَاهُ : سابقه». وشَاءَهُ أيضاً مثل شَآهُ على القلب؛ أيْ سبقه. واشْتَأَى؛ قال

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1189/3. مادة تبع.

(2) هو جزء من دعاء كان عُمَرَ يَقْنُتُ به فِي الْفَجْرِ . رواه ابن أبي شيبة : 369/1. الرقم : 30337

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1549/4. مادة لحق.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2000/5. مادة فخم.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1679/4. مادة حول.

أبو عمرو: «استمع». وقال المفضّل[1] : «سَبَقَ». تَشَاءَى القومُ : تَفرَّقوا. وتَشَاءَى ما بينهما : تباعد[2].

والمَدَائح : جمع مَدِيح. والمَدْحُ، والمِدْحَةُ، والمَديحُ، والأمْدوحَةُ: الثّناء الحسن. ومَدَحَهُ وامتدَحَه. وتَمَدَّحَ : تكلّف أنْ يَمْدَح. ومُمَدَّحٌ؛ أيْ ممدوح جداً[3].

والمَواهِب : جمع مَوهِبَة أو مَوهِب؛ الاسم بكسر الهاء فيهما، ووَهَبْت له شيئاً وَهْباً، ووَهَباً بالتّحريك، وهِبَةً. والاتهَاب : قَبول الهِبة. والاسْتِيهَابُ : سؤالها، وتَوَاهَبُوا : وهبَ بعضُهم بعضاً. ووَهَّابٌ ووَهَّابَةٌ : كثير الهِبة؛ الهاء للمبالغة[4].

الأصمعي : «اللّحمُ **الزِيَمُ** : المتفرِّق ليس بمجتمِع في مكان فيَبْذُنَ». وزِيَم : اسم فرس، لا ينصرف للمعرفة والتّأنيث. وقيل : اسم ناقة. وقال بعضهم : الزِيَمُ : اكتناز اللّحم واشتداده[5].

---

(1) هو المفضَّل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، أبو العباس (.. - 168؟هـ = .. - 784م) راوية، علامة بالشعر والأدب وأيام العرب. من أهل الكوفة. يقال: إنه خرج على المنصور العباسي، فظفر به وعفا عنه. ولزم المهدي، وصنف له كتابه (المفضليات) وسماه الاختيارات. انظر الأعلام. الزركلي : 280/7.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2388/6. مادة شأا.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 403/1. مادة مدح.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 235/1. مادة وهب.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1947/5. مادة زيم.

وجَيّدَه : أيْ حسّنه. والجَيّدُ من الأشياء الحسن المُتقَن. وشيء جَيّدٌ على "فَيْعِلٍ"، وأصله جَيْوِدٌ، وتقدّم كيفية العمل في نظيره. والجمع جِيَادٌ وجَيَائِدُ بالهمز على غير قياس[1].

والفَضْلُ والفَضِيلَة : خلاف النّقص والنّقيصة. وتقدّم.

وقيل : «الإعطاء بغير عِوض»[2]. والظّاهر أنّه هنا بمعنى الإفضال؛ وهو الإحسان.

العِنَايَة بالشّيء بمعنى الاعْتِنَاء به؛ أيْ الاهتبال به والتّنزيل له المنزلة الرّفيعة، من قولهم : عُنِيتُ بحاجتك، بضمّ أوّله، أُعْنَى عِنَايَةً، وأنا بها مَعْنِيٌّ على مفعول. والأمر منه : لِتُعْنَ بحاجتي. و : «**مِن حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**»[3]؛ أيْ لا يهمُّه[4]. وقيل العِنَاية: إرادة الاختصاص.

كَانَ الأَمْرُ : أيْ الشّأن.

عَلَى حَدِّ السّوَاَء : أيْ على طريق الاستواء، يستوي فيه النّاطق والأبكم. والسّواء : العدل؛ ومنه : ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[5].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 461/2. مادة جود.

(2) انظر كفاية الطالب الرباني ومعها حاشية العدوي. العدوي : 68/1.

(3) هو حديث رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الزهد. بَاب فِيمَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُضْحِكُ بِهَا النَّاسَ. ورواه غيره. والحديث صحيح.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2440/6. مادة عنا.

(5) سورة الأنفال : من الآية 58.

وسَواءُ الشّيء : وسَطه؛ ومنه : ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[1]. قال الأخفش : «سِوَى إذا كان بمعنى غَيْرٍ أو بمعنى العَدْلِ، فيه ثلاث لغات : إنْ ضممت السّين أو كسرت قصرت فيهما جميعاً، وإنْ فتحت مددت. تقول : مكانٌ سُوَى وسِوَى وسَوَاءٌ؛ أيْ عدلٌ ووسطٌ فيما بين الفريقَين». وهما في هذا الأمر سَوَاءٌ، وإنْ شئتَ سَوَاءَانِ، وهم سَوَاءٌ، وأَسْوَاءٌ، وسَوَاسِيَةٌ؛ كثمانية على غير قياس. قال الأخفش : «وزنه فَعَافِلَةَ، حُذف ثالثه وهو ياء»[2]. والمادة طويلة.

ونُطْق : مصدر نَطَق. وتقدّم.

وبَكَم : أظنّه بفتح الباء والكاف، مصدر بَكِم بكسرها. أو يكون بضمّ الباء وسكون الكاف، ثمّ ضمّ الكاف اتّباعاً، وماضيه بضمّ العين، وهذا أَولى؛ لقولهم في الوصف منه أَبْكَم وبَكِيم؛ أيْ أخرس بيّن الخَرَس[3].

---

(1) سورة الصافات : من الآية 55.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2384/6. مادة سوا.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1874/5. مادة بكم.

التَّفْسِيْرُ

[استجابة دعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

"لمّا شَكَتْ.." البيت؛ يعني أنّ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين استسقى للنّاس على المنبر؛ إذ طُلب ذلك منه، فدام القطر من الجمعة إلى الجمعة كما تقدّم، قنط النّاس من دوامه، فطلبوا منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنْ يستصحي لهم، فاستصحى، فأقلع المطر. فقوله : "لمّا شَكَتْ"؛ أيْ حين شكت البطحاء؛ وهي الّتي قال فيها : "أو خلتَ البطاحَ بها سيبٌ.." البيت. فإنّه لمّا دام استقرار الماء فيها، الّذي خُيِّل أنّه سَيْب من اليمّ أو سَيْل من العَرِم، أضرّ ذلك بها، فشكت وقع ماء ذلك العارض بها؛ أيْ إمطاره عليها، وهو على حذف مضاف؛ أيْ شكى أهل البطحاء، قال - أيْ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لذلك العارض: انْهَلْ؛ أيْ سِلْ بشدّة، وانسَجِم؛ أيْ صُبّ مطرك على الرّبى؛ أيْ على الكِدَى الصّغار عند من فسّرها بذلك، والهضاب؛ أيْ الجبال الكبار، ولا تمطر علينا، بل حيث لا يضرّ الإمطار، وفي الكلام حذف؛ أيْ فامتثل العارض أمره، وجعل يمطر حوَالَي المدينة، ولا تمطر المدينة، وهذه أيضاً معجزة في استجابة دعائه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الاستصحاء، كما استُجيب في الاستسقاء.

والحديث المتضمّن لهذه القضيّة تقدّم نصّه بتخريج البخاريّ، ونصّه في مسلم أقرب لمقصد النّاظم، لا سِيَّما في الاستصحاء، قال : عن أنس أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ

رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ فِي مِثْلِ الْجَوْبَةِ، وَسَالَ وَادِي قَنَاةَ شَهْرًا، وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ.. إِلَّا أَخْبَرَ بِجَوْدٍ[1].

وفي رواية[2] : كَانَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَامَ إِلَيْهِ النَّاسُ، فَصَاحُوا، وَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ، قَحَطَ الْمَطَرُ، وَاحْمَرَّ الشَّجَرُ، وَهَلَكَتْ الْبَهَائِمُ. وَسَاقَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الْأَعْلَى : فَتَقَشَّعَتْ عَنْ الْمَدِينَةِ، فَجَعَلَتْ تُمْطِرُ حَوَالَيْهَا، وَمَا تُمْطِرُ بِالْمَدِينَةِ قَطْرَةً، فَنَظَرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهَا لَفِي مِثْلِ الْإِكْلِيلِ[3].

وقوله : "فأدّت"؛ أيْ حين أخذت الأرض حاجتها من الماء، وأقلع عنها، فاستقام الصّحو، أدّت الأرض؛ أيْ أعطت - أو أوصلت - بأمر خالقها وعِلمه للنّاس والنَّعَم من الرّزق أمانتها - أيْ الشّيء الّذي أُمن فيها من ذلك الرّزق - وهذا كقوله تعالى : ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[4]. وقوله تعالى : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[5]. وهو في القرآن كثير.

---

(1) انظر صحيح مسلم في صلاة الاستسقاء. بَاب الدُّعَاءِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ.
(2) وهي رواية عَبْد الْأَعْلَى بْن حَمَّادٍ وَمُحَمَّد بْن أَبِي بَكْرٍ الْمُقَدَّمِيُّ.
(3) انظر صحيح مسلم في صلاة الاستسقاء. بَاب الدُّعَاءِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ.
(4) سورة النازعات : الآيات من 30 إلى 33.
(5) سورة عبس : الآيات من 25 إلى 32.

وقوله : "وأُلبِست"؛ أيْ أُلبِست الأرض؛ أيْ خرج فيها من النّبات الكثير الشّديد الخضرة؛ لكثرة ما نزل فيها من الماء المتقارب، حتّى يُتوهَّم أنّه سطح واحد، ما أشبهت بذلك حالها حال مَن ألبسها حللاً خضراء من سندس، ونبت في رؤوس هضابها وآكامها من النَّوْر الأبيض المتراكم لكثرته، المتناسب في تدويره، ما أشبه حالها بذلك حال مَن لوى - أيْ لفّ - على رؤوس تلك الهضاب والآكام العمائمَ؛ فأشبهت الأرض بعد ذلك بجملتها - بطاح وهضاب - لابساً حلّةً خضراء، ومعتمًّا بعمامة بيضاء، وباعتبار كلّ بطحاء منها وهضبة لابسين لحلل خضر، ومتعمّمين بعمائم بيض.

وقوله : "فالنّخل.." البيت؛ بعض تفصيل لِما أجمل في قوله : "فَأَدَّت الأَرْضُ مِنْ رِزْق.."، وذلك رزق النّخل، وهو من أرزاق النّاس، والتّقدير : فمِن ذلك الرّزق الّذي أُؤتمن عند الأرض وأدّته النّخل - أيْ تمرها - حالة كونها باسقة - أيْ طويلة - جالية قلائدها؛ وهي عناقيد التّمر الّتي حملت بها، شبّهها لصفرة التّمر الّذي فيها إذا كان بُسرًا، أو حمرته إذا كان تمرًا، بقلائد الذّهب الأصفر؛ ذهب العمل، أو الأحمر الإبريز.

وقوله : "مِثْلِ البَهار"؛ الأَولى أنْ يكون "مثل" مرفوعاً خبر مبتدأ؛ أيْ وتلك القلائد الّتي هي العناقيد، مثلُ البَهار في صفرة لون تَمرها، وطول حبّه. وهذا يؤيّد أنّه أراد أحد نوعَيْ البَهار في عُرفنا اليوم بالمغرب، وهو الأصفر كما تقدّم من وصفنا له، وقد يريد الأزرق أيضاً، فإنّ من التّمر ما يميل لونه إلى ذلك، فيكون بعض النّخل تمرها أصفر ذهبيّ كالبَهار الأصفر، وبعضها تمرها أزرق سماويّ كالبَهار الأزرق.

وتشبه العناقيد أيضاً - من لِين قضبانها - العَنَم، وقيّد مشابهتها للبَهار بحالة كون البَهار على الخدّين. وذلك أَنّ ممّا جرى من عادة النّساء أنْ يأخذن أنواع النَّوْر كالبَهار وغيره، فيجعلنه تحت الخُمُر، ويُسْبِلْنَه على خدودهنّ مكان السّوالف[1]. والجامع - والله أعلم - في هذا التّشبيه؛ أنّه شبّه النّخلة في طولها واعتدال قامتها، بامرأة كذلك، وأنّ محلّ التّمر الأصفر أو الأزرق والمجتنى من أعاليها ومنزلته هو محلّ البَهار؛ الّذي تجعله المرأة سالفة، وهو الخدّ، وليس محلّ التّمر رأس النّخلة؛ الّذي هو بمثابة شَعْر المرأة المرتفع فوق رأسها؛ لأنّ العنقود يتدلّى من رأس النّخلة، فيأتي على ما هو من أعاليها كالخدّ من المرأة، كما يتدلّى النَّوْر المجعول تحت الخمار إلى الخدّ. وأيضًا فإنّ ما يُجتنى من أعالي المرأة بالتّقبيل بالفم؛ الّذي هو بمثابة الأكل بالفم للبُسر العالي من النّخلة؛ هو الخدّ. وهذا يقرب من البيت الّذي أنشدناه في الغريب[2].

ويحتمل أنْ يريد بالعَنَم البنان المخضوب؛ قال الجوهري : «بنانٌ مُعَنمٌ؛ أي مخضوبٌ»[3]. فيكون المعنى : تجلو قلائد تمرها؛ الّذي يشبه الأصفر منه البَهار على الخدّين، والأحمر منه العَنَم؛ أيْ البنان المخضوب، في استطالته وحمرته ولِينه، ولا يعني أيضاً حالة كونه "على الخدّين"؛ لدلالة ما قبله عليه، إذ لا حاجة إليه، ولم يُعهد جعل البنان

---

(1) وما زالت هذه العادة قائمة في بلدنا الجزائر إلى يومنا الحالي في بعض القرى، وخاصية قرى القبائل.

(2) والبيت هو : رَأَيْتُ بِهَا قَضِيباً فَوْقَ دِعْصٍ عَلَيْه النَخْلُ أيْنَعَ والكُـــرومُ

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1993/5. مادة عنم.

هناك، نعم، إنْ قلنا : إنّه أشار بالعَنَم إلى اللّون الأحمر، فيصحّ إرادة "على الخدّين" على معنى أنّ الأصفر منه يشبه البَهار على الخدّين، والأحمر منه يشبه ما هو كالعَنَم من ألوان الحمرة، كالصّبغ المجعول في خدود النّساء المسمّى بـ "العكر"[1]، إلاّ أنّ الجاري مع اللّغة في العَنَم؛ إنّما هو الوجه الأوّل، وهو الإشارة إلى لِين قضبان العناقيد.

وذُكر لي أنّ بعضهم قال : «البَهار؛ نَوْر أبيض». فيكون التّشبيه راجعاً إلى حالة انشقاق الكُفُرَّى عن الطّلع[2]؛ لأنّه أبيض حين يخرج من كُمّه، وهو في لِينه كلِين العَنَم.

قلتُ : وهو بعيد، إلاّ أنّه إنْ كان المراد بَهارنا، فإنّه يحسن تشبيه كُفُرَّى الطّلع به؛ لأنّه قبل أنْ يتفتّح نَوْره يشبه كُمّ الطّلع.

ورأيتُ في بعض نسخ "**البُردة**" : "مِثْل البَهَارِ عَلَى الأَبْصَارِ"، وهذه الرّواية[3] إنْ ثبتت تكون "على" فيها بمعنى "في"، ويقرب حال التّشبيه؛ أيْ تلك القلائد في مرأى الأبصار مثل البَهار الأصفر في لونه، أو في شبهه قبل انفتاح نَوْره بكُفُرَّى الطّلع. ومثل العَنَم؛ إمّا في لِينه، أو في حمرته إنْ صحّ أنّه أحمر.

---

(1) وما زال يُستعمل لحدّ الآن من قبل القرويات، والمشهور منه الآن العكر الفاسي.

(2) الطلع : هو نَور النّخلة.

(3) وردت هذه الرواية في شرح البردة لمحمد بن أحمد اشماعو وفي شرح البردة للجادري وشرح البردة لعبد الله بن سعيد السملالي وشرح البردة لابن عجيبة، وهي رواية الشاذلي. انظر بردة البوصيري وأثرها في الأدب العربي القديم. محمد فتح الله مصباح : ص 129.

وعلى هذه الرّواية يحسن التّشبيه بالنّرجس قبل تفتّح تلك الأوراق البيض عن النَّوْر الأصفر؛ الّذي في وسطها، أو بما هو التّحقيق عندهم في تشبيه العيون بالنّرجس، وذلك في تدوير النَّوْر الأصفر، فإنّه يُشبَّه بتدوير سواد العين، والأوراق البيض المتفرّقة الّتي دارت به بالأشفار، أو الأجفان، أو الأهداب، وتُشبَّه به أيضاً العيون في الفتور والانكسار. ولخفاء هذا المعنى - أعني : وجه تشبيه العيون بالنّرجس - على كثير من الأدباء، أنكروا تشبيهها به، واستبشعوه، بناء منهم على أنّ المقصود من تشبيهها به إنّما هو اللّون، ولا حسن في صفرة العين. وسمعت من يقول : «العَنَم : الخيوط الحُمر؛ الّتي في بياض العين». وعليك باقي التّأمّل في هذا التّشبيه، فإنّه لم يتّضح ذلك الاتّضاح.

ويحتمل أنْ يكون معنى البيت : فمن الأرزاق الّتي بدت بسبب ذلك المطر النّازل، النّخل باسقة تجلو قلائدها، وهي في الدّلالة على الإنعام بالرّزق القَوْتي، مثل الدّلالة عليه بظهور التّكميليات الّتي يُتنعَّم بها؛ بشمّ الرّائحة الطّيّبة منها، والتنعُّم بالمنظر الحسن الكائن ذلك في الأنْوَار والأزهار، كلون البَهار وغيره على الخدّين، أو على الأبصار، والمعنى : ظهر في الأرض الأقوات والأنْوَار.

قيل : ويُروى "مِثْلُ البَهَارِ عَلَى الأنْهَارِ والقَتَم"، والقَتَم : غبرةٌ شديدةٌ تعلقُ النّباتَ، وهي أيضاً تَغْلَقُ التّمرَ.

وقوله : "وفارق النّاس.." البيت؛ أيْ بعد أنْ فتح الله على النّاس بهذه الأرزاق، وذهاب الجَدْب عنهم، فارقهم داء القحط، وما أثّر فيهم من الأمراض، ومن جملة الأدواء الّتي يؤثّر القحط في النّاس البخل

وإمساك ما بأيديهم من المال والطّعام؛ إيثارًا لنفوسهم على غيرهم، وتقاعسوا عن النّهوض إلى فعل المكرمات، فإذا فارقهم ذلك الدّاء بآثار دواء الخصب، أطلقوا أيديهم بالعطاء لمَن سألهم. و"انبعثت"؛ أيْ أسرعت إلى تحصيل "المكارم"؛ وهي الأفعال الحميدة الحاصلة عن بذل ما في الأيدي، "نفسُ النِكْس"؛ أيْ الرّجل الضّعيف؛ الّذي كان في الجَدْب لا يقدر أنْ يجود بشيء؛ لقلّة ما بيده، أو الرّجل المقصر عن الرّجال في درجات الكمال حال الجَدْب، فإنْ صار بعد هذا الخَصْب - لكثرة ما بيده - يسرع إلى المكارم، بعد أنْ كان لا يفعلها، وكذلك أيضا أسرعت إلى ذلك نفس البَرَم - وهو الرّجل البخيل كما تقدّم - لكثرة ما بيده أيضاً، فإنّ الإنسان غالباً إنّما يبخل خوفاً على ما بيده أنْ يذهب، فإذا كثر ما بيده، وطنّ أنّه لا يفنيه الإعطاء، بذل منه. وتأمّل ما شرح به بعضهم هذا البيت، وإنّما لم أذكره؛ لأنّه لا محصول له.

وقوله : "إذا تتبّعت.." البيت؛ كأنّه يقول : ما من آية من آياته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كثرتها وعدم إحصائها - إلاّ وهي عظيمة المقدار، موجبة الإكبار، فإذا تتبّعتها بتطلّبك حصول ما لم يحصل منها، وحصلتَ على شيء من ذلك، وأخبرتَ به عنه، كما أخبرتَ بما حصل لك قبله، فقد ألحقتَ العظيم منها بالعظيم.

[مدح الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هبة من الله]

ثمّ قال : "قُلْ لِلْمُحَاوِلِ.." البيت؛ أيْ قلْ يا مَن يسمع - للّذي تراه يروم الوصول إلى المنزلة الّتي حصلتْ لي من السّبق في مدح النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا تُتعب نفسك؛ فإنّي لم أُدرك تلك المنزلة بمحاولتي، كما رمتَ أنت، فإنّ تلك الفضيلة لا تُنال بالمحاولة، وإنّما هي مواهب يهبها الله لمَن يشاء، فحصولها لي مواهبٌ من الله ، لم أتسبّب فيها، بأنْ شددتُ لها زِيَمي؛ أيْ لحمي المتفرّق، وإنّما قال ذلك؛ لأنّ اللّحم المتفرّق يكون في صاحبه ارتخاء وضعف عن العمل، والمكتنز من اللّحم بخلافه، ولِذا يحتزم النّاس عند إرادة العمل؛ من الجَري وغيره، فهو يقول: إنّ هذه المنزلة ما سبقتُ غيري إليها؛ بأنْ شددتُ نفسي، بل وُهبت لي.

ويحتمل أنْ يريد بـ "زِيَمي" فَرَسي، وذلك أيضاً أنّ المسابق على الخيل يشدّ نفسه وفرَسه، فهو يقول : وُهبت لي منزلة السّبق من دون أنْ أشدّ لها فَرَسي.

قوله : "وَلاَ تَقُل لي.." البيت؛ لمَّا نهاه - في المعنى - عن تطلّب منزلته؛ لكونها لا تُدرك بالطّلب؛ إذ قوّة الكلام لا تطلبها، فهي مواهب، نهاه ثانية أنْ يقول له : وبأيّ سبب اختصصتَ أنتَ بهذه الموهبة؛ الّتي هي جيّد المديح في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أيْ بأيّ مقدار من الثّمن عاوضتَ بها، حتّى حصلتْ لك، فإنّ هذه الهبة لا عن عِوض، بل محض فضلٍ من الله تعالى، ولا يُقال لفضل الله : بِكَم هذا؟

البيت، فهو روحها، وهو من معنى قوله : "فإنّ فَضْل.." البيت، وقوله: "فَمَا تَطاوَلُ آمالُ المَدِيحِ.." البيت.

وإنّما قال : "كَذِي بُكُمِ"، ولم يقل : كذي سكوت؛ لأنّه تنبيه بالأحرى؛ لأنّ النّاطق بالمدح بالاعتبار المذكور إذا ساوى الأبْكَم الّذي لا يقدر على النّطق أصلاً، فلِأن يساوي السّاكت القادر على النّطق أحرى.

وقال بعضهم : «ضمير "فيه" يعود على هاء "جَيّده"». وتلك الهاء عائدة على المدح المفهوم من لفظ "مَدَائِح".

قال : «ومعنى هذا البيت : أنّه أتى به ليحقّق أنَّ الله تعالى يخصّ ببعض العنايات بعضَ عباده؛ لأنّ بعض النّظم يرتفع؛ حتّى يكون نسبة ناظمه إلى ناظم ما دونه، كنسبة الناطق إلى الأبْكَم. فلولا تخصيص الله بعنايته بعضاً دون بعض، لكان الأمر في النّظم على حدّ السّواء، فيكون ذو النّطق فيه كذي البُكْم».

قال : «وهذا لا يحسن ردًا على محاول شأوه في النّظم؛ لأنّ قصد المحاول أنْ يكون نظمه كنظم النّاظم أو أحسن، لا أنْ يكون نظم النّاظم ركيكاً كنظم المحاول، وإذا كان كذلك فحقّ تشبيهه أنْ يجيء على العكس، فيقول : لولا العناية كان نظمُك كنظمِي. وأمّا قوله : لولا العناية كان نظمِي كنظمِك، فإنّ المحاول يقول : ليس قصدي اتّضاع نظمك، بل ارتفاع نظمِي، فيصير التّشبيه معكوساً». انتهى.

فأنت ترى ما في هذا الشّرح من التخبّط، والنُّبُوّ عن المقصود، وما كان اللاّئق ذكر مثل هذا الشّرح.

اَلْمَعَانِيْ

أتى بقوله : "لمّا شَكَتْ .. قالَ" تنبيهاً على إسراعه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الإجابة إلى ما يُدعى إليه من مصالح الأمّة، وإغاثة الملهوفين. و«أل» في "البطحاء" تحتمل الجنس، وتحتمل العهد، وأنّها إشارة إلى "البطاح" المتقدّمة الذّكر، إنْ جنسية فجنسية، وإنْ عهديّة فعهديّة. و«أل» في "الرُّبى" و"الهِضاب" تحتمل الأمرَين أيضاً. والفاء في قوله : "فأدّت" هي الفصيحة؛ لأنّ تقدير الكلام ما تقدّم في التّفسير، فهي مثل الّتي في قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾[1]. و«أل» في "الأرض" تحتمل الوجهَين أيضاً. وتنكير "رزق"؛ إمّا للتعظيم، أو للنّوعية، أو التّكثير. وإضافة "أمانة" للاختصاص، ويحتمل أنْ يكون "فأدّت الأرض" مسبّباً عن قوله : "وأَحْيَت.." البيت، لا عن قوله : "قَالَ له"، ويحتمل أنْ يكون مسبّباً عن مجموع الأمرَين، وهو الأظهر؛ لأنّه السّبب التّام؛ لأنّ إنزال المطر سببٌ في أداء الأرض الرّزقَ، وكذا إقلاعه عنها؛ إذ لو دام، لما أنبتت، فمجموعهما إذًا هو السّبب التّام، إلاّ أنّه إنْ كان مسبّباً عن "أَحْيَت.."، يكون قوله : "لمّا شَكَت.." اعتراضاً بين المتعاطفين، وأمّا قوله : "بِعَارِض"، فليس باعتراض؛ لتعلّقه بـ "أَحْيَت".

قال بعضهم : «ولو قال "حتّى شَكَتْ وَقْعَه البطحا فقال له"، بقصر "البطحاء" للضّرورة، وزيادة فاء مع "قال"، لما كان هذا البيت فصلاً أيضاً؛ لتعلّقه بـ "أَحْيَت" كالّذي قبله. و«أل» في "النّاس" للجنس، و"النَّعَم"

---

(1) سورة الحج : من الآية 63.

للعهد أو للجنس. وليس ذكر الأرض من إيقاع الظّاهر موقع المُضمر كما ظنّ بعضهم؛ قائلاً : إنّ ذكرها تقدّم في قوله : "البطحاء"؛ وهي الأرض، فلو أضمرها لاستقام، لكن أظهرَ للوزن، ولِذا خالف بين لفظَي "البطحاء" و"الأرض"». انتهى.

والصّواب إنّ هذه "الأرض" تشمل البطحاء وغيرها ممّا أنبت، كما أنّ ذلك المطر لم يخصّ "البطحاء"، وسواء قلنا إنّ المراد جنس الأرض، أو أرض المدينة، فإنّها أوسع من البطاح.

وتنكير "حُللاً" و"عمائماً" للنّوعية، و"سندساً" للجنسية. و«أل» في "الهضب" و"الأَكَم" نائبة عن الضّمير؛ أيْ هضبها وأَكَمها، أو التّقدير فيهما: منها. وتحتمل «أل» الأمرَين.

والإتيان بالفاء في قوله : "فالنّخل" تقدّم في التّفسير أنّها لتفصيل ذلك الرّزق. و«أل» في "النّاس" تحتمل الوجهين أيضا. وإضافة "داء" للاختصاص. و«أل» في "المكارم" وفي "النّكِس" و"البَرم" جنسيّة. وإنّما قال : "نَفْس"، ولم يقل : انبعث النّكِس؛ إمّا لقصد التّأكيد؛ لبُعْد أنْ ينبعث النّكِس والبَرم للمكارم، فكأنّه قال : النّكِس نفسه، وإمّا لأنّ النّفس هي محلّ الأخلاق الذّميمة من البخل وغيره، فإذا أضاف إليها الانبعاث إلى المكارم، أفاد قلع تلك الأخلاق بالكلّية؛ لأنّها صارت تنبعث في ضدّ ما تطلبه بطَبْعها. والوجهان يدلاّن على بركة دعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنّها تقلب الأشياء ولو الطبيعيّة إلى أضدادها. ومن هذا المعنى ما ذكر القاضي في "الشّفا" من حديث الجارية الّتي كانت قليلة الحياء،

فسألته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طعاماً وهو يأكل، فناولها من بين يدَيه، فقالت : إنّما أريد من الّذي في فيك. فناولها ما في فيه، ولم يكن - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُسأل شيئاً فيمنعه. فلمّا استقرَّ في جَوْفها، أُلقي عليها من الحياء؛ ما لم تكن امرأة بالمدينة أشّد حياءً منها[1]. فليس لفظ "النّفس" بهذا الاعتبار بحشو، وأنّما أتى به وبتاء التّأنيث في "انبعثت" ليحفظ الوزن وخفض القافية، كما ظنّ بعضهم.

وإضافة "آيات" للتّعظيم. و«أل» في "النّبيّ"؛ الظّاهر أنّها للعهد؛ أيْ نبيّنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجاز بعضهم كونها للحقيقة والعموم؛ قال : «وكأنّ قائلاً قال : ما أفخم هذه الآيات لآيات رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المعدودة قبلُ؟ فأجابه: بأنّ آيات الأنبياء - عليهم السّلام - لا ترى منها إلاّ منفخِماً بعد مُنفخِم؛ أيْ عظم النبوّة اقتضى ذلك، فيكون ترتيب هذا الحكم على وصف النّبيّ يُشعر بعِلّيته، فيكون هذا الكلام حجّة لصدق الإخبارات السّابقة، فهو من المذهب الكلامي». انتهى.

وهو كلام حسن، إلاّ أنّ الظّاهر العهد.

وتنكير "مُنفخم" للتّعظيم، وكرّر لفظه، ولم يقل بمثله تعظيماً، وإنّما أتى بالفاء في جواب "إذا"؛ ليفيد شدّة اتّصال إلحاق المنفخم من الآيات بمثله بمجرّد التطلّب، وأكّد ذلك بـ "قد" التحقيقيّة.

---

(1) انظر الشفا. القاضي عياض : 325/1.

وعبّر بالاسم في قوله : "المُحاول"؛ ليفيد أنّه لا يدرك شأوه بمحاولته، ولو كانت تلك الصّفة ثابتة له، فأحرى أنْ لا يدركه إذا كان يحاول مرّة دون أخرى. وانظر قوله : "في مدائحه"؛ هل فيه نوع من التّعقيد، فإنّ الظّاهر كما ظهر من التّفسير أنّ الضّمير المخفوض بـ "مدائح" عائد على النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفاعل "المدائح" هو النّاظم، وضمير "هي" على هذا للمدائح؛ أيْ مدائح النّاظم، لكنّه يحتمل - مع ذلك - أنْ يريد مدائحَ المحاول، وعليه يعود ضمير "هي"، وهو ضدّ المعنى الّذي قصد، وإنْ كان قوله : " لَم أَشْدُد لهاَ زِيَمِيْ" يُبعد هذا الاحتمال، لكنّه قد يُقال : لعلّه يريد : فإذا كانت مدائحك مواهبٌ، فأنا لم أشدد لها زِيَميْ في ما مضى؛ لعِلمي أنّها لا تُنال بالشدّ.

فإنْ قلتَ : كان المناسب : لاَ أَشُدُّ.

قلتُ : إن سُلّم أنّ استعمال "لم" هنا يُبعد الاحتمال، فلا أقلّ من أنْ يثبت في اللّفظ تعقيدًا معنويًّا. ويحتمل - على بُعْدٍ - أنْ يكون "هي" ضمير الشأن، وما بعده تفسيرٌ، فيكون في البيت إطناب؛ لأنّ فيه إيضاحاً بعد إبهام، و«أل» في هذا الوجه الأظهر كونها جنسيّة، وفي الّذي قبله الأظهر كونها عهديّة. وإضافة "زِيَم" للاختصاص.

وجعل بعضهم "مدائح" عامًّا لمدائح النّاظم والمحاول، وضمير "هي" خاص بمدائح النّاظم، ونظّره بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾[1]؛ فإنّه عام في الرّجعيّة والبائن، ثمّ قال تعالى :

(1) سورة البقرة : من الآية 228.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾[1]؛ فالضّمير خاص بالرّجعيّة؛ قال: «ويحتمل أنْ يكون من الاستخدام». غير أنّ الاستخدام إنّما يتمكّن في اللّفظين المتباينَين معنىً.

قال: «وليس نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ..﴾[2]؛ فإنّ ضمير "طَلَّقْتُمُ" للأزواج، وفاعل "تَعْضُلُوهُنَّ" للأولياء؛ لأنّا نمنع كَون الضّمير ثانياً للأولياء؛ لأنّ الشّرط والجزاء؛ لا يختلف المُخاطَب فيهما؛ إذ لا تتم الفائدة إلاّ بهما، فلو اختلف المُخاطَب فيهما، لكان خطاب كلّ من الفريقين غير تام، وإنّما الضّمير ثانياً للأزواج، ويدخل الأولياء في حُكمهم بالقياس عليهم». انتهى. فتأمّله.

ثمّ قال: «وتعريفه المسندَين في "هِي المَوَاهِب"؛ على تقدير: كون "هي" ضمير "المدائح" يفيد الحصر؛ أيْ لا مَوَاهب إلاّ هي، وليس كذلك، ولا يُقال: إنّه للمبالغة، فإنّه لا قرينة تدلّ على ذلك، فلو نكّر لكان أَولى».

قلتُ: وقد تقدّم وجه التّعريف، فهو إذًا مقتضى المقام.

والنّهي في قوله: "لاَ تَقُلْ لي" للإرشاد، والجملة من الإطناب؛ لأنّ "لي" رفع ما في "تَقُلْ" من إبهام المقول له؛ نحو: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِى﴾[1]. فليس بحَشْوٍ كما زعم بعضهم. وقوله: "بمَاذا"؛ الظّاهر أنّ

---

(1) سورة البقرة: من الآية 228.

(2) سورة البقرة: من الآية 232.

(1) سورة طه: من الآية 25.

مجموع "ما" و"ذا" اسم استفهام، ولا تتعب فيما وقع فيه لبعضهم من التّطويل، فإنّه خالٍ عن التّحقيق. وأمّا قوله : "ذا بِكَم؟"؛ فالإشارة فيه للتّحقير، وهو مَنهيّ عنه؛ أيْ لا تحتقر فضل الله، فتُشير إليه بـ "ذا"، فتقول : ذا بِكَم؟ ومثله : ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[1].

قيل : «وقوله : "فما يُقال.." إلى آخره؛ من التّذييل؛ لأنّ هذا الشّطر يُبيّن صواب النّهي في الشّطر الأوّل».

و «أل» في قوله : "العناية" جنسيّة، وفي "الأمر" عهديّة، وكذا هي في "السّواء". وقوله: "فذُو نُطق"؛ قيل تقديره : فكان ذو نطق؛ لأنّها جملة معطوفة على جواب "لولا"، وهو لا يكون مُصدَّرًا إلاّ بالفعل، والمعطوف على الجواب في حُكمه، وعلى هذا فهو من إيجاز الحذف. وتنكير "نُطْق" و"بُكُم" للتّعظيم والتّكثير.

---

(1) سورة الفرقان : من الآية 41.

جمع "البطحاء" و"الرّبى" و"الهضاب" من مراعاة النّظير، وكذا جمع "وقْعه" و"انْهَل" و"انسَجِم". وفي هذا البيت التّسهيم، وفيه الطّباق؛ لأنّ البطحاء" ضدّ "الرّبى" و"الهضاب"، ويقوّيه كون لفظ "البطحاء" ممدودًا ولفظهما مقصورًا.

وجمع "الأداء" و"الأمانة" و"الإذن" من مراعاة النّظير، وجمع "الأرض" و"النّاس" و"النَّعَم" منه أيضاً، وكذا لفظَا "الرّزق" و"الخالق"، وكلّ منهما يناسب كلّ جملة على انفرادها، والظّاهر أنَّ قافية هذا البيت من الاختيار. وفي البيت الجَمْع؛ لجَمْع "النّاس" و"النَّعَم" في أداء الأمانة لهما.

وقوله : "وأُلبِست.." البيت؛ لا يخفى ما في ألفاظه من مراعاة النّظير، وقافيته من الاختيار أيضاً.

و"النّخلُ بَاسِقة" من المناسبة، وكذا "تَجْلُو قلائدها"، وكذا "البَهَار" و"العَنَم"، وكذا "البَهَار" و"الخَدَّان".

وفي "فَارَق" و"انبَعَثَت" مناسبة وطباق. و"القَحْط" و"النّكِس" و"البَرم" من مراعاة النّظير. وفي "دَاء القَحْط" و"المَكارم" طِباق، وكذا لفظ "المكارم" مع "النّكِس" و"البَرم"، وهو أيضاً من المقابلة عند من يرى تعدّد الطّباق بلا شرط مقابلة. و"نفسُ" و"نكِس" من مراعاة النّظير، وهما أيضاً من التّجنيس النّاقص.

قيل : «وفي هذه الأبيات الاستطراد؛ لأنّه مدح حُسن الأرض؛ بما حصل فيها من الأرزاق والأنْوَار، والمقصود التوصّل بذلك إلى مدحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بإجابة دعوته».

وقوله : "منفخِماً.. بمنفخِم" من التّكرير، وفائدته ما مرّ، وليساً من التّجتيس؛ لأنّهما وإنْ تعدّدَا شخصاً، فقد اتّحدَا أنواعاً. وقوله : "إذا تَتَبَّعت.." البيت؛ من المذهب الكلامي، ومن الكلام الجامع. وجَمْع "الآيات" و"النّبيّ" من مراعاة النّظير.

و "المُحاول" و"المَوَاهب" من الطِّباق. و"الشَّأو" و"الشَدّ" و"الزّيَم" من مراعاة النّظير.

وفي قوله : "قُلْ"، وفي البيت بعده : "ولاَ تَقُل" طباق السّلب؛ نحو: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾[1].

و "نِلْت" و"جَيّده" و"فَضْل الله" و"بِكَم" من مراعاة النّظير. وقوله : "فما يُقال.." إلى آخره من المذهب الكلامي.

وقوله أيضاً : "لولا العناية" من المذهب الكلامي على ما قرّرناه. وجمع "النُّطق" و"البُكْم" من الطِّباق.

---

(1) سورة الروم : الآيتان 6 و7.

الإعراب

لمّا : هذه الّتي يقع بعدها فعلُ ماضي اللّفظ والمعنى، اختُلف فيها، فقيل حرف يقتضي فيما مضى وجوباً لوجوب، ويُعزى لسيبويه، وقيل[1] ظرف بمعنى "إذْ"؛ فيه معنى الشّرط[2]. وجوابها فعل ماضٍ لفظاً ومعنىً، أو جملة اسميّة مع إذَا الفجائية أو الفاء، وربّما كان ماضياً مقروناً بالفاء، وقد يكون مضارعاً.

شكت : ماضٍ، وعلامة[3]. وقْعه : مفعوله ومضاف إليه. البطحاء : فاعله.

قال له : جواب "لمّا" .

على الرّبى : يتعلّق بواحد من "انْهَل" أو "انْسَجِم"، ويعمل الآخر في ضميره، وليس من التّنازع؛ لأنّ من شرطه تأخير المعمول على العاملَين، وهما فعلاَ أمر. وضَبط لام "انْهَل"؛ إمّا بالفتح أو الكسر، وحُرّك لالتقاء سكون الإدغام والوقف، وهو على لغة تميم في استصحابهم التّضعيف في الفعل المضعّف مع الجزم في المضارع والوقف في الأمر، وأمّا الحجازيون فإنّهم يفكّون كلّ ذلك إلاّ "هَلُمّ"، فيقولون : انْهَلِلْ[4].

---

(1) هو قول أبي علي.

(2) انظر شرح تسهيل الفوائد. ابن مالك : 102/4.

(3) يقصد : وعلامة تأنيث.

(4) انظر المسألة في توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك. المرادي : 1650/3.

وعلى الخدّين : حال من "البَهَار"، وعاملها "مثل"؛ لِما فيه من التّشبيه، وصحّ وقوعها من المضاف إليه؛ لأنّ المضاف كالجزء ممّا أُضِيف إليه. ويجوز أنْ يكون "النّخل" مبتدأ، والخبر "تَجْلو"، و"باسقة" حال من فاعل "تَجْلو"، أو يكون "باسقة" خبرًا، و"تَجْلو" خبرًا آخر، أو حال من ضمير "باسقة"، ويجوز رفع "مثل" على أنّه خبر "النّخل" إذا كان "باسقة" و"تَجْلو" خبرَين، ولا يصحّ مع ذلك نصبهما على الحال من ضمير "مثل"، ويكون هو العامل فيهما؛ لأنّ العامل المعنويّ لا يعمل في الحال متقدّمة، إلاّ ما استُثني، وليس هذا منه.

وقال بعضهم : «لا يصحّ رفع "مثل" خبرًا، ونصب ما قبله حالَين، والمعنى يردّه؛ لأنّ "مثل" إنّما هو نعت لمصدر محذوف؛ أيْ تَجْلو جلاءً مثل جَلاَء البَهَار».

قلتُ : وتقدّم في التّفسير أنّ ممّا يحتمله الكلام : الإخبار عن نعمة بعد نعمة.

قال : «وإذا جُعِل أحد المذكورَين خبرًا، فالأَولى كونه "تَجْلو"؛ لأنّه أتمّ فائدة، ولذا اعتنى بنَعْتِه، لا "باسقة"؛ إذ لا كبير فائدة في الإخبار به عن النّخل، فالرّاجح نصبه حالاً، ويصحّ نصب "باسقة" أو "تَجْلو" على الحال من "النّخل" عند من يرى صحّة الحال من المبتدأ».

وداء القحط : فاعل "فَارَق". والنّاس : مفعوله، قُدّم عليه.

وانْبَعَثَت : عطف على "فَارَق". إلى المكارم : متعلّق به. ونفس : فاعله. وإذا : ظرف للمستقبل، وتقدّم القول في عاملها.

وتتبّعت : فعل ماضٍ وفاعل. آيات : مفعول.

فقد : الفاء جواب "إذا"، وقد : حرف تحقيق.

ألحقت : فعل ماضٍ وفاعل. منفخماً : مفعوله. ومنها : متعلّق بـ "ألحقت"، أو نعت لـ "منفخماً". وبمنفخم : متعلّق بـ "ألحقت".

قلْ : فعل أمر. للمحاول : متعلّق به. شأوي : مفعول بـ "المحاول"، وكان حقّه أنْ يظهر نصبه، لكنّه قدّر الفتحة في يائه ضرورة. وفي مدائحه : يتعلّق بـ "المحاول" أو بـ "شأوي".

هي : إنْ كان ضمير المدائح؛ فالمواهب خبره، وكذا ما بعده. وإنْ كان ضمير الشّأن؛ فـ "المواهب" مبتدأ، وجملة "لم أَشْدُد.." خبره، والجملة الكبرى خبر ضمير الشّأن. ولها : متعلّق بـ "أَشْدُد". وزِيَمي : مفعوله، ومضاف إليه؛ وهو ياء المتكلّم. ويحتمل - على ضُعفٍ - أنْ يكون مفعول "المحاول" محذوفاً؛ أيْ مدائحاً كمدائحي، و"شأوي" مبتدأ، و"في مدائحه" متعلّق به، وما بعده الخبر، وعلى هذا الوجه يصحّ أنْ يكون "المحاول" بالجيم؛ أيْ يُجَاولني في ميدان حروب المدائح.

ولا : ناهية. تقل : مضارع مجزوم بها، أصلها : تقول، حُذفت الواو للسّاكنين. لي : متعلّق به. واللاّم للبيان.

بماذا : الظّاهر أنّ "ماذا" كلّه اسم استفهام، والباء متعلّقة بـ "نِلْت" وتقدّمت، لجرّها ما له صدر الكلام. جَيّده : مفعول بـ "نلت"، ومضاف إليه. فما : الفاء عاطفة جملة النّفي على جملة النّهي، وهي مسبَّبَة عنه، و"ما" نافية.

يقال : مضارع مبني للمفعول. ولفضل الله : متعلّق به، ولامه للبيان أيضاً. وذا : مبتدأ. وبِكَم : خبر مبتدأ محذوف مقدّر التأخير؛ أيْ

بِكَم هو، ولا يكون خبر "ذا"؛ لوجوب تقديم هذا الخبر على مبتدإه؛ لأنّ له صدر الكلام، والجملة خبر "ذا".

لولا : حرف امتناع لوجود.

العناية : مبتدأ، خبره محذوف وجوباً؛ أيْ موجود، وتقدّم إعرابها في قوله : "لولا الهوى". كان : جواب "لولا".

الأمر : إمّا فاعل إنْ كانت تامّة، وهو الأظهر، أو اسمها إنْ كانت ناقصة. وعلى التّمام ف "فيه" و"على حَدّ" يتعلّقان بها، وعلى النّقص ف "على حدّ" خبرها، و"فيه" حال من الضّمير في الخبر، ولا يصحّ أنْ يتعلّق ب "السّواء"؛ لأنّ معمول المضاف إليه لا يتقدّم على المضاف، لا لأنّ "السّواء" بمعنى مُسْتَوٍ، فتكون «أل» موصولة، فلا يتقدّم معمول صلتها؛ لأنّه ليس بصفة صريحة، وإنْ صحّ ذلك، فيكون دليلاً على عامل "فيه"، ولا لأنّه مصدر، فلا يتقدّم معموله؛ لأنّه ليس بمعنى الحدوث، فينحلّ إلى "أنْ والفعل".

وقوله : "فَذُو نُطْق" : تقدّم إعرابه[1]، إلاّ أنّ حذف "كان" في هذا المقام لا يراه البصريّ[2]، و"كَذِي بُكُم" خبرها، ويَقْلق جعل "ذو نطق" مبتدأ، خبره "كَذِي بُكُم".

---

(1) وذلك في آخر ترجمة المعاني من شرح هذة الأبيات، وأعربها اسم "كان المقدّر" ومضاف إليه، علّل تقدير "كان" بقوله: لأنّها جملة معطوفة على جواب "لولا"، وهو لا يكون مُصدَّرًا إلاّ بالفعل.

(2) انظر ذلك في شرح التسهيل. ابن مالك: 283/1.

الْإِشَارَاتُ

[القصد والتوسّط في الطاعات]

لمّا كان في الأبيات الّتي قبل هذه إشارةٌ إلى أنّ الوفاء ببيعة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجدّ في اتّباع مراسمه، أشار في هذه الأبيات إلى أنّ ذلك لا ينبغي أنْ يكون على وجه الإفراط، كما ينبغي أن لا يكون على وجه التّفريط، بل القصدُ مطلوب في كلّ شيء حتّى في العبادات : «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ**»[1]، «**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»[2]، «**وإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»[3]، «**رَوِّحُوا النّفُوسَ سَاعَةً بِسَاعَةٍ**»[4]. فكما أنّ الأرض تشكو مِن دوام وَقْع المطر عليها، ولا ينتفع بما فيها إلاّ بمقدارٍ معلومٍ من الماء ومن الصّحو، فكذلك أرض القلب وأرض البدن - إنْ توالت عليها الطّاعة - قد تشكو، ولذلك قال عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - حين كبِر : «يَا ليتني قبلتُ رخصةَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[5]. ولا يواصل أحدٌ الصّوم اقتداءً به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(1) رواه الإمام أحمد عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ مرفوعا : 346/20. رقم الحديث : 13052. والحديث حسن بشواهده.

(2) رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الإيمان. بَاب الدِّينُ يُسْرٌ.

(3) رواه البخاري عَنْ عَائِشَةَ مرفوعا في الجمعة. بَاب مَا يُكْرَهُ مِنْ التَّشْدِيدِ فِي الْعِبَادَةِ.

(4) الحديث ورد بلفظ "روحوا القلوب". قال المتقي الهندي : رواه أبو داود في مراسيله عن ابن شهاب "مرسلا" وأبو بكر المقري في فوائده والقضاعي عنه عن أنس. انظر كنز العمال. المتقي الهندي : 37/3. رقم الحديث : 5354.

(5) سبق تخريجه.